

النص الكامل
طبعة الأولى والوحيدة باللغة العربية

اغاثا كريستي



السَّتَّارَة
قضية بوارو الأخيرة



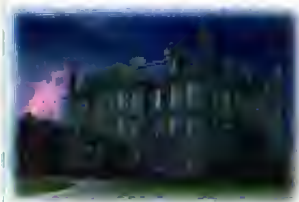
الأجيال
للترجمة والنشر
The Publishers

APPROVED

٧٦

Agatha
Christie

Agatha Christie



Curtain: Poirot's Last Case

السَّتَارَة

عاد الكاشف هيرستغز إلى قصر «ستايلز» بعد كل هذه السنين ليجد صديقه الحميم بوارو عجوزاً مُفْتَعِداً يتحرك على كرسي ذي عجلات.

بالنسبة للكاتب هيرستغز بدا كل الضيوف في «ستايلز» نطقاء مسالمين، لكن بوارو يقول إن بينهم قاتلاً!

هيرستغز يظن أن بوارو قد فقد قدراته وبات يتخيل الأمور، لكنه يكشف أن صديقه كان على صواب، لقد رأى هيرستغز البرهان: موت بوارو!

هيركبول بوارو

رواية جديدة من روايات الكاتبة العملاقة التي تُعتبر أعظم مؤلفة في التاريخ من حيث انتشار كتبها وعدده ما بيع منها من نسخ، وهي -بلا جدال- أشهر من كتب قصص الجريمة في القرن العشرين وفي سائر العصور. وقد تُرجمت رواياتها إلى معظم اللغات الحية، وقارب عدد ما طُبِعَ منها ألفي مليون نسخة!

رقم هذه الرواية حسب ترتيب
صدور الروايات بالإنكليزية

الناشر وصاحب الحق الحصري
بالطبعة العربية في جميع أنحاء العالم

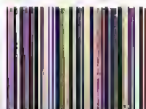


الأجيال

للترجمة والنشر

Al-Ajyal Publishing

ISBN 2-1957-2677-7



US \$ 4.00

سعر البيع ١٥ ريالاً

قصة هذه الرواية

توضيح من «الأجيال»

في تعريفنا بأغانا كريسي الذي قرأتموه في الصفحات السابقة قلنا إنها قد تطوعت للعمل في أحد المستشفيات ممرضةً تساعد الجرحى خلال الحرب العالمية الأولى. وعندما قامت الحرب العالمية الثانية كانت أغانا في نحو الخمسين من عمرها، لكن هذا لم يمنعها من العودة إلى التطوع والعمل بالتمريض، في بلدتها توركي أولاً ثم في لندن بعد ذلك.

وكانت الحياة في لندن في تلك الأيام مخاطرة حقيقية بسبب الغارات الكثيفة التي كانت الطائرات الألمانية تطلقها على العاصمة البريطانية ليلاً ونهاراً، حتى إن البيت الذي أقامت فيه أغانا لم ينجُ من الإصابة بالقنابل. وحينما سافر زوجها إلى الشرق الأوسط ملتحقاً بـهزيمة مع القوات الجوية الملكية بقيت أغانا في لندن وحدها، وراحت تشغل أكثر وقتها بالكتابة. ورغم انهماكها بأعمال التمريض كان الوقت الذي منحه للكتابة طويلاً، وفي تلك السنوات نشرت عدداً كبيراً من الأعمال: «السروة الحزينة» و«إبريم الحذاء» في عام ١٩٤٠، و«شريحة الشمس» و«إن أو م؟» في عام ١٩٤١،

والجثة في المكتبة» والإصبع المتحرك» في عام ١٩٤٢ ، و«جريمة في الذاكرة» في عام ١٩٤٣ ، و«باتجاه الصفر» و«غائب في الربيع» (من روايات ماري ويستماكوت) في عام ١٩٤٤ ، وأخيراً «في النهاية يأتي الموت» و«السيانيد المتلاشي» في عام ١٩٤٥ .

هذه هي الروايات التي نشرتها أغاثا معا كتيبه في تلك السنوات الحرجة، لكنها لم تكن كل شيء؛ قبلاً إضافة إليها كتبت روايتين أرادت أن تجعلهما آخر روايات هيركيول بوارو والأنسة ماربل، لكنها صممت على عدم نشرهما في حياتها وأوصت بطباعتهما فقط إذا ما قُتل في انفجارات القنابل في لندن. وحينما انتهت الحرب بسلام قررت أن لا تُنشر هاتان الروايتان إلا بعد موتها.

فأما رواية الأنسة ماربل (الجريمة الثامنة)، فقد نُشرت بعد وفاة أغاثا كريستي بأقل من عام، وأما رواية بوارو (التي يموت في آخرها)، «الستارة»، فقد نُشرت في آخر عام ١٩٧٥ بسبب إلحاح ناشر أغاثا الإنكليزي على تقديم جديد لقراءها في تلك السنة التي أعجزتها فيها الشبوخة عن تقديم جديد، وقد توفيت أغاثا بعد نشر هذه الرواية بأقل من ثلاثة أسابيع.

وهكذا فإن «الستارة» قد بقيت حبيسة الأدراج لنحو ثلث قرن قبل أن تخرج - أخيراً - إلى الناس.



الفصل الأول

من منا لم يشعر بالتم مفاجئ عندما يحيا موة أخرى تجربة قديمة أو يشعر بشعور قديم؟ لقد حدث لي هذا من قبل. لماذا توقّر هذه الكلمات في المرء بجمّ؟ كان ذلك هو السؤال الذي سأله نفسي وأنا جالس في القطار أراقب أواصي (يسكن المنبسطة في الخارج، كم مضى من الوقت منذ أن قدمت برحلة مماثلة لهذه الرحلة داخل نفسي؟ لقد شعرت (وهذا شعور مخيف) بأن الحياة قد انتهت بالنسبة لي. لقد نُجرح في الحرب، تلك الحرب التي ستبقى دائماً بالنسبة لي هي الحرب، تلك الحرب التي تبعثها حرب ثانية أكثر تهوراً.

في عام ١٩١٦ بدا لأرثر هيبستغز الشاب أنه قد كبر ونضج. لم أدرك الأمر جيداً، فبالنسبة لي لم تكن الحياة إلا لي بدايتها. كنت أقوم بهذه الرحلة (على الرغم من أنني لم أكن أعلم) لأقابل الرجل الذي كان تأثيره عليّ سيغير حياتي ويعيد تشكيلها. في الواقع كنت سأذهب لأقيم مع صديقي القديم جون كافيندش الذي تملك أمه (التي كانت قد تزوّجت حديثاً) بيتاً ريفياً يُدعى «ستابلز». كان الأمر لمّ شعلٍ مسلياً لأصدقاء قدامى... هذا كل ما كنت أعتقد، ولم أنتبأ بأنني سأقتحم في جريمة غامضة.

وقد كان «ستابلز» هو المكان الذي التقيت فيه مرة أخرى بذلك الرجل الضئيل الغريب هيركيول بوارو، والذي قابلته لأول مرة في بلجيكا. أذكر جيداً دهشتي لدى رؤيتي له وهو يمشي متمبلاً في شارع القرية بشاربه الكبير.

هيركيول بوارو! منذ تلك الأيام أصبح هو صديقي العزيز. وقد أعاد تأثيره صياغة حياتي. وخلال وفقته بحثنا عن جرائم جديدة، والتقيت بزوجتي سندريلا، تلك الفتاة الرقيقة التي يحلم بها أي رجل. إنها ترقد الآن تحت التراب الأرجنتيني. فقد ماتت كما كانت تسمى، دون أن تعاني طويلاً أو يضعفها التقدم بالعمر، ولكنها خلقت وراءها رجلاً وحيداً تبساً.

أه لو كان بإمكانني الرجوع إلى الوراء لأعيش حياتي مرة أخرى! لو أن هذا اليوم كان ذلك اليوم من عام ١٩٦٦ عندما سافرت إلى «ستابلز» لأول مرة! ما التغييرات التي حصلت منذ ذلك الوقت؟ هل اختلفت الوجوه؟ لقد باعت عائلة كافيندش قصر ستابلز وصات جون كافيندش. ولكن زوجته ماري، تلك المخلوقة المدهشة الغامضة، لا تزال حية وتعيش في ديونشابر، أما لورنس فيعيش مع زوجته وأولاده في جنوب إفريقيا. تغيرات، تغيرات في كل مكان، ولكن بقي شيء واحد كما هو: هيركيول بوارو، على الرغم من غرابة ذلك.

كنت ذاهباً إلى «ستابلز» لمقابلة هيركيول بوارو. لقد دهشت عندما استلمت رسالته، وكان عنوانها: «قصر ستابلز، ستابلز، إسكس». فانا لم أؤ صديقي منذ نحو عام، وفي آخر مرة رأيته فيها

أصبحت بالصدمة والحزن؛ فقد رأيت فيه رجلاً عجوزاً أقعدته التهاب المفاصل. وقد ذهب إلى مصر وهو يأمل بأن تتحسن صحته، ولكنه عاد (كما أخبرني في رسالته) وقد ساءت صحته، وعلى الرغم من ذلك فقد بدا من كتابته بأنه مرح؛ إذ كتب لي في رسالته يقول:

ألا يترك أن تزور العنوان الذي أكتب لك منه يا صديقي؟ عنوان يشير الذكريات القديمة، أليس كذلك؟ نعم، أنا هنا في «ستابلز»، وأقول ما تشاء. لقد أصبح الآن تزلأ يديره كولونيل بريطاني عجوز محافظ جداً، ومن المعروف أن زوجته هي التي تجعل المكان ترحباً؛ فهي مديرة جيدة، ولكن لسانها سليط يعاني الكولونيل المسكين بسببه كثيراً. ولو كنت مكانه لكنت قتلها بالبلطة؟

لقد رأيت إعلاناً في الصحيفة، فنادني فضولي إلى العودة مرة أخرى إلى المكان الذي كان منزلي الأول في هذا البلد. كم يستمتع المرء بذكريات الماضي وهو في سنّي!

وقد وجدت هنا رجلاً باروناً، وهو صديق للرجل الذي تعمل معه ابنتك. وفجأة أدركت الخطأ، أدركت أنه يوجد إقناع عائلة فرانكلين بالتقدم إلى هنا هذا الصيغ، ويدورني سأقنعك أنا بالمجيء. ستكون كلنا معاً كعائلة واحدة، وسوف ينال هذا استحسان الجميع، ولذلك تعالَ بسرعة يا عزيزي هبستغز، بسرعة كبيرة. لقد حجزت لك غرفة بحمام خاص. ستابلز القديم - كما سترى - تم تحديثه، وقد ناقشت السيدة لانريل كثيراً بخصوص الأمر حتى توصلت إلى

اتفاق، والأجر رخيص جداً بالفعل.

عائلة فرانكلين وابنتك الساحرة جوديث يقيمون هنا منذ أيام. وقد نم ترتيب كل شيء، لذلك لا تحاول نلليق الأعداء. إلى المظلي قريباً.

صديقك دائماً: هيركيول بوارو.

كان الأمر مخرباً جداً، ولييث رغبة صديقي دون اعتراض. لم يكن شيء يقيدني! فأننا لست مستقراً في مكان ما، أما بالنسبة لأولادي فأحدهم في البحرية، والآخر متزوج ويدير مزرعة في الأرجنتين، وابتي غريس تزوجت جندياً وتقيم الآن في الهند. أما ابنتي جوديث فقد كانت دائماً ابنتي المفضلة على الرغم من أنني لم أفهمها قط! كانت طفلة غريبة كنيية تعمل إلى الكتمان، تحتفظ بأمورها لنفسها ولا تستشير أحداً، الأمر الذي كان يزعجني ويجعلني أشعر بالإهانة. وكانت زوجتي أكثر تفهماً وكانت تؤكد لي أن ذلك لا يعني أن جوديث لا تثق بي بل هو أمر خارج عن إرادتها، ولكنها كانت تقلق بشأنها مثلي تماماً.

كانت تقول إن مشاعر جوديث عميقة جداً ومركزة جداً. وإن طبيعتها المتحفظة تحرمها من أي صدام آمن. كانت تمتاز بنوبات غريبة من الصمت والكثيب وشعور قوي بالانتماء. وكانت أذكى أفراد العائلة، ولذلك وقفنا بسور على رغبتها في الالتحاق بالجامعة، وقد نالت شهادة جامعية في العلوم قبل عام، ثم عملت سكرتيرة لطبيب كان يجري أبحاثاً تتعلق بالأمراض الاستوائية، أما زوجته

فكانت مفعلة نوعاً ما. وكنت أتساءل أحياناً عما إذا كان اهتمامك جوديث في عملها وإخلاصها لمديرها علامة على أنها قد أحبت، ولكنني تأكدت أن أساس علاقتها هو أساس عملي فقط. واعتقد أن جوديث تحبني ولكن طبيعتها لا تسمح لها بالتعبير عن مشاعرها، وكثيراً ما كانت تغضب وتندمر مما تسميه أفكارني الانفعالية القديمة، وأعترف بأنني كنت أشعر بالعصبية تجاه ابنتي.

عند هذه النقطة قطع تأملاتي صوت الطائر وهو يقترب من محطة ستايلز سينت ميري. على الأقل لم تتغير هذه المحطة، بل غفل عنها الزمان فلا تزال جائمة وسط الحقول دون أي سبب للوجود. لكن حينما سارت سيارة الأجرة عبر القرية لاحظت الاختلاف الذي أحدثه مرور الزمن؛ فقد تغيرت ستايلز سينت ميري كلياً عما كنت أعرفها، فجدت فيها محطات وقود ودار عرض وصفوف من منازل البلدية.

ثم العطفنا نحو بوابة ستايلز، وهنا ابتعدنا مرة أخرى عن المدنية الجديدة. كان المكان لا يزال كما أذكره، لكن الممر كان مهتلاً وقد نمت فيه الأعشاب فوق الحصى. وانعطفنا حول إحدى الزوايا، وعندها لاح لنا المنزل. كان لا يزال كما كان من حيث المظهر الخارجي، وبدا أنه يحتاج إلى أن يُعاد طلاءه.

وكما حدث عندما أتيت إلى هنا في المرة الأولى، رأيت امرأة متحنية على أحد أحواض الحديقة. وكاد قلبي يتوقف عن الخفقان من فرط الدهشة، ثم نهضت وتوجهت نحوي فضحكت من نفسي؛ إذ كان بينها وبين إيفلين هاورد الضخمة فرق كبير لا يمكن تصوّره. كانت أمامي امرأة عجوز ضئيلة الحجم ذات شعر غزير أبيض مجعد

وخدود زهرية وزوجين من الأعين الزرقاء الفاتحة الباردة، التي كانت تختلف تماماً عن لطفها وحسن تصرفها اللذين كانا مبالغاً فيهما بالنسبة لي.

قالت لي بترحاب وودّ: أظن أنك الكابتن هيستنغز، أليس كذلك؟ يداي متسختان فلا أستطيع مصافحتك. نحن مسرورون لزيارتك، وقد سمعنا عنك الكثير. يجب أن أعرفك بنفسك أولاً: أنا السيدة لاتريل، وقد اشترت أنا وزوجي هذا المكان في نوبة جنون، ونحن نحاول الاعتناء به ودفعه إلى النجاح. لم أحلم يوماً بأنني سأصبح مالكة فندق، ولكنني أحذرك يا كابتن هيستنغز، أنا امرأة عملية وأقوم بكل ما أستطيعه.

وضحكنا معاً كما لو كانت نكتة جيدة، ولكن يدا لي أن ما قاله السيدة لاتريل حقيقة أكيدة، فخلّف هذا المظهر المخادع من سحر السيدة العجوز استطعت أن ألحظ الصلابة والقسوة. وعلى الرغم من أن السيدة لاتريل تميل إلى استعمال اللهجة الأيرلندية إلا أنها لم تكن من أصل أيرلندي، بل كان هذا مجرد تكلف منها.

سألت عن صديقي فقالت: آه! السيد بوارو المسكين. الطريقة التي كان يترقب بها حضورك تذيب الحجر! أشعر بالأسف الشديد نحوه وهو يعاني بهذه الطريقة.

سرنا باتجاه المنزل في حين كانت تنزع قفازات العمل، وتابعت قائلة: وابتلك الجميلة أيضاً... إنها فتاة لطيفة وضمن جميعاً معجبون بها جداً، ولكنني تقليدية كما تعلم، ومتأثرة جداً أن فتاة مثلها تقضي وقتها في تشريح الأرانب والجُلوس خلف المجهر

طول اليوم! مثل هذه الأمور يجب أن تُترك للرجال في رأيي، أما فتاة شابة مثلها فينبغي أن تستمتع بمباهج الحياة.

- أين جوديث؟ أهي قريبة؟

بدأ الامتناع على وجه السيدة لاتريل وقالت: آه، يا للفتاة المسكينة! إنها مسجونة في ذلك المعمل في نهاية الحديقة. لقد استأجره الدكتور فرانكلين مني وهو الذي قام بإعداده وترتيبه وتجهيزه بأقفاص فيها حيوانات للتجارب. يا للمخلوقات المسكينة، فتران وأرانبا! لا أظن أنني أحب هذا العلم يا كابتن هيستنغز. آه، هذا هو زوجي.

كان الكولونيل لاتريل قد جاء ماشياً من وراء زاوية المنزل. كان رجلاً طويلاً نحيلاً ذا وجه شاحب وعينين متوسطتي الزرق، وكان من عادته شدّ شاربتيه الأبيضين بحيرة، وبدأ سلوكه غامضاً ويميل إلى العصبية.

قالت زوجته: جورج، لقد وصل الكابتن هيستنغز.

فصاحني الكولونيل لاتريل قائلاً: لقد وصلت في قطار الساعة الخامسة والربع دقيقة، أليس كذلك؟

قالت السيدة لاتريل بحدّة: وبمّ تظن أنه وصل؟ وماذا يعني لك الأمر على أي حال؟ أصبحه إلى غرفته يا جورج، ولعله يريد الذهاب إلى السيد بوارو من فوراً أو لعله يفضل تناول الشاي أولاً.

أكدت لهما أنني لا أريد الشاي بل أفضل الذهاب للسلام على صديقي، فقال الكولونيل لاتريل: حسناً، التبعني! أظن أنهم أخذوا

أغراضك إلى غرفتك، أليس كذلك يا عزيزي؟

قالت السيدة لانتربيل بحدة: هذا من اختصاصك يا جورج. كنت أعني بأمور الحديقة ولا أستطيع الاعتناء بكل شيء هنا.

- نعم، نعم، بالطبع؛ سوف أهتم أنا بالأمر يا عزيزي.

ووثعته إلى الدرجات الأمامية، وعلى عتبة الباب صادفها رجل رمادي الشعر مثلث الجسم ذو وجه طفولي منحمن. كان يجري مسرعاً وهو يهرج ويبيده متظاراً، وقال وقد تلعنم قليلاً: نمة زوجان من الطيور بنيا عشمهما عند شجرة الجعيز.

وعندما كنا ندخل القاعة قال لانتربيل: هذا نورتون، إنه فني لطيف مغرم بالطيور.

وفي القاعة نفسها رأيت رجلاً ضخماً يفت قرب الطاولة، وبدأ من الواضح أنه قد انتهى من التحدث بالهاتف، ثم نظر نحونا قائلاً: أريد أن أشتق جميع المتحمدين والبياتين... لا يمكنهم عمل شيء بالشكل الصحيح، فالتلهم الله!

بدأ قوله مضحكاً جداً ومحزوناً جداً بحيث ضحكنا معاً، وشعرت بالانجذاب نحو ذلك الرجل على الفور. كان وسمياً وقد تجاوز الخمسين، وكان وجهه شديد السمرة بفعل الشمس، وبدأ وكأنه قد عاش حياته في الخارج وأنه من تلك النوعية من الرجال الذين أصبحوا نادرين بمرور الأيام؛ رجل إنكليزي من المدرسة القديمة، مستقيم يحب حياة الترحال، ويبدو أنه رجل قيادي.

ولم أصب بالدهشة عندما فذمه لي الكونت لابل لانتربيل على أنه

السير ويليام بويد كارنغتون. كان -على حد علمي- محافظاً في إحدى محافظات الهند حيث حقق نجاحاً مثيراً، وكان معروفاً بأنه رام من الدرجة الأولى وصياد محترف. وفكرت بحزن بأنه من تلك النوعية من الرجال التي يبدو أنها لم تعد تتكاثر في هذه الأيام الفاسدة!

قال السيد ويليام: آه، أنا سعيد لأنني استطعت مقابلة هذه الشخصية الهامة... صديقي هيستغز.

قالتا ثم ضحكنا وأكمل يقول: ذلك الرجل اليلجيكي يتحدث عنك كثيراً كما تعلم، وبالطبع ابتك هنا أيضاً، وهي فتاة طيبة.

فقلت وأنا ابتسم: لا أظن أن جوديث تتحدث عني كثيراً.

- (إنها فتاة عصرية، والفتاة في هذه الأيام تبدو محزنة من الحاجة إلى التعرف بابيها أو أياها!)

فقلت: الأباء مصدر إحراج فعلاً.

فضحك قائلاً: حسناً، أنا لا أعاني بهذه الطريقة لسوء الحظ؛ فليس لدي أبناء. ابتك جوديث فتاة جميلة وذات سنوى رفيع من الثقافة، وأنا أجد ذلك مدعاة للفخر.

ثم التقط سماعة الهاتف مرة أخرى وقال: أرجو أن لا تمنع إذا أرهقت عامل الستور يا لانتربيل؛ أنا نمت بالرجل الصغير.

- لا بأس، هذا سوف يفيدهم.

ثم قادني لانتربيل إلى الطابق الأعلى، وأخذني عبر الجناح الأيسر من المنزل إلى باب في نهاية الجناح فأدركت أن بوارو قد

اختار لي الغرفة ذاتها التي كنت قد شغلتها في الماضي. كانت هناك بعض التغييرات، وبينما أنا أسير عبر الممر كانت بعض الأبواب مفتوحة، فلاحظت أن غرف النوم القديمة قد تم تقسيمها بحيث تصبح عدة غرف صغيرة.

أنا غرفتي التي لم تكن كبيرة فلم يجر عليها أي تغيير باستثناء تركيب أنابيب المياه الساخنة والباردة، وقد فصل جزء منها لاستخدامه حماماً صغيراً. ورأيت أن الغرفة قد فُرشَت بطريقة عصرية وخصبة مما أثار غيبة أمني؛ إذ كنت أفضل نمطاً ينسجم مع النمط المعماري للمنزل.

كانت حقائلي في غرفتي، وأوضح لي الكولونيل لاتريل أن غرفة بوارو هي الغرفة المقابلة، وكان علي وشك اصطحابي إلى هناك عندما ترددت من أسفل القاعة صرخة حادة تنادي: جورج!

جئت لاتريل كحصان عصبي ووضع يده على فمه وقال لي بسرعة وارتيك: أنا... أنا... هل كل شيء مناسب لك؟ استندتُ عندما تريد أمراً ما.

- جورج!

- أنا قادم يا عزيزتي، أنا قادم.

وأسرع عبر الممر، ووقفت برهة أبعده بنظري، ثم عبرت الممر وقد بدأت قلبي بالتسارع قليلاً، وطرقت باب غرفة بوارو.

* * *

الفصل الثاني

من وجهة نظري لا يوجد ما يشير الحزن أكثر من رؤية شخص تغير شكله كلياً بمرور الزمن. يا لصديقي المسكين! لقد وصفته لكم أكثر من مرة، والآن سأنتقل لكم الاختلاف: لقد أغمده النهاب المفاصل، ولذلك فهو يجر نفسه على كرسي متحرك، جسده الذي كان مثلاً ضَعُفَ فبات وجلاً ضيقاً، وصار وجهه مثلاً بالخطوط والتجاعيد. صحيح أن شاربه وشعره لا يزالان شديدي السواد، ولكنه ارتكب بذلك خطأ جسيماً في التوافق (رغم أنني لن أؤذي مشاعره بإخاؤه بذلك)، فأحياناً تظهر صبغة الشعر بشكل واضح، وأقد مر عليّ زمان دُهِشت فيه عندما علمت أن سواد شعر بوارو مصدره زجاجة صباغ، أما الآن فقد ظهر زيفه أكثر حتى لقد بدا وكأنه يضع شعراً مستعاراً ويزين شفته العليا بالشارب ليسلي الأطفال!

عياه فقط بتيتا كما كانتا في السابق، متلاكتين برفائين، وفي تلك اللحظة رأيتهما تشغان بعاطفة صادقة لا شك فيها. هتف بي حالماً رآني: صديقي ميسنغزو، صديقي ميسنغزو!

وكما كان يفعل دائماً عانقني بحنان، وأخذ ينظر إليّ وقد انكأ

إلى الخلف ورأسه يميل جانباً ثم قال: عزيزي هيسنغز، مازلتَ كما كنتَ الظهر المستقيم والأكتاف المريضة والشعر الرمادي... أتعلم يا صديقي؟ لقد هزمتَ بشكل جيد. ألا تزال القتيات يُعجبين بك؟
فاحتججت قائلاً: بوارو، هل يجب...؟

- ولكنني أؤكد لك أنه امتحان يا صديقي، بل هو الامتحان الحقيقي؛ فعندما تبدأ القتيات بالتحدث إليك بلطف ورقة فأعلم أنها النهاية، فهن يقطن لأنفسهن: "يا للرجل المسكين! علينا أن نُحسّن معاملته". من الصغيف أن تكون كذلك! ولكنك ما زلتَ شاباً يا هيسنغز، الفرصة لا تزال أمامك، نعم، ابرم شاربك وادفع بكتفك إلى الأمام. أنا أرى الأمر كما أقول، وإلا فلن تبدو وانقأ من نفسك.

انفجرت ضاحكاً وأنا أقول: لا مثيل لك يا بوارو! ولكن كيف حالك أنت؟

قال بحزن: خطام، لا أستطيع المشي فأنا مُقنّند كما ترى! ولكن - والحمد لله - مازلت قادراً على إطعام نفسي، أما سوى ذلك فيجب أن أعامل كطفل يجب مساعدته في كل أمر، يجب وضعه في الفراش بعد أن يكون قد اغتسل وارتدى ثياب النوم. هذه هي النهاية، وليس هذا بالأمر المسلي، ولكن الحمد لله؛ فرغم كل هذا الشداعي الخارجيّ فإن الجوهر سليم.

- نعم، بالطبع، فأنت تملك أحسن قلب في العالم.

- فليبي؟ هذا ممكن، ولكنني لم أكن أعني القلب بكلامي، بل

العقل هو ما عينه بالجواهر، عقلي لا يزال يعمل بصورة جيدة.

أدرت أن أي تدهور لم يُصب حالته العقلية على الأقل،
وخصوصاً فيما يتعلق بالتواضع، سأله: هل تحب المكان هنا؟

هز بوارو كتفيه قائلاً: بالتأكيد لا، ولكنه يفي بالغرض. الغرفة التي سكنت فيها عندما أتيت أول مرة كانت صغيرة، كما أنها لم تكن مفروشة بالشكل المناسب لي، فانتقلت إلى هذه الغرفة دون أي زيادة في الإيجار. أما بالنسبة للطعام فهو طعام إنكليزي في أسوأ أحواله، فالبطاطا المسلوقة إما أن تكون جافة أو أنها تنقّت بسهولة، أما الخضار فطعمه كالماء، ماء ثم ماء مرة أخرى، كما أنهم لا يستعملون البهارات والملح في الطعام أبداً.

قلت: يبدو الأمر مريعاً.

قال بوارو: "أنا لا أتذمر". ولكنه تابع التذمر قائلاً: وهناك أيضاً ما يدعونه بالتجديد، كالحمامات والصنابير في كل مكان، ولكن ماذا ينزل منها؟ ماء دافئ فقط يا صديقي... وفي معظم ساعات النهار، أما المناشف فهي صغيرة وعددها قليل.

قلت باحتراس: يوجد الكثير مما يمكن أن يُقال بحق الآلام الخوالية.

تذكرت سحب البخار الذي كان يتدفق من حنفيات المياه الساخنة الموجودة في الحمام الوحيد في "ستايلز" في تلك الأيام، وتذكرت أيضاً المناشف الكبيرة والأواني النحاسية المتابعة المملوءة بالماء الساخن التي كانت توجد في الأحواض القديمة.

وقال بوارو مرة أخرى: على الرغم أن لا يتذكر، فأنا مستعد للتضحية في سبيل هدف يستحق المعاناة.

وخطرت ببالي فجأة فكرة معينة فقلت: بوارو، أنت لا تعاني من متاعب مالية، أليس كذلك؟ أنا أعلم أن الحروب قد أثرت على الاستثمار بشكل سيئ.

ولكن بوارو طمأنني قائلاً: لا، لا يا صديقي، أنا مرتاح مادياً، بل أنا ثري في الواقع. أنا لم آت إلى هنا لأسباب اقتصادية.

قلت: "هذا جيد"، ثم تابعت: أظن أنني أفهم مشاعرك جيداً، لكننا نقدم العمر للإنسان فهو يسيل أكثر وأكثر إلى العودة إلى الأيام الماضية وتذكرها ويحاول استعادة المشاعر القديمة. إن وجودي هنا يؤلمني بشكل ما، ولكنه - في الوقت ذاته - يعيد إلى ذاكرتي مئات الذكريات والأحاسيس التي نسبت أنني كنت أشعر بها، ويمكنني القول بأنك تشعر مثلي.

- بالطبع لا، أنا لا أشعر بمثل هذا أبداً.

قلت: لقد كانت أياماً جيدة.

- تستطيع التحدث عن نفسك يا هيستنغز، أما بالنسبة لي فالدومي إلى ستايلز سينت ميري كان محزوناً ومؤلماً؛ لقد كنت لاجئاً منفياً من الوطن بعيداً عن البيت أعيش على الصدقات في بلد أجنبي لا، لم تكن أياماً سعيدة، ولم أكن أعلم في ذلك الوقت أن إنكلترا ستصبح وطني وأني سأجد السعادة فيها.

فاعترفت له قائلاً: لقد نسيتُ ذلك.

- بالضبط، أنت تصف دائماً للأخرين المشاعر التي تشعر بها أنت: هيستنغز كان سعيداً، إذن فالجميع كانوا سعداء.

فاعترضتُ ضاحكاً وقلت: لا، لا.

فتابع بوارو: على أي حال فهذا غير صحيح، فعندما تستذكر الماضي تفرق في عينيك الدموع وتقول: "آه! تلك الأيام السعيدة، كنت عندها شاباً باعاً، ولكنك - في الواقع - لم تكن سعيداً كما تظن الآن يا صديقي؛ لقد كنت تعاني آنذاك من جروح وإصابات شديدة، وكنت قلقاً من كونك لم تعد لائقاً للخدمة العسكرية، وكنت تعاني من اكتئاب شديد نتيجة إقامتك في نزل للشفاعة، وكما أذكر فقد تعقدت الأمور أكثر نتيجة لوفوقك في حب امرأتين في وقت واحد.

ضحكت وقد احمر وجهي خجلاً وقلت: ما أقوى ذاكرتك يا بوارو!

- أنا أذكر الآن كيف كنت تنهد بحزن كلما تذكرت حماقتك بخصوص هاتين المرأتين الجميلتين.

- لعلك تذكر ما قلت لي، قلت: كناهما لستانك، ولكنك تشجع يا صديقي. فربما خرجنا معاً للصيد مرة أخرى. وعندها ربما...

وتوقفت، فقد ذهبت مرة أخرى للصيد مع بوارو في فرنسا، وهناك قابلت المرأة الوحيدة...

ويرفق ريت صديقي على يدي وقال: اعلم يا هيستنغز، أعلم!

لا يزال الجرح حديثاً ولكن عليك نسيانه. لا تنظر وراءك بل انظر إلى الأمام.

قأومات باشمتراز وقلت: أنظر إلى الأمام؟ وماذا هناك لأنظر إليه؟

- حسناً يا صديقي، أماناً عمل يعجب إنجازه.

- عمل؟ أين؟

- هنا.

حدقت إليه فقال: لقد سألتني الآن عما أتى بي إلى هنا، وربما لم تلاحظ أنني لم أجتك. سأعطيك الجواب الآن: «أنا هنا للبحث عن قاتل».

فحدقت إليه مدهوشاً، ولوهلة ظننت أنه يهذي فقلت: أتت لا تعني ما نقول، أليس كذلك؟

- بالطبع أعني ما أقول، ولماذا تظنني حشك على المحاق بي؟ لم يعد جسمي سليماً ولكن عقلي - كما قلت لك - لم يضعف بعد، ومبدئي في هذه الحياة لا يزال كما كان دائماً. هل تذكر: «اجلس وفكر». هذا هو الأمر الذي لا أزال أستطيع القيام به، بل هو الأمر الوحيد الذي أستطيع القيام به في الحقيقة، أما بالنسبة إلى الجانب الآخر الحيوي والفعال من القضية فسوف أشرك به صديقي العزيز هبشتر.

كورت بلهفة: أعني ما نقول؟

- بالطبع؟ سنذهب أنا وأنت إلى الصيد مرة أخرى يا هبشتر.

احتجت إلى بضع دقائق لأدرك أن بوارو جاة في الأمر، ولم يكن لدي من الأسباب ما يجعلني أشك في حكم بوارو بالرغم من غرابة تعبيراته السابقة. قال لي وإنشامة بسيطة تعطي وجهه: لقد اختبعت أخيراً. تصورت في البداية أن عقلي قد بدأ يخف، أليس كذلك؟

فأنكرت بسرعة قائلاً: لا، لا، ولكن لا يبدو أن جريمة قد وقعت هنا.

- هل تظن ذلك؟

- بالطبع لم أر جميع الأشخاص بعد.

- من رأيت؟

- فقط السيد والسيدة لاثريل، ورجلاً يُدعى نورتون بدا لي شخصاً مسالماً، وأيضاً التفتيت بويد كارنغتون، وقد أثار اهتمامي بشدة.

أوما بوارو قائلاً: حسناً يا هبشتر، عندما نتعرف إلى بقية السكان ستبدو لك أفوالي بعيدة الاحتمال كما هي الآن.

- من يوجد أيضاً؟

- عائلة فرانكلين المكونة من طبيب وزوجته، وممرضة تعتنى بالسيدة فرانكلين، ثم ابنتك جوديث، وأيضاً يوجد رجل يُدعى أليوتون فائق النساء، ثم الأنسة كول، وهي فتاة في الثلاثينيات. يمكنني أن أقول لك إنهم قوم لطفاء.

- وأحدهم قاتل؟

- نعم، أحدهم قاتل.

- ولكن لماذا؟ كيف؟ لماذا تظن...؟

وجدت صعوبة في صياغة أسئلتي التي كان بعضها يتهاوى فوق بعض، فقال بواو: اهدأ يا هيسستنز ولنبدأ من البداية، أرجو أن تحضر لي تلك الحقيبة الصغيرة الموضوعة على المكتب، حسناً، ها هو ذا المفتاح.

وبعد أن فتحت الحقيبة أخرج منها مجموعة من الأوراق المطبوعة وقصاصات الجرائد، ثم قال: يمكن أن تدرسي هذه الأوراق في وقت فراغك يا هيسستنز، ولا تهتم بقصاصات الجرائد كثيراً، فهي روايات الصحف لعدد من المأسي، وهي غالباً غير دقيقة بل هي (بحالبي أحياناً). ولكي تأخذ فكرة عن تلك القضايا أأنا أقترح عليك قراءة هذا الملخص الذي أعدته.

أخذت الملخص ورحت أقرؤه باهتمام:

القضية «أ»: قضية إ. إرنغتون

ليونارد إرنغتون: عذات غير حميدة، يتعاطى المخدرات والمسكرات، شخصية غريبة وساذجة، زوجته منابة جذابة ليست سعيدة معه أبداً، ماتت نتيجة لتسمم غذائي، لم يقتنع الطبيب الشرعي، وبعد التشريح تبين أن سبب الوفاة سم الزدنيخ، وتبين وجود سم قاتل للأعشاب الضارة في البيت ولكن كان قد تم طليه منذ مدة طويلة. اعتقلت السيدة إرنغتون ووجهت إليها تهمة القتل،

وكانت قد تعرفت حديثاً إلى رجل يعمل في الخدمة المنزلية سوف يعود إلى الهند.

لم يظهر أي دليل على وجود خيانة زوجية ولكن كان بينهما نوع من الانسجام العميق، ثم تبين أن ذلك الشاب قد عذب وسوف يتزوج فتاة كان قد عرفها في إحدى رحلاته. وقد ثارت الشكوك: هل تلقّت السيدة إرنغتون رسالة تخبرها بتلك الحقيقة بعد وفاة زوجها أو قبل الوفاة؟ هي تقول إنها تلقتُها قبل وفاته، وكانت الأدلة ضدها ظرفية، لا يوجد منهم آخر واحتمال أن الأمر كان حادثاً غير وارد.

تعاطف الناس معها في أثناء المحاكمة نتيجة لشخصية زوجها ولعاملته السيئة لها، وكان تلخيص القاضي في صالحها مؤكداً على أن حكم المحلفين يجب أن يكون مبنياً على عدم الشك إطلاقاً، فتمت تبرئة السيدة إرنغتون. ولكن الرأي العام كان يؤكد أنها مقبنة، وقد أصبحت حياتها - بعد ذلك - صعبة نتيجة لمعاملة الأصدقاء وغيرهم لها ببرود، ثم ماتت نتيجة تناولها جرعة مضاعفة من الحبات المزمومة بعد سنتين من المحاكمة، وتقرر بعد التحقيق أن الوفاة كانت نتيجة حادث.

القضية «ب»: السيدة شارليس

عجوز عائس عاجزة صعبة العراس تعاني من الألام كثيراً، تعني بها ابنة أختها فريدا كلاي، ماتت نتيجة تناولها جرعة مضاعفة من المورفين، واعترفت فريدا كلاي بالذنب قائلة إن معاناة عائلتها كانت شديدة ولم تعد تستطيع الاحتمال فأعطتها المورفين لتخفيف الألم.

رأى الشرطة أن العمل كان متعثراً ولم يكن عن طريق الخطأ، ولكن الأدلة لم تكن كافية لانتهامها.

القضية ج: إدوارد رينز

عامل زراعي، شك بأن زوجته تخونه مع تزييلهم من كريك، عُثر على كريك والسيدة رينز مفتولين بالرصاصة وتبين أن الطلقات مصدرها بندقية السيد رينز. سلم رينز نفسه إلى الشرطة وقال إنه يظن بأنه هو الذي ارتكب الجريمة، ولكنه لا يستطيع التذكر. حُكم على رينز بالإعدام ثم خُففت الحكم بعد ذلك إلى الأشغال الشاقة المؤبدة.

القضية د: ديريك برادلي

كان على علاقة بإحدى الفتيات، واكتشفت زوجته الأمر فهددته بالقتل. مات نتيجة لوضع سيانيد البوتاسيوم في شرابه، وتم القبض على السيدة برادلي وحوكمت بتهمة القتل، وانهارت عند الاستجواب وتم الحكم عليها وشُنقت.

القضية هـ: ماثيو لينسفيلد

طاغية عجوز، عنده أربع بنات لا يسمح لهن بالتسليع ولا يعطيهن نقوداً، وعندما كان عائداً إلى البيت حاجمه أحداهم في إحدى الأمسيات على عتبة بابه وقتله بقرية على رأسه. وأخيراً وبعد تحريات الشرطة تقدمت ابنة مرغريت إلى الشرطة واعتزفت بقتل والدها، وقالت إنها ارتكبت جريمتهما لكي تتمكن أخواتها من التمتع بحياتهن قبل قوات الأوران. وقد خلف لينسفيلد وراءه

ثروة هائلة، واعتُبرت مرغريت مجتونة وأدخلت إلى مصح برودمور، لكنها ماتت بعد فترة قصيرة.

* * *

قرأت بدهشة واهتمام، وأخيراً وضعت الأوراق جانباً ونظرت إلى بوارو مستأثراً فقال: حسناً يا صديقي، وماذا بعد؟

فقلت ببطء: أنا أتذكر قضية برادلي، لقد قرأت عنها في ذلك الوقت. ولكن أخبرني: ما سبب كل هذا؟

- أخبرني أولاً برأيك فيما قرأت.

كنت منحيراً فقلت: ما قدمته لي هو روايتك لخمس جرائم مختلفة حدثت في أماكن مختلفة وضمن طبقات مختلفة من الناس، كذلك لا يوجد أي تشابه بينها، فإحداها كانت قضية طيرة، وأخرى كانت زوجة تيسة تحاول التخلص من زوجها، وثالثة كان الدافع إليها المال، ورابعة يمكن القول إن هدفها غير أناني، ولا سيما وأن القتالة لم تحاول التخلص من العقاب. أما الخامسة فقد كانت وحشية وفي الغالب ارتكبت بتأثير الشراب.

وتوقفت هنيئة ثم قلت: أنا لست واثقاً... هل يوجد أي عامل مشترك بينها لم ألاحظه؟

- لا، بل كنت دقيقاً في تلخيصك، ولكن النقطه الوحيدة التي كان يجب أن تذكرها ولم تفعل هي أنه لم يوجد مجال لتلك في أي من القضايا.

- لا أظن أنني أفهمك.

- لقد تمت تبرئة السيدة إرنغتون على سبيل المثال، ولكن الجميع - دون استثناء - كانوا متأكدين من أنها هي الجانية. وتم تهم فريدا كلاي بشكل واضح ولكن أحداً لم يفكر بأى حل آخر للجريمة. وقد قرر ريمز أنه لا يتذكر بأنه قتل زوجته وعشيقها، ولكن لم يوجد أي احتمال بأن أحداً آخر قد ارتكبها. واعترفت مرغريت ليشفيلد بجريمتها. فكما ترى يا هينتنغز: في كل قضية يوجد متهم واحد فقط.

فطبتُ حاجتي وقلت: نعم، هذا صحيح، ولكنني لا أدري ما هي الاستنتاجات التي تخرج بها من ذلك.

- آه، ولكن كما ترى فأنا توصلت إلى حقيقة لا تعلمها أنت بعد. افترض - يا هينتنغز - أنه في كل حالة من الحالات السابقة كان هناك طرف غريب، شخص غريب وُجد في الحالات كلها.
- ماذا تعني؟

قال بوارو بيضاء: أنا أنوي أن أكون حذراً جداً فيما أقول يا هينتنغز. دعني أوضح لك الأمر: هناك شخص ما سأسأله «س». من الواضح أن السيد «س» هذا لم يكن لديه دافع واضح في جميع الحالات السابقة لارتكاب جريمته، بل لقد اكتشفت أنه كان بعيداً مسافة متني ميل عندما ارتكبت الجريمة في إحدى القضايا. وعلى الرغم من ذلك فأنا أقول لك إن «س» كان على علاقة حميمة بإرنغتون. وأنه عاش لبعض الوقت في نفس القرية التي عاش فيها ريمز. وأنه كان يعرف السيدة برادلي، وإن لدي صورة له وهو يسير

مع فريدا كلاي في الشارع، وأنه كان قريباً من المنزل عندما قُتل المعجوز ماثيو لينسفيلد... فماذا أقول بهذا الشأن؟

حذفت إليه ثم قلت بيضاء: نعم، هذا كثير بالفعل. قد تكون صدقة في قضية أو اثنتين أو حتى في ثلاث، أما في خمس قضايا؟ هذا كثيراً! إذن لا بد من وجود علاقة، مع أن الأمر يبدو مستبعداً بين تلك الجرائم المختلفة.

- إذن فقد توصلت إلى ما توصلت إليه أنا؟

- تقصد أن «س» هو الثقال؟ نعم، هذا ما توصلت إليه.

- في هذه الحالة أنت على استعداد للطُيبي معي قديماً يا هينتنغز. والآن دعني أخبرك: إن «س» يعيش في هذا المنزل.

- هنا؟! في «ستايلز»؟!

- نعم، في «ستايلز». فما هو الاستنتاج المنطقي الذي نستنتجه من هذا؟

كنت أعلم النتيجة عندما قلت: تابع، قلها.

فقال بوارو بصوت خفيض وقور: إن جريمة سُرتِكب هنا عما قريب.



الفصل الثالث

لوهلة نظرتُ إلى بوارو برعب ثم قلت : لا، لن تحدث جريمة هنا لأنك سوف تمنعها.

رماني بوارو بنظرة حانية وقال: صديقي المخلص، كم أقدر ثقتك بي، ولكن مع ذلك فأنا لست واثقاً إذا كنت محققاً في تقديرك لي هذه المرة.

- هراء! أنت تستطيع منعها بالطبع.

وكان صوت بوارو منخفضاً عندما قال: انتظر لحظة يا هيسنغز، يستطيع المرء العثور على القاتل، ولكن كيف يستطيع أن يوقف جريمة؟

- حسناً أنت... أنت... حسناً، أعني... إذا كنت تستطيع أن تتنبأ...

وتوقفتُ وقد أحسستُ بالضعف لأنني بدأت أرى الصعوبات، لفلقال بوارو: أترى أن الأمر ليس سهلاً؟ توجد ثلاث وسائل فقط: الأولى هي تحذير الضحايا، أن نجعلهم حذرين، وهذا لا ينجح

دائماً لأن من الصعب جداً إقناع بعض الناس بأنهم معزّيون لخطر شديد، وقد يكون هذا الخطر من شخص قريب وعزيز عليهم، سوف يتضربون وسيرفضون التصديق، أما الوسيلة التالية فهي تحذير القتاتل، كأن تقول له بلهجة غامضة: "أنا أعلم نواياك، وإذا مات هذا أو ذاك سوف نشنّ لا محالة". وهذا الأسلوب ينجح أكثر من الأسلوب الأول في أغلب الحالات، ولكن من المرجّح أن يفسل أيضاً؛ فالقتاتل هو أكثر المخلوقات غروراً على وجه الأرض يا صديقي، القتاتل دائماً أذكى من الجميع؛ لا أحد يشك فيه، وسوف يربك رجال الشرطة ونتيجة لذلك فإنه سيعضي في خطته، وكل ما نحصل عليه هو السعادة عندما نشنّه لاحقاً.

ونوقف ثم قال بحرص: لقد ألدرك القتاتل مرتين في حياتي، الأولى في مصر والثانية في مكان آخر، وفي كلتا الحالتين كان المحرم مصتماً على القتل، وربما كان الوضع كذلك هنا.

وذكرته قائلاً: لقد تحدثت عن أسلوب ثالث؟

- نعم، ولكنه يحتاج إلى براعة تامة، فأنت بحاجة لأن تتوقع كيف ستأتي الضربة وأين، ويجب أن تكون مستعداً للتدخل في اللحظة الحاسمة؛ يجب عليك الإمساك بالقتاتل حتى إن لم يكن متلبساً، ولكن يكفي أن لا تكون نواياه السبّة محلّ يشك.

وتابع بوارو قائلاً: وهذا أسلوب ذو أهمية وصعوبة شديديتين يا صديقي، ولا أستطيع ضمان نجاحه ولو للحظة. قد أكون مغروراً ولكن ليس إلى هذه الدرجة.

- وأني الأساليب تقترح استخدامه هنا؟

- من المحتمل أن أستخدم الثلاثة معاً، والأول هو أصعبها.

- لماذا؟ كنت أظنه الأسهل.

- نعم، هذا إن كنت تعرف من سيكون الضحية، ولكن ألا تدرك بأنني لا أعلم من الضحية يا هبستغز؟

- ماذا؟

فلنبدأ بقوة وبلا تفكير. وبدأت تظهر لي صعوبات الموقف؛ فالصلة موجودة، يجب أن تربط بين هذه السلسلة من الجرائم صلة، ولكننا لا نعرف ما هي هذه الصلة؛ أما الدافع (وهو أمر شديد الأهمية) فإنه مفقود، ودون معرفته لا نستطيع معرفة المهدّد بالقتل!

أوماً بوارو برأيه عندما رأى من تعبيرات وجهي أنني قد أدركت صعوبة الموقف، وقال: هل ترى يا صديقي؟ إن الأمر ليس سهلاً.

- نعم، أرى ذلك. أتم نستطع -بعد- اكتشاف الصلة بين هذه القضايا المختلفة.

هز بوارو رأسه وقال: لا شيء هنا.

وكرر مرة أخرى في القضايا «أ» و«ب» و«ج». لقد تعاملنا في الماضي مع قضية بدا منها ظاهرياً أنها سلسلة من الجرائم حسب الأحرف الأبجدية، ثم تبين أنها كانت أمراً مختلفاً في الحقيقة. سألته: هل أنت متأكد من عدم وجود أي دافع مادي،

كما حصل في قضية إيفلين كارليل على سبيل المثال؟

- نعم، ولكن منأكد من أن المكاسب المادية هي أول ما أبحث عنه يا عزيزي هيبستغز.

وفي الواقع كانت تلك هي الحقيقة. وفكرت مرة أخرى فيما إذا كانت عملية انتقام، فهذا الافتراض يتفق مع الحقائق أكثر. ولكن حتى هذا الافتراض يفتر إلى حلقة الوصل. وتذكرت قصة كنت قد قرأتها عن سلسلة من الجرائم بدا أنها تُرتكب دون أي هدف، ثم ظهر أن الضحايا كانوا من المحققين، وقد ارتكب الجرائم رجل كانوا قد جرموه سابقاً. استوقفتني فكرة أن هذا قد ينطبق على قضيتنا، وشعرت بالخجل لأنني احتفظت بالفكرة لنفسی لأنني شعرت أنها ستكون مصدر زهوي لو استطعت أن أذهب إلى بوارو بالحمل، وبدلاً من ذلك فقد سألته: والآن أخبرني، من هو السيد «س» هذا؟

وليزيد من إزعاجي هز رأسه بتأكيد وقال: هذا ما لا أستطيع إخبارك به يا صديقي.

- هذا غير منطقي! ولماذا لا يمكنك هذا؟

تلاوات عينا بوارو وقال: لأنك لا تزال هيبستغز القديم ذاته يا صديقي، حيث يُظهر ملامحك ما تفكر به، وأنا لا أريدك أن تجلس محققاً إلى هذا الرجل وقمك مفتوح ووجهك يشير بوضوح إلى أن هذا الذي ننظر إليه قاتل.

- يمكنك أن تتقني بي وبقدرتي على الإخفاء عند الحاجة.

- عندما تخفي يزداد الأمر سوءاً، لا، لا يا صديقي، يجب أن نكون أنت وأنا كتومين وحذرين، وعندما نقرر الهجوم فسوف نهجم.

- أيها الشيطان العجوز العنيد! لي عقل جيد و...

قاطعتني طرق على الباب فهتف بوارو: ادخل.

ودخلت ابنتي جوديث. أحب أن أصف لكم جوديث، ولكنني كنت دائماً ضعيفاً في الوصف. جوديث فتاة طويلة القامة مرفوعة الرأس حاجبها حالكان مستويان، فكاهما وخداهما جميلان، وهي منزمنة وقوية مثبنة، ولكنها من النوع الساخر، وكنت أتذكرها دائماً وقد اقترن بها شيء من المأساة.

لم تأت إلي لتفتلني؛ ليست جوديث من تلك النوعية، بل ابتسمت لي قائلة: مرحباً يا أبي.

كانت ابتسامتها تحبلي ولكنها جعلتني أشعر بأنها (وبالرغم من عدم إعلانها عن عواطفها) مسرورة لرويتي. وقلت وأنا أشعر بالحماقة كما أشعر دائماً مع الجيل الأصغر سناً: حسناً، لقد وصلت إلى هنا.

- هذا ذكاء منك يا أبي.

قال بوارو: كنت أصف له الطعام هنا.

فسألت جوديث: هل هو سيئ إلى هذا الحد؟

- كان يجب عليك عدم السؤال يا طفلي، فأنت لا تفكرين

في شيء غير أنابيب الاختيار والمجهر. أصيبك الأوسط ملطخ بأزرق الميثيلين، وهذا ليس بالأمر الجيد بالنسبة لزوجك إن كنت تهتين بعده.

- يمكنني أن أقول إنه لن يكون لي زوج.

- بالطبع سوف يكون لديك زوج. لماذا خلقت الله؟

- أرجو أن يكون لعدة أمور.

- الزواج أولها.

قالت جوديث: حسناً، إذا وجدت زوجاً لطيفاً سوف أعطني بمعدته جيداً.

قال يواو: ابتك تسخر مني يا هيتغز، ولكن يوماً ما ستعرف معنى حكمة الرجال الكبار.

ثم طُرق الباب مرة أخرى ودخل الدكتور فرانكلين. كان شاباً طويلاً نحيلاً يبلغ من العمر خمسة وثلاثين عاماً، يوحى لـه بالحزم، ذا شعر أحمر وعينين زرقاوين لامعتين، وبدلته من أحمر الناس الذين عرفتهم إذ كان يرتطم بالأشياء بفكر غائب، وقد ارتطم بسنارة خلف كرسي يواو فأدار رأسه نصف دورة وهمس قائلاً لها: عذراً.

أردت التضحك ولكن جوديث بقيت هادئة ورزينة كما لاحظت، وأظن بأنها اعتادت مثل هذا الأمر. قالت: هل تذكر والدي؟

فنقلت الدكتور فرانكلين بحذر وخجل وأغمض عينيه نصف

إغماضة وحدث إلي، ثم مد يده باتجاهي قائلاً: بالطبع، بالطبع. كيف حالك؟ لقد سمعت بأنك ستأتي.

ثم التفت نحو جوديث وقال: هل نلتين أن ثمة ما بدعو إلى تغيير ملايسنا؟ إذا لم تكن لذلك حاجة فستطيع العمل قليلاً بعد العشاء، وإذا استطعنا إعداد عدد أكبر من هذا الشرائح...

- لا، أريد التحدث مع والدي.

- آه، نعم، بالطبع. أنا آسف.

وابتسم فجأة ابتسامة اعتذار صيبالية وهو يكمل: أنا آسف! لقد اشتغلت كثيراً بهذا الموضوع. هذا يجعل من الصعب مسامحتي كما أنه يجعلني أبدو أنانياً... أرجو أن تعذروني.

ودقت الساعة فنظر إليها فرانكلين بسرعة وقال: يا إلهي! هل الوقت متأخر إلى هذا الحد؟ سوف أتع في المتاعب! لقد وعدت باربرا بأنني سوف أقرأ لها قبل العشاء.

وابتسم لنا وأسرع بالخروج مصطفاً بالباب في أثناء عبوره، فقلت: كيف حال السيدة فرانكلين؟

فأجابت جوديث: لا تزال كما هي، بل أسوأ.

قلت: إنه لأمر محزن أن تكون معوقة بهذا الشكل.

قالت جوديث: كم تثير غضب الأطباء! الأطباء يحبون الناس الأصحاء.

فتعجبت قائلاً: ما أقصاكم أيها الشباب!

فقالت جوديث ببرود: بل أنا أقر حقيقة واقعة.

قال بوارو: وبالرغم من ذلك فالدكتور الطيب أسرع ليقرأ لها.

قالت جوديث: هذا متبى الغباء. تستطيع الممرضة المسؤولة عنها القراءة لها بصورة جيدة إن أرادت السيدة القراءة. أنا شخصياً أكره أن يقرأ لي أي شخص بصوت مسموع.
قلت: حسناً، ولكن الأذواق تختلف.

- إنها امرأة غبية جداً.

قال بوارو: لا يا طففتي، أنا أختلف معك في هذا.

- ولكنها لا تقرأ إلا الروايات الرخيصة، كما أنها لا تهتم بأي عمل ولا تتابع أمور الساعة، بل هي فقط تتكلم عن صحتها لأي شخص يستمع إليها.

- ولكنني أؤكد لك أنها تستعمل خلاياها الرمادية وملكانها العقلية بطرق لا تعلمين عنها شيئاً يا طففتي العزيزة.

فقالت جوديث: إنها امرأة ظاهرة الأنوثة؛ تسمح وتموء مثل القطط، وأتوقع أنك تفضلهن هكذا يا عم هيركيول.

قلت: بالطبع لا، بل إنه يفضلهن ضخامات روسيات!

فقال بوارو: هكذا تشي بي يا هيتنز؟ حسناً، سانشي بك أنا أيضاً. لقد كان والدك -يا جوديث- يميل دوماً إلى الشعر البني

المحمر، وقد سبب له هذا الأمر المتاعب أكثر من مرة.

وابنسمت جوديث بتسامح قائلة: يا لكما من مسكين!

ثم انصرفت ونهضت أنا قائلاً: يجب أن أفك أمتعتي، وقد أقتبل قبل العشاء.

وضغط بوارو على الجرس الذي كان بمثابة بدء، وبعد دقيقتين دخل علينا الخادم، ودُعِشت حين رأيت أنه خادم جديد. قلت: أين جورج؟

كان جورج خادم بوارو الذي يعمل لديه منذ زمن بعيد، وقال بوارو: لقد عاد جورج إلى عائلته لأن والده مريض، وأرجو أن يعود في وقت قريب.

ثم ابنسم للخادم الجديد وهو يكمل: أما في الوقت الحاضر فإن كيرلس يعني بي.

وابنسم كيرلس باحترام. كان رجلاً ضخماً يوحى وجهه بالبلادة والغباء، ولاحظت وأنا في طريقي خارجاً أن بوارو يقفل الحقيبة جيداً والأوراق بداخلها، وكان عقلي يلف ويدور وأنا أعبر العمر إلى غرفتني.

* * *

الفصل الرابع

في تلك الليلة نزلت لتناول طعام العشاء وأنا أشعر بأن كل ما في الحياة قد أصبح غير حقيقي فجأة، وتساءلت أكثر من مرة وأنا أستعد للعشاء عما إذا كان يوارو قد تخيل الأمر كله؛ فهو الآن رجل عجوز وصحته منهورة، هو يقول إن عقله ما زال سليماً كما في السابق ولكن هل هو كذلك في الحقيقة؟ لقد أمضى حياته كلها في تعقب الجريمة، فهل من المستبعد - في النهاية - أن يتخيل الجرائم حين لا تكون جرائم؟

لا بد أن البطالة المفروضة عليه قد أثرت فيه بشكل كبير، والاحتمال الأكبر هو أنه سوف يخترع لنفسه فريسة جديدة. هل هي أمنية أم اختلال عقلي كامل؟ لقد اختار عدداً من الأحداث التي نشرت في الصحف وقرأ من خلالها أموراً لم تكن موجودة، ولم أرَ خلف تلك الأحداث قاتلاً مجنوناً، بل الاحتمال أن السيدة إترنغتون قد قتلت زوجها فعلاً، وأن العامل قد أطلق النار على زوجته، وأن الفتاة قد أعطت خالتها العجوز جرعة مضاعفة من المورفين، وأن الزوجة الغيور قد تخلصت من زوجها كما هدده من قبل، وأن العانس المحبونة قد لوثت كسبه فعلاً الجريمة ثم استسلمت بعد

ارتكابها... وفي الواقع فلا بد أن تلك الجرائم هي ما تبدو تماماً.

لكن بوارو قدّم رأياً مضاداً لهذا الرأي المحفول! ولم أستطع إلا أن أضع في اعتباري إيماني المطلق بقطعة بوارو وذكائه. قال بوارو إن جريمة قد تم إعدادها، وللمرة الثانية سيستضيف قصر ستابلز جريمة. الزمن وحده سوف يُثبت هذا الزعم أو ينفيه، ولكن إذا كان ذلك صحيحاً فإنه يتوجب علينا منع الجريمة.

بوارو كان يعرف هوية المقاتل التي لا أعرفها أنا، وكلما فكرتُ بالأمر ازداد الزعاجي؛ فني الحقيقة كان هذا متهمي الوقاحة من بوارو: يريد مني أن أتعاون معه وفي الوقت ذاته لا يثق بي! ولكن لماذا؟ كان هناك السبب الذي ذكره، وهو سبب غير كافٍ بالطبع. لقد سمعتُ من سخريته من وجهي المعتر. أنا أستطيع الاحتفاظ بالسر مثل غيري، وبوارو يُصرّ دائماً على اعتقاده المُعين بأنني ذو شخصية يستطيع قراءة ما يدور في ذهني، ثم يحاول التخفيف من حدة الإهانة بإرجاع ذلك إلى شخصي اللطيفة الصادقة التي تمتد أي نوع من أنواع الخداع.

فكرت أنه إذا كان الأمر كله من أوهام بوارو ونخيلاته فيمكن تفسير نكتمته وتحفظه. ولم أكن قد توصلت إلى أي شيء حينما أُرِج جرس الطعام، فنزلتُ لتناول العشاء بعقل متفتح وبعين بقطعة بحثاً عن مجهول بوارو الأسطوري، السيد «س».

في الوقت الحالي سأقبل أي شيء يقوله بوارو وكأنه حقيقة قاطعة لا مجال للشك فيها، وسوف أفتنع بأن في هذا البيت شخصاً

ارتكب حتى الآن خمس جرائم قتل ويُعد الآن لارتكاب جريمة أخرى. ولكن من هو؟

في غرفة الجلوس وقبل أن تذهب إلى العشاء تم تقديمي إلى الأنسة كول والميجور أليرتون. كانت الأنسة كول امرأة طويلة جميلة في أوائل العقد الرابع من عمرها، أما الميجور أليرتون فقد كرهته غريزياً. كان رجلاً وسيقاً في أوائل الأربعينيات عريض المنكبين أسمر الوجه يتحدث بطلاقة ونحمل معظم كلماته أكثر من معنى، وأعتقد أن التجاعيد تحت عينيه سببها طريقته اللاهية في الحياة، فهو يبعث كثيراً ويقامر ويكثر من شرب الكحول، ولا بد أنه زير نساء. ولاحظتُ أن الكولونيل لاتريل لا يحبه كثيراً أيضاً، وكذلك كان بويد كارنتون متحفظاً في تصرفه نحوه.

أما التجاع الذي أحضره أليرتون في الحفلة فقد كان مع النساء؛ فها هي السيدة لاتريل تبسم له وتثرثر معه في حين يُطربها هو بلهجة لا تغلو من الوقاحة، وقد ارتجعتُ وأنا أرى أن جوديث تستمتع برفقته هي الأخرى وتبدل جهداً أكثر من المعتاد في الحديث معه، والسؤال الذي لم أستطع الإجابة عليه هو: "لماذا ينجح أسوأ أنواع الرجال في لفت انتباه أطف النساء وأحسنهن؟". لقد أدركت غريزياً أن أليرتون شخص بغض وسوف يوافقني على ذلك تسعة رجال من أصل عشرة، ولكن نساء سوف يقعن في أسر فوراً، بل ربما وقع العشرة كلهن!

بينما كنا نجلس حول طاولة العشاء وأمانتا صحنون من الحساء أخذتُ أطوف بعيني حول الطاولة والتخص الاحتمالات الموجودة،

فإذا كان بوارو على حق وكان قد احتفظ بعقله سليماً غير مشوش فإن واحداً من هؤلاء الأشخاص مجرم خطير، ومن المرجح أن يكون مجنوناً أيضاً. لم يقل لي بوارو ذلك بوضوح ولكنني اعتقدت أن «س» سيكون رجلاً على الأرجح، ولكن أني واحد من هؤلاء الرجال هو؟

بالتأكيد ليس هو الكولونيل لانربل بترده وحيرته ومظاهر الضعف المحيطة به. هل هو تورون، الرجل الذي التقيت به وهو يتدفق خارج المنزل يحمل منظار الميدان؟ لا، هذا غير محتمل؛ فهو يبدو شخصاً لطيفاً، وهو «في الغالب» شخص عامل يخلو من الحيوية. لكنني حدثت نفسي بأن الكثير من القتل كانوا أشخاصاً عاديين ليسوا ذوي أهمية، وهذا السبب يدفعهم إلى ارتكاب جرائمهم لإثبات وجودهم، فهم يستأفون من تخطي الناس لهم وتجاهلهم إياهم. ربما كان تورون قاتلاً من هذا النوع، ولكن لدينا مسألة اهتمامه بالطيور، وأنا اعتقد أن حب الطيعة هو بالضرورة علامة حسنة في صالحي الرجل.

هل هو بويد كارنتون؟ مستحيل، هذا الرجل معروف في كل مكان، وهو رياضي جيد وإداري جيد ورجل يحبه الجميع ويغبطونه. وأيضاً استبعدت فرانكلين لأنني أعرف كم تحترمه جوديث وتقدّره.

حسناً، لنبدأ بالديجور أليوتون. أمنت فيه النظر جيداً؛ كان شخصاً كريهاً لم أر مثله من قبل، فهو من تلك النوعية من الأشخاص الذين هم على استعداد لسلخ جلد جداتهم ومن على

قيد الحياة، تحيط به حالة من الفتنه المخادعة، فيها هو ذا يتحدث الآن فيروي قصة عيبته وهزيمته مثيراً ضحك الجميع على نكتة أطلقها على نفسه. وتوصلت إلى أنه إذا كان أليوتون هو «اس» فجرانه قد ارتكبت لتحقيق الربح بوسيلة ما.

لكن بوارو لم يصرح بوضوح بأن المشتبه به رجل، لذلك يمكن اعتبار الأسمه كول احتمالاً من الاحتمالات؛ فقد كانت حركاتها فلكة ومنشوجة، ومن الواضح أنها امرأة عصبية. كانت جميلة إلى حد ما ولكنها بدت عادية جداً، وكانت هي والسيدة لانربل وجوديت النساء الوحيدات على طاولة العشاء، فالسيدة فرانكلين تناول عشاءها في غرفتها في الطابق العلوي والممرضة التي تعتنى بها تناول وجباتها بعد أن تنتهي نحن من تناول الطعام.

بعد العشاء كنت أفق بجانب النافذة في غرفة الجلوس أنظر إلى الحديقة وأتذكر الوقت الذي تعرفت فيه على سينثيا ميردوك وهي تركض في المرح، وهي فتاة شابة شعرها بني محمر. كم بدت فائنة في ثوبها الأبيض! وبينما أنا مستغرق في أفكارني عن الماضي فرغت عندما وضعت جوديث ذراعها في ذراعي وقادتني من النافذة إلى الشرفة، وعلى نحو مفاجئ سألتني: ما الأمر؟

قللت وقد أخذتني المفاجأة: الأمر! ماذا تعنين؟

- لقد كنت غريب الأطوار هذه الأمسية، فلماذا كنت تحدق إلى الجميع في أثناء العشاء؟

وتضايقت لأنني لم أعلم بأنني قد سمحت لأفكارني بأن تتحكم بي وتسيطر عليّ، فقلت: هل كنت كذلك؟ لا بد أنني كنت

أتذكر الماضي، بل ربما ظننت أنني أرى أشباحاً.

- آه، نعم، بالطبع! لقد أقمتُ هنا عندما كنتُ شاباً يافعاً،
أليس كذلك؟ لقد قُلتُ هنا امرأة عجوز فيما أظن، أليس هذا
صحيحاً؟

- بلى، سُئمتُ بالإسرتين.

- وكيف كانت؟ لطيفة أم قبيضة؟

فكرت في السؤال ثم قلت ببطء: كانت امرأة طيبة كريمة،
وكان الكثير من أموالها يذهب للصدقات.

- آه، هذا النوع من الكرم!

بدت في صوت جوديث نبرة خفيفة من الاحترار، ثم سألتني
سؤالاً فضولياً فقالت: هل كان الناس سعداء هنا؟

كنت أعرف أنهم لم يكونوا سعداء فقلت ببطء: لا.

- لماذا؟

- لأنهم كانوا يشعرون بأنهم سجناء؛ فالسيدة إنغليثورب
كانت تملك المال كله وتصدقته به، ولم يستطع أولاد زوجها أن
يعيشوا حياتهم مستقلين.

سمعتُ جوديث تنهق بصوت مرتفع واشتدت قبضتها على
ذراعي وهي تقول: هذا أمر سيئ؛ إنه سوء استخدام للسلطة يجب
عدم السماح به، يجب أن لا تُمنح السلطة للمجائز والعرضي
لنحكموا في حياة الشباب الأغوياء ويجعلوهم مقبدين قلقين،

بضيعون وقتهم وطاقاتهم التي يمكن الاستفادة منها والتي يحتاج إليها
المجتمع، هذه أتانة!

فقلت بلهجة جافة: المجائز لا يمتلكون هذه الصفة الاحتكارية.

- أجل، أنا أعلم أنك تظن أن الشباب أنانيون يا أباي، ربما
كنا كذلك حقاً، ولكنها أتانة نظيفة. على الأقل نحن نريد أن نفعل
ما نريده ولا نريد من الآخرين فعل ما نريده، نحن لا نريد استعباد
الآخرين.

- نعم، ولكنكم فقط تدوسون عليهم إذا حدث وكانوا في
طريقكم.

ضغطت جوديث على ذراعي ثم قالت: لا تكن قاسياً هكذا.
أنا لا أدوس على الآخرين، وأنت لم تحاول التحكم في حياة أبي
منا ولذلك فنحن مشتتون لك.

- أخشى أنني كنت أتمنى فعل ذلك، ولكن أمي هي التي
كانت تصر على السماح لكم بالارتكاب الأخطاء الخاصة بكم.

ضغطت جوديث على ذراعي مرة أخرى وقالت: أعلم، لقد
كنت نرجساً كما ترمي الدجاجة أبناءها، وأنا أكره هذا الاهتمام
الشديد ولا أطيقه. ولكن ألا تنفق معي بشأن التضحية بحياة أولئك
الأشخاص المفيدين في سبيل الأشخاص غير المفيدين؟

اعترفتُ قائلاً: يحدث هذا أحياناً، ولكن لا داعي للمغالاة،
فكما تعلمين يستطيع أي شخص أن يهرب بعيداً.

- نعم، ولكن هل هذا هو ما يحدث حقاً؟

كانت نبرتها قوية لدرجة أنني نظرت إليها بدهشة. وكان الظلام شديداً بحيث لم أستطع رؤية وجهها بوضوح، فتأثرت بصوت منخفض ومضطرب: توجد أمور كثيرة صعبة مثل الاعتبارات المالية، والشعور بالمسؤولية، والثرثرة في إيذاء شخص تشعر نحوه بالعاطفة... كل هذه الأمور، وأيضاً يوجد بعض الناس معدومي الضمير الذين يعرفون كيف يتلاعبون بهذه المشاعر.

هتفت مأخوذاً ببثرة الغضب في صوتها: عزيزتي جوديث!

ويبدو أنها أدركت أن نبرتها كانت قوية جداً لأنها ضحكت وسحبت ذراعها من ذراعي وقالت: هل كانت لهنجي حادة؟ هذا موضوع أشعر نحوه بعمق. لقد عرفت حالة... آه، حالة كان الأب فيها عجوزاً متوحشاً، وعندما توفرت لدى إحداهن المشاعر الكافية لفك العقدة وتحرير الأشخاص الذين أحببتهم لقبوها بالمجنونة. مجنونة؟! لقد كان عقل وانسجع شيء يمكن لأي شخص نعه.

وانتابني شعور قظيع بالغثاس. أبني سمعت شيئاً مشابهاً ومن مدة غير بعيدة؟ سألتها: جوديث، عن أي قضية نتحدثين؟

- ليسوا أشخاصاً تعرفهم، إنهم أصدقاء لعائلة فرانكلين، رجل عجوز يُدعى ليتسفيلد. كان غنياً جداً ولكن يسكن القوق (إنه كان يجوع بناته البائسات، ولم يسمح لهن قط بالخروج أو رؤية أحد. لقد كان مجنوناً فعلاً، ولكن ليس بالدرجة الكافية من الناحية الطبية.

- وقد قتلت ابنته الكبرى، أليس كذلك؟

- أظن أنك قرأت عن القضية. اقترضت أنك ترى الأمر كجريمة، ولكنها لم تُرتكب لدوافع شخصية. لقد توجهت مرغريت ليتسفيلد فوراً إلى الشرطة وسلّمت نفسها. لقد كانت في متهى الشجاعة، ولا أظن بأنني يمكن أن تنوفر لي مثل تلك الشجاعة.

- الشجاعة لتسليم نفسك أم الشجاعة لارتكاب الجريمة؟

- كلاهما.

فتأثرت بحدة: كم أنا مسرور لسماع ذلك! لا أحب أن أسمعك تتحدثين عن جريمة تبرزها ظروف معينة. ونوقشت هيئة ثم تابعت: وماذا يظن الدكتور فرانكلين؟

قالت جوديث: يظن أنه يستحق ما حدث له. هل تعلم يا أبي؟ إن بعض الناس يطلبون أن يُقتلوا؟

- لا أسمح لك بالتحدث هكذا يا جوديث. من الذي وضع مثل هذه الأفكار في رأسك؟

- لا أحد.

- حسناً، ولكن دعيني أخبرك بأن هذا هراء خبيث.

- حسناً، سوف تدع الأمور على ما هي عليه. لقد حضرت لأعطيك رسالة من السيدة فرانكلين، فهي تود رؤيتك في غرفتها إذا لم يكن لديك مانع.

- هذا من دواعي سروري. أنا أسف لأنها لم تكن بحالة جيدة تسمح لها بالزور لتناول العشاء.

قالت جوديث بعدم حساسية: هي بخير، ولكنها تريد فقط أن تجذب الانتباه.

قلت: الشباب لا يراعون شعور الآخرين!

الفصل الخامس

لم ألتقي بالسيدة فرانكلين إلا مرة واحدة من قبل. كانت في الثلاثينيات من عمرها، ويمكن وصفها بأنها سيدة بكل معنى الكلمة؛ فعيانها بتيان واسعتان وشعرها مفروق في المنتصف ووجهها طويل ورقيق، وكانت نحيلة جداً.

رأيتها مستلقية في سريرها مستندة إلى الوسائد مرتدية عباءة أنيقة ذات لون أبيض وأزرق فاتح، وكان فرانكلين ديويدي كارنغتون هناك أيضاً يتناولان القهوة. رخت بي السيدة فرانكلين بيد ممدودة وإتسامة صافية وهي تقول: كم أنا سعيدة لأنك أتيت يا كاين هيسنغز! هذا سوف يسعد جوديث؛ فهي ترحق نفسها في العمل.

قلت وأنا أصفح يدها الرقيقة: تبدو جوديث سعيدة في عملها.

تنهدت باربرا فرانكلين وقالت: نعم، إنها محظوظة. كم أحسدها! لا أظن أنها تعرف معنى المرض حقيقة. ما رأيك أيتها الممرضة؟ آه، دعني أعزفك، هذه هي الممرضة كارفن التي نعنتي بي جيداً. لا أعلم ماذا كنت سأفعل دونها فهي تعاملني كأنني طفلة، أليس كذلك يا عزيزتي؟

كانت الممرضة كارفن فتاة شابة طويلة حسنة المظهر تبدو بصحة جيدة وذات وجه حسن وشعر بني مجتمز. ولقد لاحظت أن يديها الطويلتين البيضاءوين تختلفان عن أيدي العديد من ممرضات المستشفيات، ويمكن وصفها بأنها فتاة قليلة الكلام، بل هي في بعض الأحيان لا تجيب على السؤال. ولم تجب في تلك اللحظة بل اكتفت بهز رأسها، فقالت السيدة فرانكلين: ولكن جون يرهق إبتك الهزيمة في الحقيقة، فهو كمراتب العمال. أنت مراقب عمال، أليس كذلك يا جون؟

كان زوجها يقف عند النافذة ينظر إلى الخارج، وكان يصمّر نفسه ويعيث ببعض العسالات المعدنية في جيبه، وقد جفل قليلاً عند سؤال زوجته وقال: ماذا يا بوبرا؟

- كنت أقول إنك ترهق السكينة جوديث هيستنز بصورة مخجلة، أليس الآن فالكابتن هيستنز هنا وصوف تنق معاً وتوقف ذلك.

لم تكن السخرية والتهكم من نقاط القوة عند الدكتور فرانكلين، وقد بدا قلقاً وإن كان قلقه غير ظاهر، ثم انتفت إلى جوديث مستفسراً ونتمت قائلاً: يجب عليك إخباري إن كنت أبلغ في الأمر.

قالت جوديث: يحاولون أن يكونوا مسلمين. وبمناسبة الحديث عن العمل فقد كنت أريد أن أسألك عن الصيغة المُعدّة للشرحة الثانية، تعرف ما أقصد، تلك التي...

فالتفت نحوها وقاطعها قائلاً: نعم، نعم. أقترح أن نذهب إلى المختبر إذا لم يكن لديك مانع؟ أريد التأكد.

ثم غادرا الغرفة معاً وهما لا يزالان يتحدثان، في حين استلقت باربرا فرانكلين على وسادتها وتهدت، ونجاءً تكلمت الممرضة كارفن بتهر مستاءة وقالت: أظن أن الأنسة هيستنز هي مراقب العمال!

تهدت السيدة فرانكلين وغصمت مرة أخرى: أشعر أنني غير مناسبة لجون. ينبغي أن أهتم بعمله أكثر، أعرف هذا، ولكنني لا أستطيع. يمكنني القول بأنني لست على ما يرام، ولكن...

قاطعها بويد الذي كان يقف بجانب المدفأة بصوت أجش: هراء يا بابس، أنت على ما يرام، لا تُقلقي نفسك.

- ولكنني قلقة حقاً يا عزيزي بيل. أنا أصاب بالخيبة من نفسي ولا أستطيع منع نفسي من هذا الشعور، فهذا الأمر نبيح جداً! أراغب وفتران للتجارب!

ثم أضافت وهي ترتجف: أعلم أن هذا غباء وأناي بلهاء، ولكن هذا يشير اشترازي. أريد التفكير فقط في الأشياء الجميلة والسعيدة مثل الطيور والأزهار والأطفال وهم يلعبون... أنت تعلم يا بيل.

اقترب منها وتغير وجهه وهو ينظر إليها فأصبح رقيقاً كوجه النساء، وكان ذلك مؤثراً على نحو ما لأن بويد كانتعتون كان رجلاً بكل معنى الكلمة. قال لها: أنت لم تتغيري كثيراً منذ كنت في السابعة عشرة يا بابس. هل تذكرين منزلك الصيفي ومنازل الطيور وجوز الهند؟

ثم التفت نحوي قائلاً: أنا وباربرا أصدقاء منذ كنا صغاراً.

واحتجيت باربرا قائلة: أصدقاء قداماء؟

- آه، أنا لا أنكر أنك تصغرني بخمسة عشر عاماً، ولكنني كنت ألعب معك وأنت لا تزالين طفلة صغيرة وكنت أنا شاباً يافعاً، وكنتُ أيامها أحملك على ظهري. وعندما عدت إلى الوطن وجدتك شابة جميلة توشك على أن تبدأ حياتها في هذا العالم، وقد ساهمت أنا في ذلك بأخذك إلى ملاعب الغولف وعلمتك كيف تلعبه، هل تذكرين؟

- آه يا بيل، هل تظن أنني أستطيع أن أنسى ذلك؟

وأوضحت لي قائلة: كان أهلي يعيشون في هذه المنطقة من العالم، وكان بيل يأتي لزيارة عمه المعجوز السير إيفرارد في قصر «ناتون».

قال بيل: وقد كان «ناتون» (ولا يزال) كالقبر! أنا أياك أحباً من جعل هذا المكان محتملاً وملائماً للعيش.

قالت السيدة فرانكلين: ولكنه يمكن أن يصبح رائعاً يا بيل، رائعاً حقاً.

- نعم يا بابس، ولكن المشكلة أنني لا أملك أي أفكار؛ فقط بعض الحشامات وبعض الكراسي المريحة... هذا كل ما أستطيع التفكير فيه. الأمر يحتاج إلى وجود امرأة.

- قلت لك إنني سوف أذهب للمساعدة، وأنا أعني ذلك فعلاً.

ونظر السير ويليام نحو الممرضة كارفن يشك وهو يقول: إذا كنت قوية بدرجة كافية فيمكنني اصطحابك إلى هناك. ماذا تظنين أينها الممرضة؟

- نعم يا سير ويليام، أظن أن هذا سيفيد السيدة فرانكلين، ولكن بالطبع إذا كانت حذرة في عدم إرهاق نفسها.

- هذا موعدٌ بيننا إذن. والأآن عليك أن تنامي جيداً لكي نكون في حالة جيدة استعداداً للغد.

* * *

تمنينا ليلة سعيدة للسيدة فرانكلين وخرجنا معاً، وفي طريقنا إلى الطابق الأرضي قال لي بويد كارنتون بصوت أجش: أنت لا تدري كم كانت قائلة عندما كانت في السابعة عشرة. كنت عائداً من يورما حيث ماتت زوجتي هناك، وأرجو أن لا تمنع إذا أخبرتك بأنني قد أحببتها، ولكنها تزوجت الدكتور فرانكلين بعد ثلاث سنوات أو أربع. ولا تظن بأنه كان زوجاً سعيداً، وأظن أن ذلك هو سبب صحتها المعتلة فهو لا يفهمها ولا يقدرها، وهي حساسة جداً، وأنا أعتقد أن صحتها هذا يرجع سببه إلى المصيبة جزئياً، فعلى سبيل المثال أخذها إلى الخارج للتسليّة وحاول إثارة اهتمامها وستبدو امرأة مختلفة، ولكن هذا المثلث يهتم فقط بسكان أفريقيا الغربيين والحضارات البائدة وأنا ييب الاختبار...

أظن أنه كان فيما قال بعض الحقائق، وقد فوجئت بالجذاب بويد كارنتون نحو السيدة فرانكلين، فهي مخلوقة مريضة على

الرغم من أنها جسيمة ورقيفة كعلبة الحلوى، أما بويد كارنتون فكان مثلثاً بالحبوبة بحيث ظننت أنه لن يكون صبوراً مع امرأة مقفلة عصبية. على أي حال فيبدو أن باربرا فرانكلين كانت قلقة في شبابها، والانطباعات القديمة لا تزول بسهولة.

وفي العابق الأروسي اقتربت من السيدة لانريل واقترحت لعب البريدج، لكنني اعتذرت بحجة رغبتني في الانضمام إلى بوارد.

* * *

وجدت صديقي في فراشه. وكان كيرتس يرتب الغرفة متفلاً بين أرواحها. ولكنه خرج حين دخلت وأغلق الباب خلفه فقلت: أفتك يا بوارد أنت وعادتك الثعينة بالاحتفاظ بالأمور لنفسك! لقد أمضيت الليلة كلها وأنا أحاول الشعور على صاحبنا.

- لا يد أن ذلك قد جعلك مشئت الذهن قليلاً. هل علقت أحدهم على شروذك وسألك ما الأمر؟

واحتمر وجهي قليلاً وقد تذكرت سؤال جوديث، ويبدو أن بوارد لاحظ ارتباكي لأنني رأيت ابتسامة خبيثة على شفاهه، لكنه قال: وماذا كانت استنتاجاتك بشأن هذه النقطة؟

- هل متخبرني إن كنت على حق؟

- بالطبع لا.

ورأيت وجهه يتمعن وأنا أقول: لقد فكّرت في نورثون.

ولم يتخير وجه بوارد فأكملت: ولكن ليس لأنني أملك دليلاً، بل بدا لي أقل الموجودين إثارة لشكوكي، وأظن أن المجرم الذي نبحت عنه يجب أن يكون غير مثير للشكوك.

- هذا صحيح، ولكن توجد طرق أكثر مما تظن لعدم إثارة الشكوك.

- ماذا تعني؟

- فلأخذ قضية فرضية؛ لنفترض أن رجلاً غريباً شريفاً يصل إلى هنا قبل القتال بأسابيع دون أي سبب محدد للتقدم، فذلك سيكون ملاحظاً. ولكن كان من الأفضل لو أن هذا الغريب كان شخصية تافهة متغلة برياسة غير مؤذية كصيد السمك.

فراقته فائلاً: أو مراقبة الطيور... نعم، ولكن هذا هو ما كنت أقوله بالضبط.

تابع بوارد: ومن جهة أخرى من الأفضل لو كان القتال شخصية بارزة، فلنقل إنه ربما كان الجزار، وهذا يعطيه ميزة حيث لن نلاحظ بضع الدم على ثياب الجزار.

- أنت نحاول أن تكون سخيفاً، فالجميع سيعرف إذا تعارك الجزار مع الخباز.

- ليس إذا كان الجزار قد أصبح جزاراً فقط لكي تُتاح له الفرصة لقتل الخباز. يجب على السره أن ينظر خطوة إلى الأمام يا صديقي.

نظرت إليه بإمعان محاولاً الاستنتاج: هل كانت كلماته تنطوي

على معاني مهمة وتعني شيئاً محدداً؟ يبدو أنها تشير إلى الكولونيل
لاتريل؛ ألم يفتح بيته متعتداً للتضييق لثناح له الفرصة لقتل
أحدهم؟

هزّ بوارو رأسه برفق قائلاً: لن نحصل على الجواب من تعبير
وجهي.

قلت متتهداً: أنت صديق مشير للغضب يا بوارو؟ على كل
حال فنودتون ليس المتهم الوحيد من وجهة نظري. ماذا عن ذلك
الشخص الأيرتون؟

تسامل بوارو ووجهه لا يزال جامداً: إنه لا يعجبك، اليس
كذلك؟

- بلى، لا يعجبني.

- آه، إنه متزن نسبيهم الجزء القذر من البضاعة، اليس هذا
صحيحاً؟

- بالتأكيد، ألا تظن هذا؟

- بلى، بالطبع، وهو رجل تجذب إليه النساء.

وهفتُ بامتعاض: كم من غيبات هؤلاء النساء؟ ماذا يرون في
شخص مثل هذا؟

- من يستطيع التكهن؟ ولكن الوضع هكذا دائماً، فالرجل
الستى تجذب إليه النساء دائماً

- ولكن لماذا؟

هزّ بوارو كتفيه وهو يقول: لعلهن يرين ما لا نراه نحن.

- ولكن ما هو؟

- لعلها المخاطرة، فالجميع يرغبون بالقليل من المخاطرة
في حياتهم. البعض يحصل عليها بمشاهدة الآخرين (كما يحصل
في مصارعة الثيران)، وبعضهم يقرأ عنها، والبعض يجدها في دور
العرض... ولكنني متأكد من أن طبيعة النفس البشرية تكره الأمان
الكامل، فالرجال يمشون على المخاطرة بطرق عديدة، أما النساء
فعمودهن على المخاطرة محدداً غالباً بالعلاقات العاطفية، ولهذا
فهنّ يرتحن برائحة الخطر... أما الشخص الجيد الذي يصلح لأن
يكون زوجاً جيداً وعطوفاً فيبتعدن عنه.

وفكرت في حديثه بحزن وأنا صامت لعدة دقائق، ثم عدت
إلى الموضوع السابق فقلت: أتعلم يا بوارو؟ سيكون من السهل
عليّ معرفة السيد «س»؛ فكل ما عليّ فعله هو البحث والعثور على
الشخص الذي كان على معرفة بجميع الأفراد، أقصد الأشخاص
الموجودين في القضايا الخمسة.

قلت ذلك بنبرة انتصار، ولكن بوارو اكتفى بأن رماني بنظرة
احتقار وقال: أنا لم أطلب وجودك هنا يا هينغز لكي أراك تحذر
حدودي بجد وحماقة، ودعني أخبرك بأن الأمر ليس سهلاً كما
تعتقد. لقد وقعت أربع من تلك الجرائم في هذا البلد، والناس
المجنمون هنا تحت سقف هذا المنزل ليسوا مجموعة من الغرباء
الذين قدموا إلى هنا كلٌّ على حدة، فهذا ليس بالفتندق بالمعنى
الحرفي للكلمة. عائلة لاتريل من هذه المنطقة، لقد كانوا في وضع

سحقوا واشتروا المكان وبدؤوا العمل فيه كنزع من المقامرة، والناس الذين يأتون إلى هنا هم أصدقاؤهم أو أصدقاء أصدقائهم، فالسير ويليام هو الذي أقنع عائلة فرانكلين بالقدوم إلى هنا، وهم بدورهم طرحوا الأمر على نورنوت وكذلك -على ما أظن- على الأنسة كول، وهكذا... لذلك فالفرصة متاحة لوجود شخص ما يعرف أحد الأشخاص ويعرفه الباقون في الوقت نفسه، كما أن المجال مفتوح لصاحبنا المجهول ليكذب في حين تكون الحقائق معروفة للجميع.

ثم نظر نحوّي وعقد حاجبيه وقال: خذ قضية العامل ورفغز مثلاً، فالقربة التي حدثت فيها المأساة ليست بعيدة عن منزل عم بويد كارتغتون، وأيضاً أهل السيدة فرانكلين كانوا يسكنون قريباً، أما النزول في القرية فيطرقه العديد من السباح باستمرار، كما أن بعض أصدقاء السيدة فرانكلين كانوا يتزلون هناك، فرانكلين نفسه أقام هناك وربما أقام فيه نورنوت والأنسة كول. لا، لا يا صديقي؛ أرجو لك أن تقوم بهذه المحاولات المخوفة للكشف عن السر الذي أرفض البوح به لك.

قلت: هذا سخيف جداً، فكأنك تظن أنني سأبوح به. دعني أخبرك بأنني سئمت من سخريتك من وجهي المعتر يا بوارو، هذا الأمر ليس مسلياً.

قال بوارو يهدوء: هل أنت متأكد من أن هذا هو السبب الوحيد؟ ألا ترى -يا صديقي- بأن معرفتك بالأمر قد تعرّضك للخطر؟ ألا ترى بأنني أهتم بسلامتك؟

حدثت إليه بغم متروح، فحتّى تلك اللحظة لم يخطر هذا

الأمر ببالي! ولكن كان ذلك صحيحاً بالطبع، فلو علم هذا المجرم الذي استطاع بذكائه ودهائه الإفلات بجرائمه الخمسة وهو يظن أن أحداً لا يشك به، لو استيقظ على حقيقة أن أحدهم في أعقابهم فهذا سيعرض حياة أولئك الذين في أعقابهم للخطر.

قلت بحدة: ولكن هذا يعني أنك أنت نفسك في خطر يا بوارو؟!

صدرت عن بوارو إيماءة لزدراء قوية حسب ما تسمح له حالته الصحية وقال: أنا معتاد على ذلك وأستطيع حماية نفسي. وكما ترى فإن معي حارساً لحمايتي، صديقي الممتاز والمخلص هيبستغز.

الفصل السادس

من المفروض أن ينام بوارو مبكراً، ولذلك فقد تركته لينام ونزلت إلى الطابق السفلي. وتوقفت في طريقي لأنحدث مع الخادم كيرتس، وقد وجدته شخصاً يليداً بطيء الفهم ولكنه قدير وأمين. كان قد صاحب بوارو منذ عودته من مصر، وقد أخبرني بأن صحة سيده جيدة نوعاً ما ولكنه يتعرض لنوبات قلبية تحذيرية بين الحين والآخر، فقد ضَعُفَ قلبه كثيراً في الأشهر الأخيرة وكانت حالته كحالة محرّك يضعف ببطء.

حسناً، لقد كانت حياته طيبة، ومع ذلك فإنني أحسّ بقلبي ينزف وأنا أرى صديقي القديم يحارب بشجاعة كل خطوة من خطوات الانحدار، وحتى الآن وعلى الرغم من ضعفه وعجزه فإن روحه التي لا تُقهر لا تزال تواجهه لكي يقود المركب للعمل ببراعة ويجد في مجاله الذي برع فيه.

نزلت إلى الطابق السفلي وأنا حزين جداً، فانا لا أستطيع تصوّر الحياة دون بوارو وفي غرفة الجلوس كانت جولة من اللعب قد انتهت فدعوني للمشاركة، وظننت أن هذا سوف ينجح في شغل

ذهني فوافقت، وكان بويد كارتنتون هو الذي خرج فجلست مع نورتون والكولونيل والسيدة لاتريل.

قالت السيدة لاتريل: ماذا تقول الآن يا سيد نورتون؟ هل تغلب هذين الاثنين أيضاً؟ لقد أثبتت شراكتنا نجاحها هذه الليلة.

فابتسم نورتون بلطف، لكنه همس قائلاً إن من الواجب إجراء قرعة لتحديد اللاعبين، ووافقت السيدة لاتريل، ولكن اعتقد أن طريقتها بالتعبير عن شعورها كانت غير لينة عندما نتج عن القرعة أن ألعب أنا ونورتون ضد الزوجين لاتريل. وقد لاحظت أن السيدة لاتريل كانت غير راضية عن هذا الوضع وعضت على شفيتها، وقد اختفت في تلك اللحظة كل فنتتها ولهجتها الأيرلندية، وسرعان ما اكتشفت السبب، فقد لعبت في الأدوار التي تلقت مع الكولونيل لاتريل، وفي الواقع لم يكن لاعباً سيئاً، بل يمكن وصفه بأنه لاعب متوسط ولكنه يميل إلى التسبب، ونتيجة لذلك يرتكب بين الحين والآخر بعض الأخطاء الكبيرة. أما وهو يلعب مع زوجته فقد أخذ يرتكب الخطأ نلر الآخر دون توقف، وقد بدا واضحاً أنه يشعر بالتوتر معها وهذا التوتر جعله يلعب بطريقة أسوأ بثلاثة أضعاف من الوضع العادي.

أما السيدة لاتريل فقد كانت لاعبة جيدة في الحقيقة، على الرغم من أن اللعب معها ليس مسلياً لأنها تقتنص كل فرصة متاحة وتجاهل القوانين إذا كان التريق الآخر يجهلها وتطبقها على الفوز إن كان ذلك في مصلحتها، وهي ماهرة جداً في استراق النظر إلى الأدوات الموجودة بين يدي خصمها وبكلمات أخرى فهي تلعب بهدف الفوز.

وقد أدركت الآن ماذا كان يعني بوارد بالتكد، فهي في لعبة الأوراق تفقد سيطرتها على نفسها ويترصد لسانها بكل خطأ يرتكبه زوجها المسكين، وكان الوضع غير مريح بالنسبة لي والسيد نورتون، ولذلك سررت عندما انتهت الجولة، واعتذر كلانا عن اللعب جولة أخرى لتأخر الوقت، وما إن ابتعدنا حتى أطلق نورتون لمشاعره العنان دون حذر فقال: ألا ترى معي أن ذلك كان شنيعاً جداً؟ يحزنني أن أرى هذا الرجل العجوز المسكين يعاقل هكذا، انظر كيف يتقبل الأمر بخضوع... يا للفتى المسكين! أين لسان الكولونيل الهندي الحاد؟!

فقلت فجأة: اسكت.

كان صوت نورتون يرتفع بطيش وخشيت أن يسمعه الكولونيل لاتريل، فقال: ولكن هذا فظيع!

وقلت بانفعال: سوف أتفهم الوضع إذا ما قتلها بالبلطة ذات

يوم.

هز نورتون رأسه وقال: لن يفعلها، لقد تحجرت روجه، وسوف يتابع: 'نعم يا عزيزتي، لا يا عزيزتي، آسف يا عزيزتي...' ويبرم شاربيه ويتكلم بخنوع حتى يوضع في الكفن. هذا الرجل لا يستطيع الدفاع عن نفسه، حتى وإن حاول.

هزمت رأسي بحزن لأنني أخشى أن نورتون كان على حق، وتوقفت عند القاعة ولاحظت أن الباب الجانبي المؤدي إلى الحديقة كان مفتوحاً والريح تهب منه إلى الداخل فتساءلت: هل يجب علينا أن نغلقه؟

تردد نورتون لحظة قبل أن يقول: حسناً، لا أظن أن الجميع قد دخلوا بعد.

ورأودني شك مفاجئ: سألته: من بالخارج؟

- أظنها ابتك مع البرتون.

وقد بذل جهداً في جعل صوته غير مبالي، ولكنني شعرت بعدم الارتياح. جوديث والبرتون؟ بالتأكيد لا، فجوديث الذكية الهادئة لن تؤخذ بوجل من تلك التوعية. بالطبع فهي تستطيع رؤية ما بداخله.

كررت هذا الكلام لنفسى وأنا أغبر ملابسى، ولكن ذلك الشعور الغامض من عدم الارتياح لازمني ولم أستطع النوم، واستلقيت وأنا أنقلب من جنب لآخر، وكما هو الحال دائماً في قلق الليل فكل شيء يصبح مبأناً فيه، واجتاحني شعور باليأس والحسرة والقلق... لبت زوجتي لا تزال حية! لقد كنت أعتمد على تقديراتها لسنين عديدة، فقد كانت حكيمة دائماً في فهمها وتعاملها مع الأطفال، وقد لازمني شعور بالتقصص في غيابها، فمسؤولية سلامتهم وسعادتهم تقع على عاتقي الآن، فهل سأنجح في هذه المهمة؟ أنا (وليساعدي الله) لست بالرجل الذكي، فأنا مضطرب وأرتكب الأخطاء.

اشعلت الضوء وجلست. من غير المستحسن المتابعة هكذا، بل يجب أن أنام. نهضت من فراشي وتوجهت إلى المفضلة ونظرت بشك إلى علية الأسيرين. لا، بل أنا بحاجة إلى شيء أقوى من الأسيرين. وتذكرت أن لدى بوارو بعض المواد الموثمة على الأغلب.

عبرت الممر إلى غرفته وتوقفت متردداً للحظة خارج الباب، من المخجل إيقاظ هذا الصديق العجوز! وبينما أنا واقف متردداً سمعت صوت خطوات تلتفت حولي، لكن إضاءة المكان كانت خافتة فلم أستطع رؤية وجه القادم حتى اقترب مني. وقد تعجبت من يكون، كان البرتون يتقدم نحوي عبر الممر، وعندما رأيته تجمدت في مكاني، فقد كان الرجل يشم نفسه، وقد كرهت ابتسامته تلك.

نظر نحوي رافعاً حاجتي وقال: مرحباً يا هيستنغز، ألا تزال مستيقظاً؟

- لم أستطع النوم.

- أهذا كل ما في الأمر؟ سوف أساعدك، تعال معي.

تبعته إلى غرفته التي كانت تقع بجانب غرفتي، ودفعني شعور غريب لدراسة هذا الرجل عن قرب فقلت له: يبدو أنك لا تنام مبكراً أيضاً؟

- لم أكن يوماً من الذين يذهبون إلى النوم مبكراً، ولا سيما عندما تتوفر أنواع الرياضة في الخارج. يجب عدم تضيق مثل هذه الأمسيات.

قالها وضحك، وكرهت ضحكته. تبعته إلى الحمام، وفتح خزانة صغيرة فأخرج منها علبة دواء وقال: إليك هذا، إنه منوم حقيقي. ستنام نوماً عيقاً وستحلم أحلاماً سعيدة. هذه مادة سلميريل، إنها مادة رائعة وهذا هو اسمها المرخص.

صدمتني نبرة الحماسة النابعة من صوته. هل هو مدمن

مخدرات؟ قلت بشك: ليست ضارة، اليس كذلك؟

- إنها تكون ضارة إذا تناولت الكثير منها. هذه المادة من مركبات الباربيتوريت التي يمكن للجوعة الكبيرة منها أن تكون سامة.

واينسم بحيث انفرجت زوايا فمه بصورة غير لطيفة، فقلت له: لم أعلم أن الحصول عليها ممكن دون وصفة طبية.

- إنه ليس ممكناً يا عزيزي، لكنني استخدمت بعض علاقتي.

أظن أن ذلك كان غباءً مني، ولكنني لا أزال أعاني من الاندفاع أحياناً. سألته: أظن أنك تعرف إثرنغتون، اليس كذلك؟

وأدركت فوراً أنني أصبت نقطة حساسة، فقد أصبحت عيناه أكثر فسوة وفلقاً، وقال وقد تغير صوته الذي أصبح مصطنعاً: آه، بلى، كنت أعرف إثرنغتون. يا للفني المسكين!

ونابح قائلاً: لقد تعاطى إثرنغتون المخدرات بالطبع، ولكنه بالغ في الأمر. على المرء أن يعرف متى يتوقف، ولو لم يعرف فتكون العاقبة وخيمة. لقد كانت زوجته محظوظة، فلو لم يتعاطف معها المحلفون لكأنت قد شئت.

وناولني حبيتي دواء ثم قال ببرود: هل كنت تعرف إثرنغتون أنت أيضاً؟

أجبت بصدق: لا.

بدا للحظة أنه لا يدري كيف يتابع، ثم أنبى الموضوع

ضاحكاً. لم يكن رجلاً مضحكاً، ليس بالشخصية المستفيدة، ولكن كانت رفقه حسنة في بعض الأحيان. شكرته على الحبوب وعدت إلى غرفتي.

استلقيت مرة أخرى بعد أن أطلقت النور وأنا أفكر كم كنت غيبياً، وأدركت بقوة أن أليوتون هو السيد «س» بالتأكيد، وأنا جعلته يدرك أنني قد شككت في الأمر.

* * *

الفصل السابع

-١-

يجب أن أتقل بعكائتي عن الأيام التي قضيتها في ستايلز، وعندما أستذكرها فهي تمثل لي مجموعة من المحادثات والكلمات المثيرة للذكريات والألفاظ الموحية التي طُبعت في ذهني. فأولاً وفي البداية يأتي فهمي لضعف بوارو وعجزه، فقد آمنت -كما أخبرني- بأن عقله لا يزال يعمل بنفس قوته السابقة، ولكن مظهره الخارجي ضَعُفَ بحيث أدركتُ فوراً أنه من المقدَّر لي أن ألعب دوراً أكثر قاعليّة من أيّ وقت مضى، يجب أن أكون عينيّ بوارو وأذنيّه.

وكان كيرتس يحمل سيده في الأيام الجميلة وينزل به الدرج إلى حيث ينتظره كرسيّه الممتدّ سابقاً، ثم يقوده إلى الحديقة حيث يختار له بقعة بعيدة عن مجرى الهواء، أما في الأيام الأخرى وعندما لا يكون الجو ملائماً فقد كان يحمله إلى غرفة الجلوس. وأينما يُكُنّ فلا يدّ أن يأتي أحدهم إليه ويحدثه، ولكن هذا ليس كما لو كان بوارو هو الذي يختار لنفسه رفيقه، فلم يعد باستطاعته اختيار الشخص الذي يريد التحدث إليه.

في اليوم التالي لوصولي أخذني فرانكلين إلى معمل قديم في الحديقة، وهو معمل أعدّه بطريقة سريعة لأغراض علمية. ودعوني أوضح لكم بأنني لا أملك عقلاً علمياً، وفي حديثي لكم عن عمل الدكتور فرانكلين ربما استعملت مصطلحات غير صحيحة قد تثير اعتراض أولئك العالمين بعنق هذه الأمور.

بقدر ما فهمت (كشخص عادي) كان فرانكلين يُجري تجاربه مستملاً أشباه القلوبات المختلفة المشتقة من مادة اسمها العاصي هو اللوباء كالابارا، وقد أدركت الأمر بصورة أفضل عقب المحادثة التي جرت في أحد الأيام بين فرانكلين وبيوارو. أما جوديث التي حاولت تعليمي فقد كانت - كما هو الحال دائماً مع هؤلاء الشباب المتحمسين - تستعمل التعبيرات الفنية بصورة قطعية، وقد أشارت إلى شبه قلوبات الإيفتروسغمين وإسرين الفيزوفين والجينيسرين، ثم أشارت إلى مادة أخرى صعبة اللفظ، بروسغمين أو ملح ديميثل كاربونيك إستر، وغيرها كثير من الأسماء التي بدت متشابهة ولكنها تختلف في طريقة اشتقاقها.

كان كل ذلك غريباً وغير مفهوم بالنسبة لي، وقد أثرت أزدراء جوديث عندما سألتها: ما نفع هذا كله للبشرية؟

لا شيء. يزعم العالم الحقيقي أكثر من هذا السؤال، وقد رمتني جوديث بنظرة أزدراء وعاجلني بشرح مفصل أوضحت فيه أن بعض القبائل النائية في غرب أفريقيا أظهروا مناعة ضد مرض ناعٍ مميت يُدعى - على ما أذكر - جوردينايس، نسبة إلى الطبيب المتحتم الذي اكتشفه واسمه الدكتور جورديان. كان مرضاً استوائياً

شديد الندرة، وقد انتقله السكان البيض في مناسبة أو اثنتين فأدّى إلى وفاتهم.

وخاطرتُ باحتمال إثارة غضب جوديث عندما قلت إنه سيكون من الأفضل العثور على دواء يقضي على التأثيرات الجانبية لمرض الحصبة، فأوضحت لي جوديث بشفقة وأزدراء أن الهدف الوحيد الجدير بالولع هو ليس تحسين الجنس البشري ولكن توسيع معرفة البشر.

ونظرتُ إلى بعض الشرائح من خلال المجهر ودرستُ بعض النصور لسكان غرب أفريقيا الأصليين، وبالفعل كان الأمر مريباً. وشاهدتُ فرأ محذراً في القفص، ومن ثمّ أسرع بالخروج طلباً للمواء.

وكما قلت قبل قليل فإن أيّ اعتماد كنت أشعر به قد ازداد بعد المحادثة التي جرت بين فرانكلين وبيوارو، فقد قال فرانكلين: أتدري يا بيوارو؟ هذه الأمور من اختصاصك أنت أكثر مني. فهذه المادة (لوباء كالابارا) كانت هي التي تبيت البراءة أو الذنب، وكانت قبائل غرب أفريقيا تؤمن بها بشكل مطلق (ولكنهم تغيروا الآن إذ أصبحوا أكثر علماً)، فكانوا يعضونها وهم واثقون من أنها ستقتلهم إذا كانوا مذنبين ولن تؤذيهم إذا كانوا أبرياء.

- واحسرتاه! وهكذا يموتون؟

- لا يموتون جميعاً... هذا ما تمّ تجاهله دائماً حتى الآن. يوجد نوعان من هذه المادة وهما يبدوان متشابهين بحيث لا يمكنك

ملاحظة الفرق، ولكن يوجد فرق؛ فكلاهما يحتوي على الفايروستغمين والجنسرين وبقية المواد، ولكن في الصنف الثاني يمكنك (أو أظن أنه بإمكانني أنا) فصل مادة أخرى شبه ذلوبة يُطيل مقعولها مقعول المواد الباقية. أضف إلى ذلك أن الصنف الثاني يتناوله عادة المقرَّبون في طقوس دينية سرّية، والذين يتناولونها لا يُصابون بداء جوردنايتس أبداً.

ثم التقط أنفاسه وعاد يكمل: وللمادة الثانية تأثير فتال على الجهاز العضلي دون أي تأثيرات تخديرية. هذا مهم ومثير جداً، ولكن لسوء الحظ فالمحلل شبه القلوي النقي غير ثابت، وعلى الرغم من ذلك، فأنا أحصل على نتائج. ولكن المطلوب هو المزيد من البحث هناك في تلك البقعة، هذا عمل يجب إنجازه، أجل، أنا أصغي بروحي...

وتوقف فجأة وقطب جبينه عابساً ثم قال: أعذرتي؛ أنا أنفعل جداً بشأن تلك الأمور.

قال يوارو يهدوء: كان سيسهل عملي لو استطعت اختيار الذنب والبراءة بهذه السهولة. أه، لو أن هناك مادة بديلة يمكنها فعل ما يقال إن لوبياء كالا بار تستطيع فعله!

قال فرانكلين: ولكن مشكلاتك لن تنتهي عند ذلك الحد، ففي الواقع ما الذنب وما البراءة؟

علقت قائلاً: لا أظن أن ذلك في هذا الأمر وارد.

التفت نحوي قائلاً: ما الشر؟ ما الخير؟ تختلف الآراء حولهما

من قرن لآخر، وما تختبره قد يكون الحسن بالذنب أو الحسن بالبراءة. في الحقيقة هذا الاختبار لا قيمة له أبداً.

- لا أرى كيف وصلت إلى هذه النتيجة.

- صديقي العزيز، افترض أن رجلاً يظن أنه يمتلك حقاً إلهياً لكي يقتل طاغية أو مجرماً أو أي شخص يشير حقيقته الأخلاقية، فهو يرتكب ما تعتبره أنت بَعْمَلُهُ مذنباً، ولكنه هو يعتبره عملاً بريئاً. ماذا ستفعل حيوبك المسكينة عندها؟

- بالتأكيد لا بد أن شعوراً بالذنب يرافق العجرم دائماً.

قال الدكتور فرانكلين بمرح: يوجد العديد من الناس الذين أتمنى قتلهم، ولا تقن بأن ضميري سيقيني مستيقظاً بعد قتلهم، فأجدي أفكاراً - كما تعلم - أنه يجب التخلص من ثمتين في المنة من أفراد الجنس البشري. سوف تدبر الحياة بشكل أفضل دونهم.

ثم نهض ومشى بعيداً وهو يصغر لنفسه بمرح، فنظرتُ إليه بشك، ثم أعادني إلى الواقع ضحكة خافتة صدرت عن يوارو الذي قال: يبدو كمن رأى جحراً للأفاعي يا صديقي. دعنا نأمل بأن صديقنا العالم لن يمارس ما يدعُر إليه.

فقلت: نعم، ولكن ماذا لو أنه فعل؟

-٢-

بعد تردد قصير قررت أنه يجب عليّ أن أطلع جوديث على أمر اليرتون، فقد شعرت بأنه يجب عليّ أن أعرف كيف سيكون

رة فعلها. لقد كانت -كما أعلم- فتاة عاقلة قادرة على الاعتناء بنفسها، ولم أقل بأنها ستقع ضحية التجاذب رخيص نحو شخص مثل أليرون.

وفي الحقيقة أظن أنني حدثتها بالأمر لأنني كنت بحاجة لأن نؤكد هي في هذه النقطة، ولكنني لم أحصل على ما تمنيت لسوء الحظ. ويمكنني القول إنني قد بدأت بداية خرقاء، إذ لا يكره هؤلاء الشبان شيئاً أكثر من النصيحة التي يقدمها لهم الكبار. حاولت أن تبدو كلماتي لامبالية ولطيفة ولكن يبدو أنني فشلت، فقد انتصبت جوديث بخشونة وقالت: ما هذا؟ أهو تحذير أبيي من ذئب شرس كبير؟

- لا، لا يا جوديث، بالطبع لا.

- هل أنهم من هذا أنك لا تستلطف المبحور أليرون؟

- في الحقيقة نعم، وأظن أنك لا تحبته في الحقيقة.

- ولم لا؟

- هو ليس من النوعية التي نحبها.

- وما هي النوعية التي أحبها في وأبك؟

بإمكان جوديث إثارة غضبي دائماً. لقد فشلتُ فشلاً ذريعاً، فقد أخذتُ تنظر إليّ وقد تقوَّسَ منها في شكل ابتسامة استهزائية، ثم قالت: أنت لا تستلطفه بالطبع، ولكنني استلطفته. إنه شخص مسأل في نظري.

- مسأل؟ لعله كذلك.

حاولت الموافقة على ذلك، ولكن جوديث قالت متعصدة: كما أنه جذاب جداً، أي امرأة أخرى نظن ذلك لكن الرجال لا يرونه بالطبع.

وتابعُ بغيا: بالطبع هم لا يرون ذلك. لقد خرجت مع اليلة الماضية حتى ساعة متأخرة.

ولم تسمح لي بالمطامعة، بل انضجرت كالنخالة وقالت: حقاً أنت تصرف، بحماقة يا أبي! ألا تدرك أنني أستطيع تدبير شؤوني بنفسي وقد بلغت هذه السن؟ ليس لك الحق بالتحكم فيما أفعل... إن أكثر ما يغيظ في الآباء والأمهات هو تدخلهم غير المنطقي في حياة أبنائهم. أنا أحبك كثيراً ولكنني امرأة بالغة الآن وحياتي ملكي أنا فقط، فلا نحاول أن تجعل نفسك السيد ياريت.

تألمت كثيراً من هذه الملاحظة القاسية جداً والتي لم أكن قادراً على الرد عليها. والصرفت جوديث بسرعة وتركتني يراودني شعور مريع بأن ما فعلته قد سبب الضرر أكثر من النفع. وكنت واقفاً مستغرقاً في تأملاتي عندما أيقظتني صوت مموضة السيدة فرانكلين وهي تهتف بخبث: أوافقك على أفكارك يا كابتن هيستغز.

التفت بسرور مرحباً بهذه المقاطعة. كانت المموضة كارفن فتاة جميلة، وربما كانت تصرفاتها تميل إلى المكر والخبث لكنها كانت لطيفة وذكية، وكانت قد انتهت من وضع مريضتها في بقعة مشمسة لا تبعد كثيراً عن المختبر، ففسألت: هل السيدة فرانكلين مهتمة بعمل زوجها؟

رفعت المموضة كارفن رأسها بازدراء وقالت: هذه الأمور فنية

بالنسبة لها، وهي ليست بالمرأة الذكية كما تعلم يا كابتن هستنجز.
- نعم، لا أظن ذلك.

- لا يُعَدُّ عمل الدكتور فرانكلين إلا شخص يعلم بعض الشيء عن الطب والأدوية، فهو رجل ذكي جداً في الحقيقة، بل هو عبقري. يا للرجل المسكين! إنني لأشعر نحوه بالأسف.

- تشعرين نحوه بالأسف؟

- نعم؛ لقد رأيت هذا يحدث أكثر من مرة، أعني الزواج بالمرأة الخطأ.

- هل تظنين أنها لا تناسبه؟

- حسناً، ألا تظن أنت ذلك؟ ليس بينهما أي شيء مشترك.

- يبدو أنه يحبها، فهو يلتقي جميع طلباتها مثلاً.

ضحكت الممرضة كارفن بطريقة كريهة وقالت: تأكد من أنها تدرك ذلك جيداً.

نساءلُ بشك: هل تظنين أنها تستغل ذلك أو تستغل مرضها؟

ضحكت كارفن وقالت: لن تجد ما تستطيع تعليمها إياه في طرق الحصول على ما تريد، فما تريده لفخامتها هو الذي يحصل. بعض النساء من هذا الصنف؛ ذكيات كالفرد، إذا عارضهن أحد فكل ما يفعلنه هو الاستلقاء وإغلاق أعينهن والتظاهر بالمرض، وبعضهن يتعرضن لنوبة عصبية. أما السيدة فرانكلين فهي من النوعية

التي تحاول استئثار الشفقة، فهي لا تنام طول الليل فتبدو شاحبة متعبة في النهار.

نساءلُ بدعشة: ولكنها مريضة حقاً، أليس كذلك؟

رمتني الممرضة كارفن بنظرة غريبة ثم قالت بجفاء: بالطبع. ثم غيرت الموضوع بسرعة وسألتني إن كان صحيحاً أنني جئت في العاصفي إلى هذا البيت إنان الحرب الأولى. فأجبت: نعم، هذا صحيح.

ثم خفضت صوتها وهي تقول: لقد وقعت جريمة هنا، أليس كذلك؟ هذا ما أخبرتني به إحدى الخادِمات. هل كانت مبددة عجوزاً؟

- نعم.

- وهل كنت موجوداً في ذلك الوقت؟

- نعم، كنت موجوداً.

ارتعشت قليلاً وقالت: هذا يوضح الأمر، أليس كذلك؟

- يوضح ماذا؟

رمتني بنظرة جانبية وأجابت: الجو المحيط بالمكان، ألا تشعر به؟ أنا أشعر بوجود شيء غير صحيح... إذا كنت تدرك ما أعني.

صمتُ مفكراً للحظة. هل ما قالته صحيح؟ هل حقيقة أن الموت بهذه الطريقة القاسية المتعمدة إذا وقع في بقعة معينة يترك فيها أثراً يمكن إدراكه بعد سنوات عديدة؟ هكذا يقول الوسطاء الروحانيون. هل

يجعل «ستابلز» آثار ذلك الحادث الذي حدث منذ وقت بعيد؟ هنا بين هذه الجدران وفي تلك الحدائق البعث فكرة جريمة ونمت إلى أن وصلت إلى الفصل الأخير، فهل لا تزال تلوث الهواء؟

قطعت كارفن حبل أفكاره فجأة بقولها: لقد كنت أعيش في منزل حدثت فيه جريمة قتل، ولم أنتها فط... أمر كهذا لا يُسأ أبدأ كما تعلم. كان أحد مرضاي وكان يجب علي أن أشهد في المحكمة. كانت تجربة سيئة بالنسبة لفتاة.

- لا بد أنها كانت كذلك، أعرف ذلك الشعور شخصياً.

وقطعت حديثي وأنا أرى بويد كارنتون يمشي مسرعاً حول زاوية المنزل، وكالمعتاد فشخصيته القوية المرححة نجحت في إبعاد الفلق والكآبة غير المحسوسين. كان ضخماً جداً منزناً يحب الهواء الطلق، واحداً من تلك الشخصيات المحيية التي تفرض نفسها والتي تجمع ما بين المرح والتأمل.

قال بمرح: صباح الخير يا هيسنغز، صباح الخير أينها الممرضة. أين السيدة فرانكلين؟

- صباح الخير يا مير ويليام. السيدة فرانكلين في نهاية الحديقة تحت شجرة الدزاف قرب المختبر.

- أظن أن فرانكلين في المختبر؟

- نعم يا مير ويليام، مع الآلة هيسنغز.

- يا للفتاة المسكينة! تصور نفسك وأنت متقيد مضطر لممارسة

عمل بغض في مثل هذا الصباح. يجب عليك الاحتجاج يا هيسنغز. قالت الممرضة كارفن بسرعة: ولكن الآلة هيسنغز معيدة، فهي تستمتع بذلك كما تعلم، وأنا واثقة من أن الدكتور لا يستطيع التصرف دونها.

- يا للفتى العنسى! لو كانت لدى سكرتيرة جيلة مثل ابنتك جوديث لكنت نظرت إليها بدل النظر إلى حيوانات التجارب، ما قولك؟

كانت تلك من نوعية النكات التي كانت جوديث سكرتها، ولكن الممرضة كارفن تفتلتها جيداً لمضحكت منها ثم قالت: آه يا سير ويليام! يجب عليك عدم التفوّه بمثل هذا الحديث. أنا واثقة من أن الجميع يعلم ما كنت ستفعله، ولكن الدكتور فرانكلين المسكين رجل جاد ومهتمك جداً في عمله.

قال بويد كارنتون بمرح: حسناً، يبدو أن زوجته قد اتخذت موقفاً بمنكها من مراقبة زوجها. أظن بأنها غبورة.

- أنت تعلم الكثير يا سير ويليام.

ويبدو أن الممرضة كارفن كانت مسرورة بهذا المزاح، فقالت بتردد: حسناً، أظن أنه يجب علي أن أفقد حليب السيدة فرانكلين.

وانصرفت ببطء، ووقف بويد كارنتون وهو يشعها بنظره ويقول: فتاة حسنة المظهر، لكن لا بد أن حياتها بالمجمل مملة من حيث الاعتناء بالمرضى دائماً. فتاة مثلاً تستحق حياة أفضل.

- آه، حسناً، أظنها مستزوج يوماً ما.

- أظن ذلك.

وتنهّد وقد بدا لي أنه يفكر في زوجته المتوفّاة، ثم قال: هل تريد أن تأتي معي إلى «ناتون» لتري المكان؟

- نعم، أودّ ذلك. سوف أرى أولاً إذا كان يوارو بحاجة لي.

عشرت على يوارو جانباً على الشرفة وقد أحكم الغطاء حول نفسه، وقد شجّعني على الذهاب إلى ناتون قائلاً: نعم، بالتأكيد. اذهب يا هيسنغزة، فهو قصر جميل ويجب عليك مشاهدته.

- أودّ ذلك، ولكن لا أريد أن أتاركك وحيداً.

- لا يا صديقي المخلص، اذهب مع السير ويليام فهو رجل لطيف، أليس كذلك؟

فقلت بحرارة: من الدرجة الأولى.

ابتسم يوارو وقال: أجل، كنت أظن أنكما من النوعية ذاتها.

- ٣ -

استمتعت برحلتنا القصيرة تماماً، ليس فقط لأن الجو كان جميلاً، يوماً صيفياً جميلاً حقاً، ولكنني استمتعت أيضاً برفقة الرجل. يمثلك بويد كارنغتون جاذبية شخصية بحيث جعلته تجاربه الوامعة في الحياة والأماكن التي زارها الرفيق الأمثل. وقد أخبرني بقصص من أيام خدمته الحكومية في الهند وروى بعض الحقائق

المسلية عن بعض المعشقات القلبية في شرق أفريقيا، وقد كان ذلك كله مسلياً بحيث انطلقت ونسبت قلقي على جوديث والهموم العميقة التي سببتها لي أحاديث بوارو.

وأعجبتُ أيضاً بالطريقة التي تحدّث بها بويد كارنغتون عن صديقي؛ كان يُكرِّز له الاحترام لعمله وشخصيته معاً، وعلى الرغم من تدهور صحة بوارو لم يتفوّده بويد كارنغتون بأي كلمات سطحية، فيبدو أنه يظن بأن الحياة التي قضاها بوارو هي في حد ذاتها مكافأة سخية وأن صديقي سيجد الرضا والاحترام عبر ذكرياته. وقال: أراهن أن عقله لا يزال قوياً كما كان في السابق.

فأكدتُ بلهفة قائلاً: نعم، هو كذلك بالفعل.

- خطأ كبير أن يظن أحدنا أن مجرّد كون المرء مقيداً بسبب أرجله يؤثّر على سلامة عقله. ليس هذا صحيحاً أبداً؛ السبخوخة لا تؤثر على العقل بقدر ما نتصور. لا أظن أنه بإمكانني الشروع في ارتكاب جريمة قتل تحت أنف بوارو وعلى مرأى مني، حتى في مثل هذا الوقت من النهار.

وابنسمتُ وقلت: سوف يقبض عليك إن أنت فعلتها.

قال: "أراهن على أنه يستطيع ذلك". ثم أضاف بحزن: لا يعني ذلك أنني أستطيع ارتكاب جريمة بأي حال؛ فأنا لا أستطيع تخطيط الأمور كما تعلم. إنني ناقذ الصبر، وإذا ما ارتكبتُ جريمة فسيكون ذلك بتأثير تلك اللحظة.

- هذا النوع من الجرائم من أصعب أنواع الجرائم اكتشافاً.

- لا أظن ذلك! فعلى الأرجح سأترك خلفي العديد من الأدلة في جميع الاتجاهات، ومن حسن حظي أنني لا أملك عقلية إجرامية. أتخيل أن الشخص الوحيد الذي يمكنني قتله هو الشخص المبتزر. يمكنك اعتبار قولِي هذا فظيماً إن شئت، ولكنني اعتقدت دائماً أن المبتزر يستحق القتل. ما رأيك؟

اعترفت بتعاطفي مع وجه نظره، ثم انتقلنا إلى تفحص العمل الذي تم في المنزل، وتقدم لملاقاتنا مهندس معماري شاب.

كان قصر «ناتون» كما كان أيام العهد النبودوري؛ فباستثناء جناح أضيف حديثاً لم يتم تحديث القصر أو تغييره منذ تم تركيب حمامين بدائيين في نحو أربعينيات القرن السابع عشر. وقد أوضح لي بويد كارنغتون أن عمه كان ناسكاً إلى حد ما، بكره الناس ويعيش في جزء من المنزل الواسع. وقد كان بويد كارنغتون وأخوه يُعضون إجازاتهم هنا عندما كانوا تلاميذ قبل أن ينزل السير (يغارد عن العالم). ولم يتزوج الرجل العجوز وكان ينفق عُشر دخله الكبير، لذلك فحتى بعد دفع نفقات الدفن والوفاة وجد البارون الحالي نفسه وقد أصبح رجلاً غنياً.

تنهد الرجل وقال: لكنني رجل وحيد.

قالها وصمت، وكان تعاطفي شديداً لا يمكن التعبير عنه بالكلمات. لقد كنت رجلاً وحيداً أيضاً، فمُنذ وفاة زوجتي وأنا أشعر بأنني نصف إنسان. وفي تلك اللحظة عبرت قليلاً وبتردد عما أشعر به فقال: آه يا هستنغز، لكنك تملك شيئاً لا أملكه.

وتوقف للحظة، وفجأة بدأ يروي ملخص مأساته، قصة عن

زوجة شابة جميلة مخلوقة محببة، ولكنها ذات ثراث مملوث حيث مات معظم أفراد عائلتها بسب الإفراط في الشراب. وقد سقطت هي نفسها فريسة لهذه اللعنة، وبعد مرور ستة على زواجهما ماتت بسبب الكحول. ولم يلمها، فقد أدرك أن الوراثة كانت قوية جداً بالنسبة لها. وبعد وفاتها استقر وبدأ حياة وحيدة وقرر -بناءً على تجربته السابقة- أن لا يتزوج مرة أخرى. قال ببساطة: المرء يشعر بالأمان وهو وحيد.

- نعم، أفهم شعورك هذا.

- كان الأمر مأساة، لقد جعلتني أهرم مبكراً وأشعر بالمرارة.

ثم توقف قليلاً وعاد بقوله: صحيح أنني كنت على وشك الزواج في إحدى المرات، ولكنها كانت صغيرة جداً وشعرت بأنه ليس من العدل أن أقبدها إلى رجل واقعي. لقد كنت كبيراً جداً بالنسبة لها، كانت طفلة جميلة بريئة.

وتوقف وهو يهز رأسه فقلت له: كان أحمرى بك أن تترك الأمر لها لتقرر.

- لا أعلم يا هيستنغز، لقد ظننت العكس، بدا وكأنها تشاطفني ولكنها كانت صغيرة جداً كما قلت. سوف أتذكرها دائماً كما رأيتهما في اليوم الأخير من تلك الإجازة، كان رأسها مائلاً قليلاً، ثم تلك النظرة الساحرة واليدين الصغيرتين...

شكلت كلماته في ذهني صورة بدت مأثومة بالرغم من أنني لم أستطع معرفة السبب، ثم قطع حبل أفكاري صوت بوبد

كانت توتون الخشن المفاجئ وهو يقول: لقد كنت غيباً! أي رجل يدع مثل هذه الفرصة تفلت من يده سيكون رجلاً غيباً. على كل حال ها أنذا! لديّ مزرعة كبيرة ومنزل كبير جداً بالنسبة لي بلا زوجة توتس وحشتي.

فُتنتُ بطريقته القديمة في تصوير الأشياء. لقد استحضرت إلى ذهني صورة حُسن العالم القديم وسهولته فقلت: أين تلك السيدة الآن؟

- آه، لقد تزوجت وأغلق الموضوع. الحقيقة أنني قد أعددت نفسي لعزوبة دائمة يا هيبستغز. لديّ طرفي الصغيرة. تعال وانظر إلى الحداثق، لقد أهملت بشكل فظيع ولكنها لا تزال جيدة نوعاً ما.

وتجولنا حول المنزل فتأثرت بما رأيت؛ فقد كان «ناتون» قصيراً ممتازاً بلا شك، ولا بد أن هويد كانت توتون كان فخوراً به. كان يعرف أهل الجوار والجيران جيداً وبعض الناس القرييين من المكان، بالرغم من بعض القادمين الجدد منذ قدومه.

عرف الكولونيل لاتريل منذ زمن، وقد عبّر عن أمله في أن تنجح مغامرة «ستابلز». قال: المسكين توبي لاتريل ليس بالشخص الغني كما تعلم. إنه شخص لطيف وجندي جيد، كما أنه رام ماهر. لقد ذهبت معه في إحدى المرات في رحلة قصص في أفريقيا... تلك هي الأيام! كان آنذاك متزوجاً بالطبع، لكن زوجته لم تأت معنا لحسن الحظ. كانت امرأة جميلة ولكنها كانت سريعة الغضب. من المضحك تصور القُدر الذي يتحمّله الرجل من المرأة! توبي لاتريل الذي كان مرؤوسوه يرتعشون منه من رؤوسهم حتى أسفل أقدامهم

وكان ضابطاً صارماً وقاسياً تسيطر عليه زوجته فيخضع لها كما كان يخضع له مرؤوسوه! لا شك أن تلك المرأة تمتلك لساناً حاداً، ولكنها تمتلك العقل أيضاً، وإذا كان بإمكان أي شخص إنجاح هذا المكان فهو هي. لم يمتلك لاتريل العقل النجاري أما السيدة لاتريل فستطيع سُلخ جذعها وهي حية.

قلت: إنها مندمجة في هذا الأمر.

قال بوبد كارنغتون بشيء من الحيرة: هذا صحيح، وهي تبدو في غاية اللطف، ولكن هل تُعبت الورق معهم؟
- نعم.

- في الواقع أنا أتجنب السيدات اللاتي يلعبن البريدج، وإذا أردت نصيحتي فافعل ذلك أيضاً.

أخبرته عن شعوري أنا ونورتون بعدم الارتياح في الليلة الأولى لوصولي فقال: بالقبض، لا يعرف المرء أين يذهب بنظره.

ثم أضاف: نورتون فني لطيف على الرغم من أنه هادئ، وهو دائم البحث عن الطيور لكنه أخبرني بأنه لا يهتم باصطيادها. غريب أنه لا يهتم بالرياضة. لقد أخبرته أنه يشتقد الكثير. فلست أرى ما هي المتعة في التجول في الغابات الباردة ومراقبة الطيور بالمقنطار!

ولم ندرك أن هواية نورتون تلك سوف تلعب دوراً مهماً في الأحداث القادمة.



الفصل الثامن

- ١ -

مَرَّتْ الأيامُ، وكان وقتاً عصيباً يسوده شعور قلبي بترقب حدوث أمر ما. ولم يحدث حقيقة أي شيء (إذا صح لي أن أضع الأمور بهذا الشكل)، لكن وقعت بعض الحوادث: بعض المحادثات القريبة، معلومات عرضية عن نزلاء ستايلز المختلفين، ملاحظات وشروح تراكمت جميعها، وهي إن جُمعت بصورة صحيحة فسوف تفيد كثيراً في إنارة طريقي.

كان بوارو (وقد استعمل بعض الكلمات القوية) هو الذي أُراني شيئاً كنت قد غفلت عنه بشكل لا يُغتفر. تَذَمَّرت مراراً من رفضه المتعمَّد منحي ثقته وأخبرته أن ذلك ليس عدلاً. لقد كانت معلوماتنا دائماً متساوية، بالرغم من أنني كنت أحمق وكان هو ذكياً في التوصل إلى الاستنتاجات الصحيحة من تلك المعلومات.

لَوَّح بيده وقد نفذ صبره وقال: نعم يا صديقي، هذا ليس عدلاً، ولكن هذه ليست رياضة ولا لعبة. أَعترف بذلك، ليست

لعبة ولا رياضة، إنك تشغل نفسك بحماسة محاولاً معرفة هوية رجلنا الغامض، وأنا لم أطلب منك الحضور لهذا السبب. ليس من الضروري أن تشغل أنت نفسك بهذا فأنا أعرف جواب هذا السؤال، لكن الذي لا أعرفه والذي يجب أن أعرفه هو المضحية الجديدة. المسألة ليست اشتراكك في لعبة التخمين أيها العجوز، بل محاولة منع موت إنسان.

ذهبت وقلت ببطء: بالطبع، أنا... حسناً، أنا أعلم أنك قد قلت ذلك من قبل، ولكني لم أكن قد أدركته.

- إذن هل أدركته الآن؟

- نعم، نعم. سأفعل... أعني: لقد أدركت الأمر.

- حسناً، أخبرني إذن يا هيبستغز: من الذي سوف يموت؟

حدقت إليه بدهشة وقلت: ليست لدي أدنى فكرة.

- يجب أن تكون لديك فكرة، فلماذا أنت هنا إذن؟

قلت وأنا أرتجع تأملاتي في هذا الموضوع: بالتأكيد يجب أن توجد علاقة بين المضحية والسيد «س»، فإذا أخبرتني من هو السيد «س» هنا...

هرّ بواور رأسه بشدة بحيث كان من المؤلم مشاهدته ثم قال: ألم أخبرك بأن هذا هو أساس أسلوبه؟ لن تجد ما يربط «س» بالقتل، هذا مؤكد.

- هل تعني أن العلاقة ستكون خافية؟

- ستكون مخفية بحيث لن نعثري عليها.

- ولكن بالتأكيد بعد دراسة ماضي أسره يمكن أن...

- قلت لك لا، بالتأكيد، ليس هذه المرة. ألا تدرك أن جريمة ستحدث في أية لحظة؟ هل تفهم؟

- لشخص في هذا المنزل؟

- نعم، لشخص في هذا المنزل.

- وأنت فعلاً لا تدري من أو كيف؟

- آه، لو كنت أعلم لما كنت أحتك الآن على أن تكشف ذلك

لي.

- أتعني أنك تبني افتراضك هذا على وجود «ش» فقط؟

يدوت منشككاً قليلاً فصرخ بوارو في وجهي. لقد خفت قدرته على ضبط نفسه مع عدم قدرته على تحريك أعضائه بحكم الظروف، فصرخ في وجهي قائلاً: آه، يا إلهي! كم مرة يجب أن أكرر هذا؟ إذا وصل عدد من المراسلين الحربيين فجأة إلى بقعة معينة في أوروبا فماذا يعني هذا؟ إنه يعني الحرب. وإذا قَدِمَ الأطباء من كل أنحاء العالم إلى مدينة ما فماذا يظهر من ذلك؟ يظهر منه أنه سيعقد فيها مؤتمر طبي. وعندما ترى نساءً يحومن سوف تكون هناك جيفة، وإذا رأيت صيادين يسبرون في المستنقع فهذا يعني أن هناك عملية صيد، وإذا رأيت رجلاً يتوقف فجأة ويخلع معطفه ويقفز إلى البحر فهذا يعني أن هناك عملية إنقاذ من الغرق، وأخيراً إذا شممت رائحة شهية وشاهدت عدداً من الأشخاص يمشون في

الممر وفي الاتجاه نفسه فيما يمكنك الافتراض بأن وجبة طعام على وشك أن تُقدّم.

فكرت في هذا التشبيه لأكثر من دقيقة، ثم قلت بشأن النقطة الأولى: مراسل حربي واحد لا يصنع حرباً.

- بالطبع، وظهور طائر سنونو واحد لا يصنع صيفاً، ولكن مجرماً واحداً يؤدي إلى جريمة يا هينغز.

هذا أمر لا يمكن إنكاره بالطبع، ولكن خطر بيالي (ويبدو أنه لم يخطر ببال بوارو) أن للمقاتل أوقافاً يرتاح فيها؛ فربما كان السيد «س» موجوداً في ستايلز للاستحمام فقط دون أي نوايا مينة. لكن بوارو كان غاضباً جداً بحيث لم أجرو على تقديم هذا الاقتراح، وقلت فقط إن الوضع كله يبدو لي ميؤوساً منه وأنه يجب علينا الانتظار.

أكمل بوارو: أترى؟ مثل السيد إسكيت في الحرب الأخيرة. هذا هو ما يجب علينا تجنبه يا عزيزي، وأرجو أن تتبه: أنا لا أقول إننا ستجرح حتماً، وقد أخبرتك سابقاً أنه عندما يصمم المقاتل على القتل فليس من السهل إيقافه، ولكن يمكننا المحاولة على الأقل. ففكر لنفسك يا هينغز: أمامك مشكلة في لعبة البريدج ويمكنك رؤية جميع الأوراق، والمطلوب منك أن تنبأ بنتيجة اللعبة.

هزئت رأسي بقوة وقلت: لن ينفع هذا يا بوارو، ليست لدي أي فكرة. فقط لو عرفت من هو السيد «س»!

فصرخ بوارو مرة أخرى بصوت مرتفع جعل كيرتس يأتي

مرعاً من الثروة المجاورة وهو يبدو فزعاً، فأشار إليه بوارو
بالانصراف، وعندما انصرف خارجاً تحدث صديقي بطريقة أكثر
انتصافاً فقال: هيا يا هيستنز، أنت لست غيباً كما تحاول أن
تظاهر. لقد درست تلك القضايا التي أعطيتك إياها لتقرأها، ربما
لم تعرف الرجل لكنك تعرف أساليبه في ارتكاب الجرائم.

قلت: نعم، لقد فهمت.

- نعلم طبعاً أن مشكلتك تكمن في أنك كسول عقلياً؛ أنت
تحب لعب الألعاب والتخمين ولا تحب استعمال عقلك. ما هو
العنصر الأساسي في تخطيط الرجل؟ العنصر الأساسي هو أن
الجريمة تكون جريمة كاملة عند ارتكابها، أي أن الدافع للجريمة
والفرصة والوسيلة تتوفر كلها، وأخيراً (وهو الأهم) الشخص
المذنب الذي يجب محقه!

وعلى الفور أدركت النقطة الأساسية وأدركت كم كنت غيباً
لأنني لم أرها سابقاً، فقلت: آه، يجب البحث عن شخص تتوفر فيه
جميع هذه المتطلبات، الضحية المحتملة.

اتكأ بوارو إلى الخلف منهداً وقال: أخيراً! أنا متعب؛
أرسل لي كيرنس. أنت تفهم عملك الآن، وأنت تشيط ويمكنك
التفكير وملاحقة الناس والنحدث إليهم والتجسس عليهم دون أن
يلاحظوا.

كدرت أن أحتج بسخف ولكنني هدأت. فقد كانت مناقشة
عقيمة، وقال بوارو: يمكنك الاستماع إلى المحادثات بأن ننحني
وتركع وننظر من خلال ثقب الباب.

تقاطعت بعدها: لن أنظر من خلال ثقب الباب.

تابعت: ولكن يوجد رجل يمكنه مساعدتنا وهو الرجل الذي نحتاج إليه بالضبط: يمتلك العقل والمخال والحيلة والدهاء. إنه معتاد على اتخاذ القرارات وهو رجل ذو خبرة واسعة. أنا أنكلم عن بوييد كارنتون، هو الرجل الذي نريد يا بوارو، فلماذا لا نثق به وتضع الأمر كله أمامه؟

فتح بوارو عينيه وقال بصوت حازم شديد: بالطبع لا.

- لمَ لا؟ لا يمكنك إنكار أنه ذكي، بل هو أذكى مني كثيراً.

قال بوارو بسخرية مؤلمة: هذا سهل، ولكن اصرف هذه الفكرة من ذهنك يا هيستنز. نحن لا نثق بأحد، هل هذا مفهوم؟ أنا أمتنعك من الحديث في هذا الموضوع.

- حسناً، إذا كان هذا رأيك، ولكن في الواقع فإن بوييد كارنتون...

- آه، بوييد كارنتون؟ لماذا أنت مهتم ببوييد كارنتون؟ ما هو على أية حال؟ رجل ضخم ومغرور ومسرور من نفسه لأن الناس ينادونه بلقب «صاحب السعادة» صحيح أنه يتمتع ببعض الكياسة واللباقة وحسن التصرف، ولكنه ليس رائعاً. بوييد كارنتون يكرر نفسه، يروي القصة مرتين، والأكثر من ذلك أن ذاكرته ضعيفة جداً لدرجة أنه يروي لك نفس القصة التي أخبرته أنت بها. رجل ذو قدرات هائلة؟ بالطبع لا، بل هو عجوز ممل متبجح ثرثار، وأخيراً فهو مغرور إلى أبعد الحدود.

- آه، هذا رأيك وقد بدأت أرى الحقيقة.

فأعوض بوارو عينيه وقال: حسناً، أنت لن تنظر من ثقب الباب، سوف نظل ذلك الرجل الإنكليزي المتهذب، وسنقتل أحدهم... هذا لا بهم فالشرف يأتي أولاً بالنسبة للرجل الإنكليزي. شرفك أهم من حياة أحدهم. حسناً، لقد فهمت.

- لا، ولكن... نياً يا بوارو!

قال بوارو بيرود: انصرف وايعت لي كيرتس. أنت عنيد وعغي جداً، وكم أتمنى لو أجد شخصاً آخر يمكنني أن أثق به، ولكن يبدو أنني مضطر لاحتمالك أنت وأنكارك السخيفة في اللعب النظيف. وبما أنك لا تستطيع استعمال خلاياك الرمادية، مكنات عقلك، ومن الواضح أنك لا تمتلكها، فعلى الأقل استعمل عينيك وأذنيك (وأنفك عند الضرورة) بما يملكه عليك شرقك.

-٢-

كان ذلك في اليوم التالي عندما تجرأت على التطرق إلى فكرة خطرت ببالي أكثر من مرة، وقد فلتها بتردد، فلا أحد يعرف كيف يمكن لبوارو أن يتصرف. فلتت: لقد كنت أفكر يا بوارو، أنا أعلم أنني لست بذلك الرجل، أنت فلتت إنني عبي... حسناً، هذا صحيح نوعاً ما وأنا فعلاً نصف الرجل الذي كنته سابقاً، فمتد موت ستديلا...

توقفت فأصدر بوارو صوتاً أحسبه تعبيراً عن تعاطفه، ثم

صحيح أن ذاكرة بويد لم تكن جيدة، كما أنه -حقيقة- كان قد ارتكب الخطأ الذي أحسبه السبب في غضب بوارو الشديد. لقد أخيره بوارو بقصة من أيام خدمته في الشرطة البلجيكية، وبعد يومين فقط وعندما اجتمع عدد متا في الحديقة روى بويد كارتفون بإهمال بسيط نفس القصة مرة أخرى لبوارو. لقد أدركت الآن بأن الأمر آثار غضبه، وبلباقة السحيت دون أن أقوله شيئاً.

-٣-

نزلت إلى الطابق السفلي ثم خرجت إلى الحديقة. لم يكن فيها أحد، وتجولت في بستان من الأشجار حتى وصلت إلى هضبة عشبية ينزجها منزل صيفي بلغ مرحلة متقدمة من النداعي، وقد جلست هناك وأشعلت غليوني وأخذت أفكر في الأمور: من من هؤلاء الموجودين في «سنابلز» يملك دافعاً معقولاً ومحدوداً لقتل شخص آخر؟ أو من هو الشخص المتوقع الذي يمكن إثبات أنه يملك دافعاً؟

استثبت الكولونيل لانريل، إذ بدا لي من غير المحتمل أن يستعمل البلطة ضد زوجته ولو في مبارزة، على الرغم من أن مثل هذا التصرف يمكن تبريره.

في البداية لم يخضر بياني أحد، والمشكلة أنني لا أعرف القدر الكافي عن هؤلاء الأشخاص، فسا الذي أعرفه عن نورتون أو الأنسة كول على سبيل المثال؟ وما هي دوافع الجريمة في العادة؟ المال؟ وأيت أن بويد كارتفون هو الرجل الغني الوحيد بين أفراد

المجموعة، فمن الذي يرثه إذا مات؟ هل وارثه هو أحد الموجودين في المنزل؟ هذا الاحتمال بعيد ولكنها نقطة تستوجب البحث. وماذا لو أنه كان قد أوصى بأمواله للأبحاث وأصبحاً فرانكلين وصياً؟ لو صح هذا الافتراض وأعفنا إليه ملاحظات الطبيب الطائشة حول القضاء على ثمانين في المئة من الجنس البشري فيمكن أن تنشأ قضية جيدة ضد الدكتور ذي الشعر الأحمر. وربما كان أي من نورتون أو الأنسة كول قريتين بعيدتين وسوف يرتان تلقائياً في هذه الحالة. احتمال بعيد، لكنه جفتز. هل يمكن أن يستفيد الكولونيل لانريل (وهو صديق قديم) من وصية بويد كارتفون؟ بدا أن هذه الاحتمالات قد غطت جميع الجوانب المادية.

نظرت في الاحتمالات الرومسية. عائلة فرانكلين مثلاً: السيدة فرانكلين مريضة، فهل من المحتمل أنه قد تم تسميمها ببطء؟ وهل ستلقى مسؤولية موتها على الزوج لأنه طبيب ويعتلك الفرصة والوسيلة؟ ولكن ماذا عن الدافع؟ رواودتي فكرة مزعجة جعلني أشعر بالخوف من أن تكون جوديت متورطة أيضاً. كان لدي من الأسباب ما يجعلني أعلم أن علاقتهما مبنية بحنة، ولكن هل يصدق الرأي العام ذلك؟ هل يمكن لشروطي شك أن يصدق؟ كانت جوديت شابة جميلة جداً، وسكرتيرة أو مساعدة جذابة قد تكون الدافع لاوتكاب العديد من الجرائم. وأقلني هذا الاحتمال كثيراً.

ثم فكرت في أليوتون. هل يوجد أي سبب لقتل أليوتون؟ إذا كان لا بد من وجود قاتل فأنا أفضل أن أرى أليوتون الضحية. يستطيع المرء أن يجد الدوافع بسهولة لقتله. مثلاً الأنسة كول، على الرغم من أنها لم تعد شابة إلا أنها لا تزال امرأة جميلة، ومن

الممكن أن تحركها الغيرة إذا كانت هي والبرتون في علاقة حميمة، رغم أنني لم أجد من الأسباب ما يدفعني إلى الاعتقاد بأن هذه هي الحالة، هذا إذا كان البرتون هو «س» المجهول.

هزئت رأسي بتقاد صبر، فكل هذا لم يوصلني إلى أي شيء. واسترعى انتباهي صوت خطوات على ممر الحصى السفلي، كان ذلك فرانكلين يمشي بسرعة متوجهاً نحو المنزل الصيفي ويده في جيبه ورأسه مرفوع إلى الأعلى. كان مظهره مظهر رجل مكتب، وعند رؤيته بهذه الحالة ضُعتت بحقيقة أنه بدا رجلاً غير سعيد أبداً. كنت مشغولاً في متابعتي بحيث لم أسمع صوت الخطوات القريبة مني.

استدثرت فزعاً عندما تحدثت إليّ الأنتسة كول، وقلت معتذراً وأنا أنهض: لم أسمعك وأنت قادمة.

كانت تتفحص المنزل الصيفي فقالت: ما أجملي هذا التذكار الفكتوري!

- أليس كذلك؟ لكن من المزمف أنه مهجور تملؤه خيوط العنكبوت. تفضلي بالجلوس، سأفرض لك المقعد.

وبدت لي فرصة جيدة للتعرف على واحدة من الضيوف بصورة أفضل. وتاملت الأنتسة كول بصورة خفية وأنا أزيل خيوط العنكبوت؛ كان عمرها بين الثلاثين والأربعين، وكانت هزيلة نوعاً ما وذات عينيّ جميلتين جداً ويحيط بها جو من التحفظ والشك.

وأحسست بأنني بحاجة لمعرفة المزيد عن إليزابيث كول. قلت

بعد أن انتهيت من تنفيض الكرسي بمندبلي: هالِك الكرسي، هذا أفضل ما أستطيعه.

جلست قائلة: شكراً لك.

جلستُ بجانبها فصرّ المقعد بصورة منثرة بالسوء، ولكن لم تحدث مصيبة. قالت: أخبرني، بماذا كنت تفكر عندما وصلت؟ لقد كنت تبدو مستغرقاً في التفكير.

قلت ببطء: كنت أراقب الدكتور فرانكلين.

- حقاً؟

ولم أَر ضرورة لإعادة ما كنت أفكر به فقلت: لقد فوجئت بأنه بدا غير سعيد.

قالت بهدوء، بالطبع ليس سعيداً، لا بد أنك قد أدركت ذلك.

أظن أنني أظهرت دهشتي وقلت بتلعثم بسيط: لا، لا، ثم أدرك ذلك، لقد كنت أظنه مشغولاً جداً في عمله على الدوام.

- هو كذلك بالفعل.

- أنسمين ذلك نعاساً؟ يجب أن أقول إن هذه من أسعد الحالات التي يمكن تصورها.

- نعم، أنا لا أنكر هذا، ولكن ليس إذا مُنح الإنسان من القيام بالعمل الذي يحسنه، أي إذا لم يستطع تقديم أحسن ما عنده.

نظرت إليها دهشاً في حين تابعت مفسرة: لقد عرض على الدكتور فرانكلين في الخريف الماضي أن يذهب إلى أفريقيا لمتابعة أبحاثه هناك، وهو ذكي جداً كما تعلم وقد حقق إنجازاً من الدرجة الأولى في حقل الطب الاستوائي.

- ألم يذهب؟

- نعم، لم يفعل؛ فقد احتجبت زوجته. لم تكن صحنها لتسمع لها باحتمال الثناخ، وقد رفضت فكرة بقائها هنا وحدها رفضاً قاطعاً، ولا سيما أن ذلك يعني أن عليها أن تحيا حياة متطفلة لأن الأجر الممنوح لم يكن عالياً.

- آه، أظن أنه شعر بأنه لا يستطيع تركها وهي في مثل هذه الحالة الصحية.

- هل تعلم أي شيء عن حالتها الصحية يا كابتن هينستغز؟

- أنا؟ لا، ولكنها مقعدة، أليس كذلك؟

قالت الأنسة كول بجفاء: بل هي تستمتع بسوء صحتها.

نظرت إليها بشك، وكان من السهل ملاحظة أن تعاطفها كان كله مع الزوج. قلت ببطء: أظن أن النساء الرقيقات يملن إلى الانانية، أليس كذلك؟

- أظن أن المعوقات منهن، المعوقات حقاً، يكنّ أنانيات جداً، ولا أظن أن المرأة يستطيع لومهن.

- ألا تعتقد أن السيدة فرانكلين مريضة حقاً؟

- لا أريد أن أقول ذلك، هذا مجرد شك، ولكنها تبدو قادرة على القيام بأي شيء تريده.

فكرت بصمت لمدة دقيقة أو اثنتين، وشعر بهالي أن الأنسة كول مقلعة جيداً على مختلف شؤون عائلة فرانكلين، فسألته بفضول: أظن أنك تعرفين الدكتور فرانكلين جيداً؟

هزت رأسها قائلة: لا، أنا لا أعرفه جيداً؛ فقد قابلته مرة أو اثنتين فقط قبل أن نتقابل هنا.

- إذن أظن أنه حدثك عن نفسه؟

هزت رأسها مرة أخرى نفياً وقالت: لا، ما أخبرتك به الآن أعلمتني به ابنك جوديث.

فكرت بمرارة في أن جوديث تتحدث مع الجميع إلا أنا، وتابعت الأنسة كول قائلة: جوديث مخلصة جداً لصاحب عملها وهي تدافع عنه دائماً، وشجبتها لأنانية السيدة فرانكلين واضح تماماً.

- أنظنين أنت أيضاً بأنها أنانية؟

- نعم، ولكنني أرى وجهة نظرها. أنا أفهم المعوقين، كما أن باستطاعتي أيضاً أن أفهم استسلام الدكتور فرانكلين لها. أما جوديث فتعتقد طبعاً أن عليه أن يترك زوجته في أي مكان ويلتفت لعمله. إن ابنك متحمسة للعلم كثيراً.

قلت بحزن: أعلم، وهذا يقلقني أحياناً، إنه لا يبدو طبيعياً...

إذا كنت تفهمين ما أعني. أشعر بأنها يجب أن تكون أكثر إنسانية وأن تهتم بأن تستمتع بوقتها، أن تسأل نفسها قليلاً، ففي الحقيقة فترة الشباب هي فترة اندفاع المرء ولهوه لا جلوسه متأملاً أنابيب الاختبار! ليس هذا طبيعياً. في أيام شبابتنا كنا نستمتع ونلهو بوقتنا أنت تعلمين هذا.

مضت لحظة صمت ثم قالت الآنسة كول بصوت غريب: لا، لا أعلم.

وفجأة أحسست بالتهيج، فدون أن أشعر تحدثت معها وكأننا من جيل واحد، لكنني أدركت فجأة أنها تصغرنني بعشر سنوات على الأقل وأتني ظهرت -دون قصد- مفتقراً إلى التهذيب. واعتذرت بأحسن ما أستطيع لكنها قاطعت جملتي المنلعممة قائلة: لا، لم أقصد ذلك، أرجوك لا تعتذر. كنت أعني -ببساطة- ما قلته: أنا لا أعلم؛ إذ لم أكن قط ما يمكن أن تسميه «شاباً» ولم أذعن يوماً بما سيثبه وقت السلبية والوهو.

شعرت بشيء ما لي صوتها، ربما كان فيه ضياع أو مراوة أو استياء عميق... وقلت بضعف ولكن بصدق وإخلاص: أنا أسف.

فايتسمت قائلة: حسناً، لا يهم. أرجوك أن لا تبدو متزعجاً هكذا، دعنا نتكلم في موضوع آخر.

تابعت قائلاً: أخبريني بعض الشيء عن الأشخاص الآخرين هنا، إلا إذا كانوا غريبين بالنسبة لك.

- لقد عرفتُ عائلة لارتيل طول حياتي، ومن المبحزن أن

بُضطروا لتعمل هكذا، ولا سيما بالنسبة له فهو عزيز جداً. وهي أطف مما تظن. إلا أن الحياة القاسية التي عاشتها جعلتها قاسية وجارحة نوعاً ما. الشيء الوحيد الذي لا أحبه فيها هو تصرفها العنيف.

- حدثيني عن السيد تورثون.

- لا يوجد الكثير لأحدثك به. إنه لطيف جداً وخجول إلى حد ما، ولعله عتيّ قليلاً. كان دائماً لطيفاً ورفيقاً، وقد عاش مع أمه التي كانت امرأة نكدة وغيبية وأظن أنها سبخرت عليه كثيراً، ثم ماتت قبل سنوات قليلة. يهتم بالطيور والأزهار وأمثال هذه الأشياء، وهو شخص عطوف من ذلك النوع من الأشخاص الذين يرون الكثير.

- أتعنين بمنظاره؟

ابتسمت الآنسة كول قائلة: حسناً، لم أعني ذلك حرفياً بل قصدت أنه شديد الملاحظة، هذا ما يفعله الأشخاص الهادئون. إنه ليس أنانياً بل هو شخص متفهم ويراعي الآخرين، ولكنه غير فعال إذا أدركت ما أعني.

أومات براسي وقلت: نعم، أفهم هذا.

وفجأة قالت إليزابيث كول وقد عادت البيرة المريرة إلى صوتها: هذا هو الجزء المحزن في مثل هذه الأماكن. فندق يديره شخصان لطيفان ولكنهما مفلسان، وهو مليء بالفاشلين، أناس لم يصلوا إلى أي مركز ولن يصلوا أبداً، أناس هزمتهم الحياة وأفعدتهم، أناس كبار متيؤن ومتهون.

تخلفت صوتها، ونفذ إلى أعماقي حزن عميق. كم كان هذا

صحيحاً؟ ها نحن أولاء جماعة من الناس وصلوا إلى مرحلة الانحطاط؛ شعور رمادية، وقلوب رمادية، وأحلام رمادية! أنا نفسي حزين ووحيد، وهذه المرأة بجانبتي مخلوقة مصابة بالخيبة، واللكنور فرانكلين متحسّس طموح مقبّد عنيد، وزوجته وقعت فريسة للمرض، ونورتون الهادئ المنهك في مرافقة الطيور، حتى بوارو صار الآن عجوزاً مقنّداً!

كم كان الأمر مختلفاً في الماضي، في تلك الأيام عندما قدمت إلى «ستايلز» لأول مرة! كانت تلك الفكرة أكثر مثلاً أستطيع احتماله فصدرت مني أمة ألم مكتومة، فقلت وفبفتي بسرعة: ما الأمر؟

قلت: لا شيء، لقد صعقتني الفزق. لقد كنت هنا - كما تعلمين - منذ عدة سنوات عندما كنت شاباً، وقد كنت أفكر في الفرق بين الحالين!

- لقد كان منزلاً سعيداً إذن. هل كان الجميع سعداء هنا؟

غريب أن تتراجع أفكار المرء هكذا. لقد حدث ذلك لي الآن، خلط غريب وإعادة خلط للذكريات والأحداث، ثم عادت القفص إلى تركيبها الحقيقية. كانت حسرتي على الماضي من حيث هو ماضٍ فقط لا على الواقع الذي يشبهه؛ فحتى في ذلك الوقت، في ذلك الوقت البعيد، لم يعرف «ستايلز» معنى السعادة. وتذكرت بهدوء بعض الحقيقة، كان صديقي جون وزوجته نعينين غاضبين بسبب تلك الحياة التي أجبرا على عيشها، وكان لورنس كافيندر غارقاً في الحزن، وسيتبها خبا صباها الفتى بسبب موقفها غير

المستقل، وإنغليشروب تزوج امرأة ثرية لئمالها... لا، لم يكن أي من الناس سعيداً هنا. والآن، ومرة أخرى، لم يكن أي منهم هنا سعيداً! لم يكن «ستايلز» بالمنزل الذي يجلب الحظ!

قلت للأنسة كول: لقد أطلقت العنان لمواقف خاطئة؛ لم يكن هذا قط بالمنزل السعيد. وهو ليس كذلك الآن، فالجميع هنا غير سعداء.

- لا، لا، أبنتك...

- جوديث؟ جوديث أيضاً ليست سعيدة.

قلت ذلك بقرة معرفة مفاجئة، ثم قلت بشك: يريد كارتنتون كان يخبرني قبل أيام بأنه وحيد، ولكن أظن أنه يستمتع بوقته جداً.

قالت الأنسة كول بحدة: نعم، لكن السير ويليام مختلف؛ فهو لا يتنحى إلى هذا المكان مثل بقيننا. إنه من العالم الخارجي، عالم النجاح والاستقلال، لقد نجح في حياته، وهو يعلم ذلك. إنه ليس من المعوزين.

كانت كلمة غريبة تلك التي اختارها، والتفتُ إليها محدقاً رقلت: هلاً أخبرتني لماذا استعملت هذا الاصطلاح بالتحديد؟

قالت فجأة وبقوة: لأن هذه هي الحقيقة، والحقيقة أنني أنا نفسي إنسانة معوزة.

- أنا أعلم أنك لم تكوني سعيدة.

قالت بهدوء: أنت لا تعرف من أنا، أليس كذلك؟

- آه، أعرف أن اسمك...

- كول ليس اسمي... أعني أنه اسم أمي، وقد ائبسته فيما بعد.

- فيما بعد؟

- اسمي الحقيقي هو ليتسفيلد.

للوهلة الأولى لم أفهم جيداً، كان مجرد اسم يبدو مألوفاً، ثم تذكرت فقلت: ماثيو ليتسفيلد؟

أومأت برأسها قائلة: أرى أنك تعرف الموضوع. هذا ما كنت أعنيه، كان أبي مريضاً وطاغية ومنمنة من ممارسة حياة طبيعية، لم يكن باستطاعتنا دعوة أصدقائنا إلى المنزل وأبقانا دائماً في حاجة إلى النقود... لقد كنا نعيش في ذنرانة!

توقفت عن الحديث، وكانت عيناها الجميلتان غامضتين واسعتين، لم أكملت: ثم أختي، أختي...

وتوقفت عن الحديث فقلت: أوجوك، لا تتابعي! هذا مؤلم بالنسبة لك، أعرف الموضوع فلا داعي لإخباري.

- ولكنك لا تعلم، ليس باستطاعتك أن تعلم. ماغي... ذلك لا يمكن تصديقه أو فهمه. أنا أعرف أنها توجهت إلى الشرطة وأنها سلمت نفسها واعترفت، ولكنني لا أزال عاجزة عن تصديق الأمر أحياناً. أؤمن بأن ذلك لم يكن صحيحاً، لم يكن من الممكن أن يحدث الأمور كما قالت إنها حدثت.

وترددت قبل أن أقول: آتبعين إن الحقائق كانت مختلفة؟

قاطعتني قائلة: لا، لا، ليس هذا ما أعنيه، بل ماغي نفسها؛ لم يكن ذلك من طبعها، لم تكن... لم تكن ماغي!

اعتزت الكلمات بين شفتي، ولكنني لم أقولها. لم يكن بعد-الوقت الذي أستطيع فيه أن أقول لها: أنت على حق! لم تكن ماغي.

* * *

الفصل التاسع

لا بد أن الساعة كانت نحو السادسة عندما جاء الكولونيل لاثريل عبر الخمر. كانت معه بندقية صيد وكان يحمل معه زوجين من الحمام، وقد جفل عندما حيّته وبدأ دَهْشاً لروقيتنا فقال: مرحباً، ماذا تفعلان هنا؟ هذا المكان القديم المتداعي ليس آمناً كما تعلمان، فهو يتداعى وقد يتفكك من حولكما. سوف تسخ ثيابك يا إيزابيث.

- لا بأس، لقد ضحى الكابتن هيبستغز بمندبله لهدف نبيل هو المحافظة على ثوبي نظيفاً.

همس الكولونيل بغموض: آه، حقاً؟ حسناً، هذا جيد.

ورقف هناك وعلى وجهه ابتسامة غامضة فنهضنا وانضممنا إليه. بدا ذهنه مشتتاً في ذلك المساء، وقد ضبط على نفسه ليقول: كنت أحاول اصطياد ذلك الحمام اللعين؛ فهو يسبب الضرر الكثير كما تعلمان.

قلت: أنت صياد ماهر كما سمعت.

- آه، من أخبرك بذلك؟ بويد كارنغتون؟ كنت صياداً ماهراً، كنت، أما الآن فقد كبرت وضعفت.

- أهو نظرك؟

استبعد الاقتراح فوراً وقال: هراء، نظري لا يزال جيداً كما كان، أعني أنني أحتاج إلى وضع النظارة للقراءة طبعاً لكن نظري البعيد لا يزال جيداً.

وكرر بعد دقيقتين: نعم، حسناً، هذا ليس مهماً.

ثم انخفض صوته إلى غمغمة شاردة، ونظرت الأنسة كول حولها قائلة: ما أجمل هذه الأمسية!

كانت على حق؛ فقد مالت الشمس نحو الغروب، وكان ضوءها كبلون الذهب مبرزاً لونه الشجر الأخضر بلون وضاء. كانت ليلة هادئة إنكليزية جداً يتذكرها المرء عندما يكون في البلاد الاستوائية البعيدة... هكذا قلتُ. ووافقي الكولونيل لاثريل بحماسة قائلاً: نعم، نعم، لطالما ذكرت أمسيات مثل هذه عندما كنت في الهند. إن هذا يجعلك تتطلع إلى اليوم الذي تتقاعد وتستقر فيه، ما رأيك؟

أومات موافقاً، فتابع وقد تغير صوته: أجل، الاستقرار والعودة إلى الوطن. لا شيء كما تتخيله، لا شيء.

فكرت أن هذا صحيح لمن هو في مثل وضعه. لا أظن أنه تصور نفسه يوماً يدير ثراً للضيافة ويحاول أن يجعله يدرّ ربحاً مع زوجة تكده تعامله بازدياد، وتذكر طول الوقت.

مشينا نحو المنزل يبطء، وكان نورتون وبويد كارتفون يجلسان على الشرفة فانضممت أنا والكولونيل إليهما في حين دخلت الأنسة كول إلى المنزل، تحدثنا عدة دقائق، ويبدو أن الكولونيل لاثريل قد عاد

إليه ابتهاجه فقد ألقى بعض الشكايات وبدأ أكثر مرحاً وانتعاشاً من قبل.

قال نورتون: لقد كان يوماً حازماً، كم أشعر بالعطش!

فقال لاثريل: تناولوا بعض المرطبات على حساب صاحب المنزل أيها الرفاق، ما رأيكم؟

بدأ الكولونيل متحمساً ومرحاً، وشكرناه بعدما وافقنا فنهض وذهب إلى الداخل.

كان ذلك الجزء من الشرقة الذي جلسنا فيه يطلّ على نافذة غرفة الطعام، وكانت النافذة مفتوحة فسمعنا صوت الكولونيل في الداخل وهو يؤمّد العصير، ثم سمعنا صوت السيدة لاثريل حاداً ومرتفعاً وهي تقول: ماذا تفعل يا جورج؟

وانخفض صوت الكولونيل إلى غمغمة، فلم نستطع سوى سماع بعض الكلمات المتلعمة مثل: «الرفاق في الخارج»، «المرطبات»... ثم انفجر الصوت الحاد المزعج: أنت لن تفعل مثل هذا الشيء يا جورج، هذه الفكرة في مثل هذا الوقت! كيف نظن أن بإمكاننا إنجاح هذا المكان وأنت تدعو الجميع إلى الشراب؟ المشروبات هنا يجب أن يُدقّع ثمنها. أنا أملك عقلاً تجارياً إذا كنت لا تملكه. كنت ستفلس من الغد لو لم أكن هنا، يجب أن أعطني بك كما لو كنت طفلاً، أنت لا تملك عقلاً أبداً.

ومرة أخرى سمعت غمغمة احتجاج خائفة وسالمة، وأجابت السيدة لاثريل بحدة: لا أبالي إن فعلوا أو لم يفعلوا، هكذا يجب أن تكون الأمور!

وهذه المرة جاءنا صوت الكولونيل بوضوح يقول: لقد تجاوزت الحدود يا ديزي، وأنا لن أقبل بهذا.

- لن تقبل بهذا؟ أنا أريد أن أعرف من أنت، من يدير هذا المنزل؟ أمّا، وإياك أن تتسنى ذلك.

وسمعنا حفيف أقمشة غادرتنا أن السيدة لاتريل قد اندفعت خارج الغرفة. ومضت عدة دقائق قبل أن يظهر الكولونيل، وحين أقبل بدا أنه قد ضَعُفَ وهرم خلال هذه الدقائق القليلة، ولم يبقَ أحدٌ منا إلا وشعر نحوه بالأسف. ومن منا لم يكن ليَطْوَخَ -عندئذٍ- بقتل السيدة لاتريل؟

قال الكولونيل بصوت جامد غير طبيعي: أنا أسف جداً أيتها الأصدقاء، يبدو أن العصير البارد لا يتوفر لدينا الآن.

ولا بدّ أنه أدرك أننا لم نملك إلا أن نسمح ما جرى، وإلا لم يكن قد أدرك ذلك فلا بدّ أن تصرفنا سرعان ما أخبره به. بدا التوتر والضيق علينا جميعاً، وقال نورون بسرعة إنه لا يريد أن يشرب أي شيء لأن موعد العشاء قد اقترب، ثم غيّر الموضوع فجأة وأخذ يبيدي مجموعة من الملاحظات غير المترابطة. كانت لحظة سبّية فعلاً وقد أحسستُ بأنني لا أستطيع فعل أي شيء، أما بويد كارنغتون الذي كان الوحيد القادر على تغيير الموضوع فلم تمنح له الفرصة بسبب ثرثرة نورتون.

ومن بعيد شاهدت السيدة لاتريل تمشي بسرعة عبر أحد السممرات مزوّدة بكفوف البسته وأداة لإزالة الأعشاب الضارة، كانت

امرأة كفتاً بحق، ولكنني شعرت بالمرارة نحوها في تلك اللحظة؛ فلا بحق لأني إنسان أن يهين إنساناً آخر.

كان نورتون لا يزال يتحدث بانفعال، وقد التقط إحدى الحمامات وبدأ يحدثنا كيف ضحك منه أصدقاؤه في المدرسة الإعدادية عندما شعر بالغباش لدى رؤيته أرتباً مفتولاً، ثم انتقل إلى موضوع مستنقعات الطيور راوياً قصة طويلة لا جدوى منها عن الذي حدث في اسكتلندا عندما أطلق أحدهم النار على مشير الطرائد، كما تحدثنا عن العديد من حوادث الصيد التي نعرف عنها.

ثم تمنع بويد كارنغتون قائلاً: في الواقع لقد حدث أمر طريف مع أحد جنودي. كان فني أيرلندياً وكانت لديه إجازة ذهب خلالها إلى أيرلندا، وعندما عاد سألتُه إن كان قد تمتع بإجازته فقال: نعم يا سيدي، كانت أحسن عطلة قضيتها في حياتي. فقلت إنني سعيد لذلك، هذا ما قلته وأنا مدهوش من حماسه، فقال: "نعم، كانت إجازة رائعة؛ لقد أطلقت النار على أخي!" فهتفت: "أطلقت النار على أخيك؟!" فقال: "نعم، بالطبع، لقد أردت فعل ذلك لسنوات، وما أنذا وقد كنت على أحد السطوح في دبلين ورأيت أخي قادماً يسير في الشارع ويندقّتي في يدي. طلقه رائعة على الرغم من أنني أنا الذي أقول ذلك. لقد اصطدته كما اصطاد الطائر، كانت لحظة رائعة ولن أنساها أبداً!"

روى بويد كارنغتون القصة بصورة حسنة مع بعض المبالغة وتضخيم الأمور فضحكنا جميعاً وشعرنا بالآرايح، وعندما نهض قائلاً إنه بحاجة إلى الاستحمام قبل العشاء عبر نورتون عن مشاعرنا

بقوله بحماسة إنه رجل رائع، ووافقته في حين قال لانييل: نعم، نعم، هو كذلك.

قال نورتون: كان ناجحاً دائماً، ينجح في أي أمر يفعله. إنه صافي الذهن ويعرف ماذا يريد، رجل فقال، مثال الرجل الناجح.

قال لانييل ببطء: بعض الرجال مثل هذا، أي شيء يفعلونه ينجح ولا يمكن أن يخطئوا، بعض الناس لديهم كل الحظ.

هز نورتون رأسه قائلاً: "لا، لا يا سيدي، هذا ليس حظاً". ثم أضاف مفتشياً أحد الأقوال المشهورة: "ليس في نجومنا حظنا يا عزيزي بروس، ولكن في أنفسنا".

قال لانييل: لعنك على حق.

قلت بسرعة: على كل حال هو محظوظ حقاً لأنه ورث فصر ناتون. يا لذلك المكان! ولكن عليه أن يتزوج، سوف يكون وحيداً هناك إذا بقي بلا زواج.

ضحك نورتون وقال: يتزوج ويستقر؟ افترض أن زوجته سيطرت عليه.

كان ذلك سيئاً. إنها ملاحظة يمكن لأي شخص إبدائها، ولكنها بدت غير مناسبة في مثل هذه الظروف، وقد أدرك نورتون ذلك لحظة صدور كلامه وحاول سحبها، فتردد وتلعثم ثم توقف بغرابة وقد زاد الوضع سوءاً.

بدأننا أنا وهو الكلام معاً، وأبدت ملاحظة غبية حول ضوء المساء، وقال نورتون شيئاً عن لعب البيردج بعد العشاء. ولم يهتم

الكولونيل لاتريل بأي مناء، ثم قال بصوت غريب غير معبر: لا، لن تسطر زوجة هويد كارنغتون عليه لأنه ليس من تلك النوعية من الناس الذين يسمحون للآخرين بالسيطرة عليهم. إنه رجل حقيقي.

كان الوضع غريباً، وبدأ نورتون بالثرثرة حول البريدج مرة أخرى، وفي وسط كلامه دققت حمامة كبيرة فوق رؤوسنا واستقرت على جذع شجرة غير بعيد، فالتقط الكولونيل لاتريل بندقيته وقال: ها هي ذي إحدى المفسدات.

وقبل أن يصوب بندقيته طارت الحمامة عبر الأشجار بحيث أصبح من المستحيل إطلاق النار عليها، وفي اللحظة نفسها تحول اهتمام الكولونيل بسبب سماعه خطوات على المنحدر البعيد فقال: اللعنة، أحد الأرانب يقضم لحاء أشجار الفاكهة الصغيرة، وقد ظننت أنني طوّفت المكان بالأسلاك.

ورفع بندقيته وأطلق النار، وفيما كنت أراقبه ارتفعت صرخة بصوت نسائي، ثم ضعفت الصرخة إلى حشرجة مريضة. وسقطت البندقية من يد الكولونيل وارتخى جسده وعض على شفتيه وصرخ: يا إلهي، ديزي!

ركضت نحو المرح ولحقتي نورتون وصولاً إلى المكان. كانت السيدة لاتريل منحنية تسند وقدأ إلى إحدى شجيرات الفاكهة الصغيرة، وكان العشب هناك طويلاً فأدركت كيف لم يستطع الكولونيل رؤيتها بوضوح بل مئز فقط حركة بين الأعشاب، وكان الضوء مضللاً، أصيبت في كتفها وكان الدم يتدفق منه، وانحبت أنحص الجرح ونظرت نحو نورتون الذي كان متكئاً على الشجرة

شاحياً وكأنه علي وشك الإغماء ، وقال معتزلاً : لا يمكنني احتمال
منظر الدم .

قلت بحدة : استدع فرانكلين أو الممرضة على الفور .
فأومأ برأسه وركض مسرعاً .

كانت الممرضة كارفن أول من ظهر على المسرح ، وقد
وصلت بعد فترة قصيرة جداً وبدأت العمل فوراً بطريقة محترفة
لوفف النزيف . وصل الدكتور فرانكلين بسرعة بعد ذلك ، وقام الاثنان
بنقلها إلى المنزل ومن ثم إلى السرير ، وقام فرانكلين بتضميد الجرح
وأرسل في طلب طبيبها الخاص ، وبقيت الممرضة كارفن معها .

وركضت نحو فرانكلين بعد أن انتهى من الحديث بالهاتف
وسألت : كيف حالها ؟

- سوف تتجاوز المحنة بسلام . لحسن الحظ لم تُصَب الرصاصة
أي منطقة حيوية . كيف حدث ذلك ؟

أخبرته بما حدث فقال : حسناً ، أين الرجل العجوز ؟ لا بد أنه
مصاب بصدمة ، أظن أنه بحاجة إلى العناية أكثر منها . لا أستطيع
الفكر إن قلبه يعمل بصورة سليمة .

عثرنا على الكولونيل لاثربيل في غرفة التدخين ، وكان لونه
أزرق حول الفم وبدأ أنه في حالة انهيار تام . قال بضعف : ديزي ،
هل هي...؟ كيف هي ؟

فقال فرانكلين بسرعة : ستكون علي ما يرام يا سيدي ، لا
حاجة للقلق .

- لقد ظننتها أرنياً بقضم الحذاء ! لا أعرف كيف ارتكبت مثل
هذا الخطأ... لعله سبب انعكاس الضوء في عيني...

قال فرانكلين بانفضاب : مثل هذه الأمور تحدث ، لقد رأيت
واحد أو اثنين مثلها من قبل . اسمع يا سيدي ، ينبغي أن أعطيك
دواء مهدئاً ؛ أنت لا تبدر على ما يرام .

- بل أنا على ما يرام . هل يمكنني أن أذهب إليها ؟

- ليس الآن ، الممرضة كارفن معها . ولكن لا داعي للقلق فهي
بخير ، وسوف يحضر الدكتور أوليفر قريباً وسيطبرك بال رأي نفسه .

تركت الاثنين معاً وخرجت إلى ضوء المساء . وكانت جوديث
واليرتون يتقدمان نحوي غير الممر . كان رأسه مائلاً نحو رأسها
وكلاهما ضحككان ، وأنى ذلك ليزيد عليّ المأساة التي حدثت .
جعلني هذا المنظر أشعر بالغضب ، وناديت جوديث بحدة فنظرت
إليّ بدهشة ، وبكلمات قليلة أخبرتها بما حدث فقالت : إنه أمر غير
عادي .

ظننت أنها لم تَبْذُ قلقة كما كان ينبغي ، أما نصرنف اليرتون فقد
كان فظيلاً ؛ إذ اعتبر الأمر كله تكتة حيث قال : تلك العجوز النكدة
تستحق ما حدث لها . هل تظن العجوز قعليها متعمداً ؟

قلت مستتأً : بالطبع لا ، لقد كان الأمر مجرد حادثه .

- نعم ، ولكنني أعرف أن هذه الحوادث تكون مناسبة أحياناً ،
وإذا كان هذا العجوز قد أطلق النار عليها متعمداً فأنا أرفع قبعتي
احتراماً له .

قلت بغضب: لم يكن الأمر كذلك.

لسماع التفاصيل كاملة، فمدت وصولي إلى ستايلز ثمودث سرد معظم الأحداث اليومية والمحادثات له بالتفصيل. بهذه الطريقة كنت أحس أن صديقي العزيز يشعر بأنه أصبح أقل انعزلاً وأنه يشارك حقاً في كل أمر يحدث. كنت أتمتع بذاكرة جيدة ودقيقة، ووجدت من الضروري أن أكرر له المحادثات حرفياً.

استمع بوارو بانتباه، وكنت أمل أن يستسخر بشكل قاطع ذلك الاقتراح المخيف الذي سيطر على عقلي بسهولة مع مرور الوقت، لكن وقيل أن نتاح له الفرصة ليخبرني عن طئونه سمعنا نقرأ خفياً على الباب. كانت تلك هي الممرضة كارفن التي اعتذرت عن إزعاجها لنا قائلة: أنا آسفة، ولكنني ظننت أن الطبيب هنا. لقد استيقظت السيدة العجوز وهي قلقة على زوجها وتريد رؤيته. هل تعلم أين هو يا كابتن هينستغز؟ لا أريد أن أترك مريضتي.

تطوعت بالذهاب للبحث عنه، وأوما بوارو موافقاً وشكرتني الممرضة كارفن بحرارة.

عثر على الكولونيل لاتريل في الغرفة الصباحية التي لا تستعمل إلا نادراً، وكان واقفاً بجوار النافذة ينظر إلى الخارج. التفت بحدّة عندما دخلت وسألني عبثاً سؤالاً، وأظنه بدا خائفاً، قلت له: لقد استيقظت زوجتك يا كولونيل لاتريل، وهي تسأل عنك.

- حقاً؟

اندفع الدم إلى وجتيه فأدركتُ عندما كم كان شاحياً من قبل، وقال بيظه متلعثماً كرجل عجوز جداً: تسأل عني؟ سوف أذهب فوراً.

- لا تكن واقفاً جداً. لقد عرفت رجلين أطلقا النار على زوجتيهما كان أحدهما يتنطف مدسسه، أما الآخر فقد أطلق النار عليها مباشرة وقال إنه كان يمزح ولم يكن يعلم أن المدس مسجون بالرصاص. وقد أفلت كلاهما، وأقول إن هذه حربة راتمة.

قلت ببرود: ليس الكولونيل لاتريل من تلك النوعية من الناس. فقال أليرون بعدم احترام: لا يمكنك القول إن ذلك لن يكون خلاصاً محموداً، أليس كذلك؟

ابتعدت غاضباً، وفي الوقت نفسه كنت أحاول أن أخفي قلقاً ما. لقد اقرب أليرون قليلاً من نقطة مهمة، ولأول مرة تسرب الشك إلى عقلي.

ثم يتحسّن ذلك بلقائي ببويد كارتنتون الذي أوضح لي إنه كان يتمنى باتجاه البحيرة، وعندما أخبرته بالأمر قال فوراً: أنت لا نظن أنه كان ينوي فعلها، أليس كذلك يا هينستغز؟

- يا عزيزي، المقروض أن...

- أنا آسفة، آسفة؟ لم يكن من المقروض أن أقول ذلك. يا للعجب! لقد كانت تستغز قلباً كما تعلم.

صمتاً قليلاً ونحن نذكر الحوار الذي سمعناه دون قصد منا، وصعدت إلى الطابق العلوي وأنا أشعر بالنعاسة والقلق وطرقت باب بوارو. كان قد سمع بما حدث من كيرتس ولكنه كان متشوقاً

بدأ مترنحاً عندما بدأ يجرّ قدميه إلى الباب، فتوجهت إليه وساعدته، وإنكأ عليّ ينقل جسده حتى صعدنا الدَرَج. كان يتنفس بصعوبة؛ فالصدمة كانت قوية كما تنبأ فرانكلين.

اتجهنا إلى باب غرفة العريضة، ونقرتُ على الباب فسمعتُ صوت الممرضة كارفن الجادة والقوي وهي تقول: ادخل.

دخلنا الغرفة وما زلتُ أسند الرجل المعجوز. ورأينا حول السرير ستارة رقيقة فوقنا عند زوايتها، وقد بدت السيدة لاتريل مريضة جداً وشاحبة وضعيفة، وكانت عيناها مغمضتين ففتحتهما عندما وصلنا إلى زاوية السرير وقالت بصوت ضعيف لاهث: جورج، جورج!

فأجابها جورج بلهفة: ديزي، عزيزتي.

كانت إحدى ذراعيها مضمّدة ومسدّدة، أما الأخرى الضعيفة فقد تحركت نحوه مرتمة، فنقدم خطوة إلى الأمام وأمسك يدها الضعيفة بيده وقال مرة أخرى: ديزي!

ثم قال بصوت أجش: الحمد لله أنك بخير.

وعندما رأيت عينيهِ مغرورتين بالدموع نطلقان بالحب والقلق العميقين شعرت بالخجل العميق من كل تخيلاتنا الشريرة، وتسللت خارج الغرفة بهدوء. ثم يَخُفْتُ شعوره العميق بحبها، وقد أشعرنِي الموقف براحة لا حدود لها.

أفرغني قرع جرس الطعام وأنا أمير عبر النمر. كنت قد نسيت مرور الوقت، فقد أفسدتُ الحادثة كل شيء. الطباخ فقط

تصرّف كالمتعاد وجَهّز المشاء في الوقت المحدّد. ولم يغير معظمنا ثيابه، ولم يظهر الكولونيل لاتريل لكن السيدة فرانكلين التي بدت جفّابة جداً في ثوب زهري فاتح اللون كانت في الطابق السفلي، ولأول مرة بدت بصحة ونفسية جيّدين، ولاحظتُ أن فرانكلين كان مستغرقاً في التفكير. الأمر الذي أزعجني هو اختفاء اليرتون وجوديث في الحديقة معاً بعد العشاء.

جلست فترة استمع إلى فرانكلين ونورثون يناقشان الأمراض الاستوائية، وكان نورثون مصعباً جداً وإن كان لا يعرف إلا القليل عن الموضوع الذي تجري مناقشته. وكانت السيدة فرانكلين وبويد كارتفون يتحدثان في الجانب الآخر من الغرفة حيث كان يربها بعض نماذج السائر والأقمشة الفطية، وكانت إليزابيث كول مستغرقة في قراءة كتاب في يدها، وقد بدا لي أنها كانت محوّجة منك. ربما كان ذلك طبيعياً بعد محادثتنا في ذلك المساء، وقد شعرتُ بالأسف لهذا الأمر وتمنيت أن لا تتدم على ما أخبرتني به، وكنت أود أن أوضح لها بأنني أحترم ثقتها وأني لن أتحدث بما أخبرتني به، لكنها لم تمنحني أية فرصة.

بعد فترة صعدتُ إلى ويوارو فوجدت الكولونيل لاتريل جالساً في دائرة من الضوء يرسلها مصباح كهربائي صغيرة مضاء، وكان يتحدث ويوارو يستمع. أظن أن الكولونيل كان يتحدث إلى نفسه وليس إلى مستمعه، كان يقول: أتذكّر ذلك جيداً، كانت حفلة صيد وكانت ترتدي ثوباً حريمياً أبيض يلفها جيداً، وكانت فتاة جميلة جداً. لقد صمقنتي وأنا في مكاني، وقلت لنفسِي: "إنها هي الفتاة التي سأتزوّجها، أقسم على هذا"، وقد فعلتُ. كانت طريقتها في

كلامها حلوة شائعة، دائماً تعطي بقدر ما تستطيع، آه، بارك الله فيها.

تخيلت المنظر في عقلي، كان بإمكانني تصوّر وجه ديزي لاتريل الأنيق الفضيّ ولسانها المهدّب، كانت فائنة آنذاك ثم تحولت إلى امرأة سليطة بمرور السنين، لكن الكولونيل لاتريل كان يفكر فيها -في ذلك المساء- بصورة تلك الفتاة الشابة، حبه الحقيقي الأول.

مزة أخرى شعرت بالخجل مما قلناه في الساعات الماضية، وبالطبع أخبرت بوارو بالأمر كله عندما ذهب لاتريل إلى قراشه أخيراً. واستمع بهدوء، ولم أستطع فهم التعابير التي علت وجهه. قال لي: أتقصد أنك ظننت أن الطلقة أطلقت عمداً؟

- نعم، وأنا الآن أشعر بالخجل لهذا الظن.

- وهل بدت لك تلك الفكرة من نفسك أم أن أحداً آخر اقترحها عليك؟

قلت باستياء: لقد قال ألبرتون شيئاً مشابهاً، بالطبع سوف يفعل ذلك.

- وهل من أحد آخر؟

- بويد كارنتون اقترح ذلك.

- آه، بويد كارنتون؟

- نعم، فهو في الحقيقة رجل معجّوب ولديه خبرة في مثل تلك الأمور.

- نعم، بالطبع، بالطبع، لكن هل رأى الحادثة عند وقوعها؟

- لا، كان قد خرج نيمشي، بعض التمرين قبل أن يستعد للعشاء.

- نعم، فهمت.

قلت بتوتر: لا أظن أنني صدقت هذه النظرية حقاً، كان ذلك مجرّداً...

قاطعني بوارو قائلاً: لا داعي لأن تأسف على شكوكك يا هيسنغز، فمثل هذه الفكرة يمكن أن تخاطر ببال أي شخص في مثل تلك الظروف. نعم، كان ذلك طبيعياً جداً.

كان في سلوك بوارو شيء لم أستطع فهمه، لعله تحفّظ. كانت عيناه تراقباني بتعبير فضولي، وقلت ببطء: قد تكون محطاً، ولكن بعد أن رأيت تفانيه وإخلاصه...

أوما بوارو قائلاً: بالضبط، هذه هي الحالة عادة، فوراً هذه المشاجرات والخلافات والعداوات الواضحة يومياً تكمن العاطفة الحقيقية.

أبدته في رأيه، وتذكرت تلك النظرة الرقيقة الحنونة في عيني السيدة لاتريل عندما نظّرت إلى زوجها وهو ينحني فوق قراشها، لا مزيد من النكد والقلق والعصية.

أخذت أفكر -وأنا في طريقي إلى القراش- بأن الحياة الزوجية أمر غريب، ولكن ذلك الأمر في سلوك بوارو لا يزال يلفتني! نظرت

المراقبة الغربية تلك كأنه يتوقع متى أن أرى شيئاً ما، ولكن ماذا؟ وكنت في طريقي إلى الفرائش عندما أدركت ذلك الشيء... أدركته وكأنه أصابني بشدة فيما بين عيني! لو أن السيدة لاثريل قتلت لكانت تلك قضية مثل باقي القضايا السابقة، ولماذا كان الكولونيل لاثريل قد قتل زوجته. كانت ستسجل حادثة، ولكن وفي الوقت نفسه لن يكون الجميع متأكدين إن كانت حادثة أم جريمة أو تكريت عمداً. إن الأدلة غير كافية لكي تبرهن على أنها جريمة قتل، لكنها تكفي لإثارة الشك في ذلك.

ولكن هذا يعني... هذا يعني... ماذا يعني؟ إذا كان الأمر معقولاً فإنه يعني أن الكولونيل لاثريل لم يطلق النار على السيدة لاثريل، بل إن اس هو الذي فعل! ولكن هذا يبدو مستحيلاً. لقد رأيت الأمر كله؛ كان الكولونيل لاثريل هو الذي أطلق النار ولم تُطلق أية طلقة أخرى، إلا إذا... ولكن هذا مستحيل بالطبع.

لا، لعله ليس مستحيلاً بل هو أمر بعيد الاحتمال فقط، ولكنه جائز. فلنتراض أن شخصاً آخر كان ينتظر هذه اللحظة، وفي الوقت المناسب وعندما أطلق الكولونيل النار على الأرنب أطلق هذا الشخص الآخر النار على السيدة لاثريل، عندها نسمع صوت طلقة واحدة. حتى مع اختلاف بسيط كانت الطلقة الثانية ستعتبر صدى صوت الطلقة الأولى. والآن وأنا أعيد التفكير أعتقد أنه كان هناك صدى بالفعل.

لا، هذه فكرة سخيفة. توجد عدة طرق لتحديد السلاح الذي انطلقت منه الرصاصة بالضبط، فالعلامة على الرصاصة يجب أن

تطابق علامات أنبوبة البندقية. لكنني تذكرت أن ذلك يحدث فقط عندما يكون الشرطة بحاجة إلى تحديد السلاح الذي أطلقت منه الرصاصة، ولن يجري تحقيق في الأمر لأن الكولونيل لاثريل كان متأكد (مثلما كان الجميع) من أنه هو الذي أطلق تلك الطلقة المميتة، وسيعترف بهذه الحقيقة ويقبل بها دون أي شك أو سؤال. الشك الوحيد سيكون حول إطلاق النار إن كان عريضاً أم بنوايا إجرامية... سؤال لا يمكن حله أبداً.

لهذا فهذه القضية تشبه القضايا الأخرى تماماً، تشبه قضية العامل ويغز الذي لا يتذكر ولكن يفترض بأنه فعلها، وماغي ليتسفيلد التي جُنت وسلمت نفسها معترفة بجريمة لم ترتكبها. نعم، هذه القضية تشبه القضايا الأخرى، ولقد عرفت الآن معنى سلوك بوادو... كان ينتظر متى أن أدرك تلك الحقيقة.

* * *

الفصل العاشر

-١-

فانحت يوارو في الموضوع صباح اليوم التالي فأشرق وجهه
وهز رأسه بتقدير قائلاً: أحسنت يا هيستنغز، لقد تساءلت منى ستري
هنا التشابه ولم أكن أريد توجيه نظرك.

- إذن فأنا على حق، هذه قضية أخرى من قضايا السيد
«س»؟

- بالتأكيد.

- ولكن لماذا يا يوارو؟ ما الدافع؟

هز يوارو رأسه فسأله: ألا تعلم؟ أليست لديك أية فكرة؟
فقال يوارو ببطم: بلى، لدي فكرة.

- هل أدركت الصلة بين جميع تلك القضايا المختلفة؟

- أظن ذلك.

- حسناً، ماذا...؟

ولم أستطع ضبط نفسي فقال: لا يا هيسنغز.

- ولكن يجب أن أعرف.

- من الأفضل أن لا تعرف.

- ولماذا؟

- يجب أن تصدقني عندما أقول ذلك.

- كم أنت عنيد! يُقعدك التهاب المفاصل وتجلس هنا لا حول لك ولا قوة، ولا تزال تحاول اللعب وحده.

- لا تُفنع نفسك بأنني أحاول اللعب وحدي. بالعكس، أنت في الصورة يا هيسنغز. أنت عياني وأذناي، وأنا فقط أرخص إعطاءك معلومات قد تكون خطيرة.

- خطيرة بالنسبة لي؟

- بلى بالنسبة للقاتل.

قلت ببطء: لا تريد أن يشك أنك في أعقابهم؟ أظن أن هذا هو الوضع، وإلا فأنت تظن أنني عاجز عن الاعتناء بنفسي.

- يجب أن تعلم شيئاً واحداً على الأقل يا هيسنغز: الرجل الذي يقتل مرة سوف يقتل مرة أخرى وأخرى وأخرى....

قلت بنعيم: على أية حال لم تقع جريمة أخرى هذه المرة، فهذه الطلقة لم تُصب الهدف.

- نعم، كان هذا من حسن الحظ حتماً، من حسن الحظ بالتأكيد- وكما أخبرتك فهذه الأمور يصعب التنبؤ بها.

ثم تنهد وغطى وجهه تعبيراً قلبي، فأنصرفت بهدوء وقد أدركت بحزن عدم استطاعة بوارو تحمّل أيّ جهد. كان عقله لا يزال قوياً ولكنه أصبح رجلاً مريضاً متعباً.

لقد حذرتني بوارو من محاولة اختراق شخصية الرجل المجهول، ولكنني داخل عقلي كنت لا أزال أتعلق باعتقادي بأنني اخترقت هذه الشخصية. لقد كان هناك شخص واحد خطير بيالي ويقبم في «ستايلز»، هو الشر بعد ذاته، ويسأل بسيط أستطيع التأكد من أمر واحد. ستكون النتيجة سلباً، لكن على الرغم من ذلك فسوف تكون للمحاولة فائدة محدودة.



أمسكت بجوديث بعد الفطور وقلت لها: أين كنت مساء أمس عندما التقيتك أنت والميجور ألبرتون؟

المشكلة أنك عندما تكون مستغرقاً في نقطة معينة فأنت تميل إلى تجاهل النقاط الأخرى، وقد فوجئت عندما صاحبت جوديث بي قائلة: حقاً يا أبي لا أدري ما دخلك في هذا!

حدثت إليها وقد أخذتُ بردها، وقلت: أنا أسأل فقط.

- ولكن لماذا؟ لماذا يجب أن تسأل الأسئلة باستمرار؟ ماذا كنتُ أفعل، أين ذهبتُ، مع من كنتُ... هذا لا يُحتمل!

المضحك في الأمر أنني في هذه المرة لم يكن يهمني أين كانت جوديث بقدر ما كان يهمني أن أعرف أين كان أليرتون. حاولت تهدئتها فقلت: حقاً يا جوديث أنا لا أدري لماذا لا أستطيع أن أسالك سؤالاً بسيطاً.

- وأنا لا أدري لماذا تريد أن تعرف.

- لا أريد بالتحدث، أعني أنني أتعجب فقط. لماذا لم يعرف أي منكما ماذا حدث؟

- أعني بالنسبة للحادث؟ لقد ذهبت إلى القربة - إذا كان لا بد أن تعرف - للحصول على بعض الطوايع.

وركزت على التمييز الشخصي فسألتها: هل كان أليرتون معك آنذاك؟

زفرت جوديث بنضب وقالت: لا، لم يكن.

ثم أضافت بشرة غضب بارد: في الحقيقة التقينا قرب المنزل قبل أن نلتقك بدقيقتين فقط. أرجو أن تكون قد ارتحت الآن، ولكنني أريد أن أقول لك إنني إذا أمضيت اليوم كله مع المبحور أليرتون فهذا من شأني. أنا أبلغ الحادية والعشرين وأعمل وأكسب عيشي، وكيفية قضاء وقتي هو شأني أنا وحدي بالتأكيد.

قلت محاولاً صد الهجوم: بالتأكيد.

فبدت جوديث هادئة وهي تقول: يسعدني أن وافقت.

ومنحتني شبه ابتسامة حزينة وأكملت: أبي العزيز، لا تحاول

أن تبالغ في دور الأب الرزين، أنت لا تعلم كم هذا مشير للغضب،
لو أنك فقط لا تفلح هكذا!

فوعدها قائلاً: لن أفعل هذا في المستقبل.

وفي تلك اللحظة أتى فرانكلين بمشي بسرعة وقال: مرحباً
يا جوديث، هيا بنا، لقد تأخرنا أكثر من اللازم.

كان سلوكه جافاً ولم يكن لطيفاً أبداً، وشعرت بالانزعاج
رغمًا عني، أعلم أن فرانكلين هو رب عمل جوديث وأنه يتحكم في
وقتها، وبما أنه يدفع ثمنه فله الحق في إعطاء الأوامر، لكنني لم أرَ
ما يمنعه من التصرف بلطافة على الرغم من ذلك. لن يستطيع أحد
أن يصف تصرفه بأنه معقول ومهذب، فهو يتصرف مع معظم الناس
بقدر من الأدب الاعتباري، أما مع جوديث، رلا سيما مؤخراً، فقد
كان سلوكه دائماً جافاً واستبدادياً بشكل كبير، فهو بالكاد ينظر إليها
عندما يتحدث ويكتفي بإعطاء الأوامر فقط.

لم يبدُ على جوديث أنها مستاءة من ذلك، ولكنني كنت أشعر
بالاستياء بالنتيجة عنها، وقد خطر ببالي أن هذا كان من سوء الحظ،
خصوصاً وأنه يتعارض بصورة واضحة مع اهتمام أليرون المبالغ
به بها، بلا شك كان فرانكلين أحسن من أليرون بعشر مرات، أما
بالنسبة للموسامة فلا يمكن مقارنته به.

راقبت فرانكلين وهو يمر بمشي عبر الممر إلى المعمل مشية
الخرقاء بينته النحيلة وعظامه البارزة وشعره الأحمر. كان رجل
شعاً صعب المرام ليس له ميزات واضحة، إنه يتنصع بعقل جيد
حقاً، ولكن نادراً ما تُعجب المرأة بالعقل وحده. وفكرت بأسى

بأن جوديث لم تعرف أنواع الرجال من قبل بسبب ظروف عملها، ولذلك أسرها سحر ألبرتون الكاذب ولم تمنح الفرصة لابتني المسكينة لتقييمه ومعرفة على حقيقته.

كان الاستياء الذي أبدته علامة مزعجة ؟ فالبرتون شخص سنيّ حقاً كما أعلم، وربما كان الأمر أسوأ إذا كان ألبرتون هو قاتلنا المجهول. ربما كان كذلك، فهو لم يكن مع جوديث وقت إطلاق النار، ولكن ما هو دافعه لارتكاب هذه الجرائم بلا معنى؟ كنت واثقاً من أن ألبرتون ليس بالرجل المجنون. إنه عاقل ولكنه مجرّد من المبادئ كلياً، وجوديث ابنتي نقابله كثيراً.

-٢-

حتى ذلك الوقت وبالرغم من أنني كنت قلناً على ابنتي قلباً فإن اهتمامي كان موجّهاً نحو السيد «س» واحتمال حدوث جريمة في أي لحظة، ونجحت في إبعاد مشكلاتي الشخصية قليلاً.

والآن وقد وقعت الضربة وحاول أحدهم ارتكاب جريمة، وقد فشلت والحمد لله، فقد أصبحت حراً للتفكير في هذه الأمور، وكلما فكرت بالأمر ازددت قلناً. لقد كشفت لي كلمة سقطت سهواً في أحد الأيام أن ألبرتون كان متزوجاً، وقد أخبرني بويد كارنغتون (الذي كان يعرف الكثير عن الجميع) بالمزيد. كانت زوجة ألبرتون كاثوليكية ملتزمة، وقد تركته بعد فترة قصيرة من زواجها، لكن الطلاق لم يمكن ممكناً بسبب مذهبها. وقال بويد كارنغتون بصراحة: وإذا سألتني فهذا يناسب ذلك الفاسد جيداً. لقد كانت

نواياه ستة دائماً ويتناسب وجود زوجة في خلفيته الاجتماعية.

مرت الأيام التي تلت حادثة إطلاق النار دون ظهور أي أحداث على السطح، ولكن صاحبها شعوراً متزايد بعدم الارتياح من جانبي. وأقصى الكولونيل لانربيل الكثير من وقته في غرفة زوجته، ووصلت ممرضة للعناية بالمريضة وعادت الممرضة كارفن تستأنف تقديم خدماتها للسيدة فرانكلين.

لا أريد أن أكون مشاكساً، ولكن يجب أن أعترف بأنني لاحظت بعض إشارات اتزعاج من جانب السيدة فرانكلين لعدم كونها المريض الوحيد، وبدأ واضحاً أن الاهتمام والقلق اللذين تركّزا على السيدة لانربيل لم يحققا الرضا للسيدة الصغيرة التي اعتادت أن تكون صحتها محور الحديث يومياً.

استلقت في كرسيها الهزاز ويداها على جانبيها، تتنمر من سرعة نبضات قلبها ولا يناسبها أي نوع من الأغذية التي تُقدّم لها، وكل معاناتها محاطة بمنظهر مخادع من الصبر الكاذب. حسست لبوارو بحزن: كم أكره أحداث الجلبه، كم أشعر بالخجل من صحتي البائسة! إنه لأمر مُحزن أن أضطرّ دائماً إلى طلب المساعدة من الناس. أحياناً أظن أن المرض جريمة في الحقيقة... إذا ثم يكن المرء سليماً فهو لا يتناسب هذا العالم ويجب أن يُدفع بهدوء.

قال بوارو بورد وشهامة كمادته: لا يا سيدتي، تحتاج الزهرة الرقيقة إلى بيت زجاجي لحمايتها لأنها لا تستطيع تحمّل الرياح الباردة. إنها تلك الأعشاب العادية التي تعيش في الجو البارد، ولكن لا يُنظر إليها بتقدير لهذا السبب. انظري إلى حالتي: أنا مُقعّد وعاجز

عن الحركة، واكتنني لا أفكر بترك هذه الحياة بل أستمع بما أقدر،
الطعام والشراب ومباهج العقل.

تتهدت السيدة فرانكلين وهمست: لكن الأمر مختلف بالنسبة
لك؛ فليس لديك من ترعاه سوى نفسك، أما في حالتني فيوجد
المسكين جون. أنا أشعر بشدة بأنني عبء على عائقه، مجرد زوجة
مريضة لا فائدة منها، صخرة معيقة يعتمقه.

- أنا متأكد من أنه لم يقل ذلك عنك قط.

- نعم، هو لم يقل ذلك، لكن الرجال شقاقون جداً يا عزيزي
بوارو، وجون ليس ماهرأ في إخفاء مشاعره. إنه لا يقصد أن يكون
قاسياً بالطبع ولكنه رجل بليد الأحاسيس والمشاعر، وبما أنه لا
يمتلك الشاعر فإنه يفترض أن غيره لا يمتلكها. إنه لمحفوظ لأنه
وُلد عديم الإحساس.

- لا يمكنني وصف الدكتور فرانكلين بأنه عديم الإحساس.

- لا يمكنك ذلك، ولكنك لا تعرفه كما أعرفه أنا. بالطبع
أعلم أنه سيكون طليقاً دوني. أحياناً أشعر بالاكئاب الشديد بحيث
أفكر كم سيكون مريحاً أن ينتهي كل هذا.

قال بوارو: على وسلك يا سيدتي!

لكنها تابعت قائلة: ما نقعي لأي إنسان؟ الخروج من ذلك كله
إلى المجهول.

وهزت رأسها وأضافت: وعندها سيكون جون حراً.



عندما أعدتُ ما حدث على مسمع الممرضة كارفن قالت:
هراء، إنها لن تفعل شيئاً من هذا القليل. لا تقلق يا كابتن هيرستغز
أولئك الذين يتحدثون عن الانتحار بصوت مسموع لا ينوون فعل
أي شيء أبداً.

ويجب أن أقول إنه وما إن زالت الإثارة التي سببتها إصابة
السيدة لانريل وعادت الممرضة كارفن لتكون في الخدمة حتى
تحسنت معنويات السيدة فرانكلين كثيراً.

وفي صباح أحد الأيام المشرقة صاق كيرنس بوارو إلى زاوية
تحت أشجار الدّراق قرب المختبر. كانت تلك بقعته المفضلة حيث
كانت محمية من الرياح الشرقية، وفي الواقع فأنت بالكاد تشعر بأي
نسمة هناك، وكان هذا يناسب بوارو الذي يكره مجرى الهواء ويشكو
دائماً من الهواء النقي. وفي الواقع أظن أنه يفضل البقاء داخلًا،
ولكنه تعود احتمال الهواء الخارجي إذا تم لفه بالأغطية جيداً.

مشيت لكي أنضم إليه، وما إن وصلت إليه حتى كانت السيدة
فرانكلين قد خرجت من المختبر. كانت مرتدية ثيابها بشكل جذاب
وبدت مرحة جداً، وأوضحت أنها ستذهب مع بويد كارنغتون لرؤية
منزله ولتعطيه تصالحها الخبيرة في اختيار الأقمشة، وشرحت لنا
قائلة: لقد نسيتُ حقيقتي في المختبر بالأمس عندما كنت أتحدث
مع جون. يا للمسكين جون! لقد ذهب هو وجوديث إلى نادكاستر
لإحضار بعض الكواشف الكيميائية أو أشياء من هذا القبيل.

غرقت في مقعدها بالقرب من بوارو وهزت رأسها بتعبير
مضحك قائلة: يا لعزيزي المسكين! كم أنا سعيدة لأنني لا أملك

عقلاً عذسياً، ففي يوم لطيف مثل هذا يبدو ذلك كله صبيانياً.

قال بوارو: لا ندعي العلماء يسمعونك وأنت تقولين ذلك
يا سيدتي.

- بالطبع لن أفعل.

ثم تغير وجهها فأصبح جاناً وقالت بهدوء: لا تظن أنني غير
معجبة بزوجي يا سيد بوارو، بل أنا معجبة به وأظن أن طريقته في
تكريس حياته لعمله أمر رائع في الحقيقة.

بدا في صوتها ارتعاش بسيط، وشككتُ في أن السيدة
فرانكلين تحب أن تلعب أدواراً عدة؛ فهي تلعب في هذه اللحظة
دور الزوجة المخلصة التي تمجد زوجها البطل. واتكأت إلى الأمام
واضعة كفيها على ركبة بوارو وهي تقول: جون يبلغ في إنكار ذاته
في الحقيقة، وهذا الأمر يخيفني أحياناً.

أحسست أن في قولها مبالغة، لكنها تابعت وعيناها تشعان:
فرانكلين مستعد لفعل أي شيء، إنه يصنع أي شيء ليزيد من قدر
المعرفة البشرية! وهذا أمر جميل، ألا تظن ذلك؟

قال بوارو بسرعة: بالتأكيد، بالتأكيد يا سيدتي.

وتابعت السيدة فرانكلين: ولكنني أحس بالغضب تجاهه
أحياناً، أعني بسبب الحدى الذي يذهب إليه. هذه المادة المريعة
التي يُجري تجاربه عليها... أخشى أن يبدأ التجربة بها على نفسه
ذات يوم.

فقلتُ: سوف يأخذ كافة الاحتياطات بالتأكيد.

هزّت رأسها بإبتسامة حزينة وقالت: أنت لا تعرف جون، هل سمعت قط عما فعل بهذا الغاز الجديد؟

هزّت رأسي نفياً فقالت موضحة: كان ذلك نوعاً جديداً من الغاز أرادوا التعرف إلى خواصه فتطوَّح جون لاختباره، فأغلق عليه في خزان لمدة ست وثلاثين ساعة تقريباً حيث تم قياس نبضه وحرارته وتنفسه. كانت مخاطرة مخيفة كما أخبرني أحد الأساندة لاحقاً؛ فقد كان من المحتمل أن يموت! ولكن جون من ذلك النوع من الرجال الذي يتناسى سلامته دائماً. أظن أنه من الرائع أن يكون المرء هكذا، ألا تظن ذلك؟ لا أظن أنني سأكون شجاعة بما فيه الكفاية.

قال بوارو: في الواقع إنها لشجاعة نادرة أن يصنع المرء مثل هذه الأمور بأعصاب باردة.

فقلت باربرا فرانكلين: نعم، هو كذلك، وأنا فخورة جداً به كما تعلم. ولكن هذا يجعلني أشعر بالغضب في الوقت نفسه، لمحيوانات التجارب لا تصلح بعد مرحلة معينة حيث تصبح الحاجة ملحة إلى رد فعل إنساني، ولذلك أشعر بالخوف من أن يقوم جون بإعطاء نفسه جرعة من تلك الحبوب فيحدث له أمر سيئ.

في تلك اللحظة قدم بويد كارنغتون نحونا قائلاً: مرحباً بابس، هل أنت مستعدة؟

- نعم يا بيل، وأنا في انتظارك.

الفصل الحادي عشر

أظن أن ذلك كان في صباح اليوم التالي قبل الغداء عندما جرت المحادثة التي تركتني قلقاً بشكل غامض. كنا أربعة: جوديث وأنا وبويد كارنغتون ونورتون. لا أدري كيف بدأ الموضوع بالضبط، ولكننا كنا نتحدث في موضوع «القتل رافة بالمريض» ونذكر ما له وما عليه، وكالعادة قام بويد كارنغتون بمعظم الحديث في حين قال نورتون كلمة هنا وكلمة هناك وجوديث نجلس بصمت ولكن بانتباه.

اعترفت بأنه رغم وجود كافة الأسباب لتأييد هذا العمل ظاهرياً إلا أنني أشعر بالنفور منه في الحقيقة، وبالإضافة إلى ذلك فأنا أظنه يعطي المزيد من القوة لأقارب المريض. وأيّدني نورتون وأضاف أنه يظن أن من الواجب أخذ موافقة المريض نفسه قبل الإقدام على هذا العمل عندما يكون الموت مؤكداً بعد معاناة طويلة الأمد. وقال بويد كارنغتون: ولكن هذا هو الأمر الغريب. هل يمتنى الشخص صاحب الشأن أن يقتل نفسه لبضع حداثاً لآلامه كما نقول؟!

ودوى لنا قصة (قال إنها حقيقية) عن رجل يعاني من ألم فظيع جراء مرضه بالسرطان الذي لا يمكن استئصاله، وقد توسل ذلك الرجل إلى طبيبه أن يعطيه شيئاً يُنتهي ذلك كله، لكن الطبيب قال له:

"لا أستطيع عمل ذلك أيها العجوز". وعندما كان الطبيب متعادلاً ترك بالقرب من المريض بعض جبوب المورفين وأخبره كم عدد الحيات التي يمكنه تناولها بأمان وكم هي الجرعة التي ستكون خطيرة. وعلى الرغم من أن تلك الحبوب تُركت بين يدي المريض وأنه كان بإمكانه أخذ الكمية الفائضة بسهولة إلا أنه لم يفعل، وهذا يثبت أنه قد نُفِّلَ المعاناة على الموت السريع الرحيم بالرغم من كلماته.

وللمرة الأولى تكلمت جوديث فجأة وبغوة قائلة: بالطبع سوف يتصرف هكذا؛ لم يكن من الواجب أن يُترك الأمر له ليقرر.

سألها بويد كارنغتون عما عنته بذلك فقالت: أعني أن أي شخص ضعيف بسبب المرض والألم لا يملك القوة لاتخاذ قرار. ليس بإمكانهم ذلك، بل يجب أن يتخذ شخص ما القرار نيابة عنهم، هذا من واجب الشخص الذي يحميم.

سألتها بسرعة: واجب؟

فقالت وكأنها نهاجمني: نعم، واجب، تلك مسؤولية الشخص ذي العقل السليم الواضح.

هز بويد كارنغتون رأسه قاتلاً: يُنتهي به الأمر في السجن منهماً بالقتل؟

- ليس بالضرورة. وعلى أي حال إن أنت أحببت شخصاً ما فسوف تتجاوز بالأمر.

قال نورتون: لحظة واحدة يا جوديث، إن ما تقترحينه مسؤولية كبيرة.

- لا أعتقد ذلك، فالتاس يخشون تحمل المسؤولية. يمكنهم تحمل مسؤولية كلب فلماذا لا يتحملون مسؤولية إنسان؟

- هذا مختلف، أليس كذلك؟

- بلى، بل هو أكثر أهمية.

غمغم نورتون: أنت تخيفتي.

وسألها بويد كارنغتون بفضول: إذن فأنت على استعداد لتحمل المخاطر، أليس كذلك؟

- أظن ذلك، أنا لا أخشى المخاطرة.

هز بويد كارنغتون رأسه وقال: هذا لا يصلح كما تعلمين؛ لا يمكن السماح للناس هنا وهناك وفي كل مكان بأن يقرروا في أمور الحياة والموت.

قال نورتون: في الحقيقة فإن معظم الناس لا يملكون الجرأة لتحمل المسؤولية كما تعلم يا بويد كارنغتون.

وابتسم بلطف وهو ينظر إلى جوديث وأكمل: لا أظن أنه بإمكانك فعل ذلك إذا وُضِعَتْ على المحك.

قالت جوديث بتأثر: بالطبع لا يمكن للمرء التأكد من ذلك، لكن أظن أنني سأكون قادرة على فعل هذا الأمر.

فقال نورتون وقد اهتزت عيناؤه قليلاً: ربما استطعت لو كنت طرقات في حالة مشابهة.

احمر وجه جوديث وقالت بحدة: هذا يثبت أنك لا تفهم الأمر أبداً. إذا كان لدي دافع شخصي فلن أستطيع عمل شيء، ألا ترى؟

ثم توجهت إلينا جميعاً وأكملت: يجب أن يكون الأمر غير شخصي. يمكنك أن تتحمل مسؤولية إنهاء الحياة إذا كنت متأكداً من دوافعك، يجب أن يكون الأمر غير أناني.

قال نورتون: بغض النظر فلن تفعل ذلك.

فقالت بإصرار: بل أستطيع، فأولاً أنا لا أعتبر الحياة بالأهمية التي ترونها جميعاً، فالحياة السقيمة وغير المفيدة يجب إزالتها من الطريق. فقط أولئك الذين يُسهمون في خدمة المجتمع هم الذين يجب أن يُسمع لهم بالحياة، أما الآخرون فيجب إزالتهم بطريقة غير مؤلمة.

ثم نفرت إلى بويد كارنغتون فجأة وقالت: أنت تتفق معي، أليس كذلك؟

فقال ببطء: من ناحية المبدأ أوافقك؟ فلا ينبغي أن يعيش سوى الأشخاص النافعين.

- ألن تأخذ القانون بيدك وتطبقه إذا اقتضى الأمر؟

قال بويد كارنغتون ببطء: ربما صنعت ذلك، لا أدري.

وقال نورتون ببطء: كثير من الناس يوافقون معك نظرياً لكن التطبيق أمر مختلف، فهذا غير منطقي.

ثم تابع وقد نفذ صبره: بالطبع ليس منطقياً، تلك هي الحقيقة مسألة شجاعة. دعيني أصفها لك بصراحة: لا يملك المرء الجرأة على هذا.

صمتت جوديث وتابع نورتون قائلاً: في الواقع يا جوديث وكما تعلمين: لن يكون الوضع مختلفاً بالنسبة لك، لا نستطيع الشجاعة عندما نضعين في تجربة حقيقية.

- هل ترى ذلك؟

- أنا متأكد من ذلك.

قال بويد كارنغتون: أظن أنك مخطئ يا نورتون، أظن أن جوديث تعتكك شجاعة هائلة، ولحسن الحظ فالعسالة غير واردة الآن.

ومسمعا صوت جرس الطعام آتياً من المنزل، فنهضت جوديث وقالت بوضوح لنورتون: أنت مخطئ؟ نانا أم لك من الجرأة أكثر مما تظن.

ومضت بسرعة نحو المنزل فلقحت بها بويد كارنغتون قائلاً: انتظري يا جوديث.

تبعهم وأنا أشعر بالقلق لسبب ما، ولأن نورتون شعر بمزاجي فقد حاول مواساتي فقال: جوديث لا تعني ذلك كما تعلم، هذه مجرد أفكار غير مدروسة يمتلكها الفرد في شبابه، ولكنه لا ينفذها لحسن الحظ ويبقى الأمر مجرد كلام.

أظن أن جوديث سمعنا لأنها ومثنتا بنظرة غاضبة من فوق
كتفها، فخفض نورثون صوته وقال: النظريات لا تُغلق أي شخص،
ولكن...

- ماذا؟

بدا نورثون محزناً وقال: لا أريد التدخل، ولكن ماذا تعرف
عن أليرون؟

- أليرون؟

- نعم، عذراً إذ كنت فضولياً لكن لو كنتُ مكانك لما سمحت
لابتني بأن تراه كثيراً. إنه... حسناً، ليست سمعته حسنة.

نقلت بمرارة: أنا أعرف نوعيته تماماً، ولكن الأمر ليس سهلاً
هذه الأيام.

- آه، أعلم، تستطيع الفتيات الاعئناء بأنفسهن كما يقلن،
ومعظمهن يمكنهن ذلك أيضاً، ولكن... حسناً، أليرون يمتلك
أسلوباً خاصاً في هذا المجال.

وتردد قليلاً ثم قال: أشعر بأنه يجب عليّ أن أخبرك. لا تسمح
للأمر بالتطور بالطبع، ولكنني أعرف شيئاً سيئاً عنه.

وأخبرني فوراً، واستطعت التأكد لاحقاً من كل كلمة قالها.
كانت رواية تثير الاهتمام؛ قصة فتاة عصرية وثقة من نفسها
ومستقلة استعمل أليرون كافة أساليبه للإيقاع بها، ولاحقاً أتى
الجانب الآخر من الصورة، وانتهت القصة بأن فضت الفتاة البائسة

على حياتها بتناول جرعة مضاعفة من حبوب الفيرونال المنومة. كان
الجزء المخيف أن الفتاة المفضولة كانت من نفس نوعية جوديث،
النوع المستقل المتقن، ذلك النوع من الفتيات اللاتي يحببن -إذا
أحببن- بحماسة لا تعرفها الفتيات من النوع السخيف الخليع.

وذهبت إلى الغداء براودني إحساس فظيع بأن مصيبة ستحدث.

* * *

الفصل الثاني عشر

-١-

سألني يوارو ذلك المساء: أليوجد ما يقلقك يا صديقي؟

ولم أجب بل اكتفيت بهز رأسي، وشعرتُ بأنني لا أملك الحق في إرهاب يوارو بمشكلتي الشخصية المعضلة، وعلى أية حال لم يكن باستطاعته مساعدتي؟ كانت جوديث ستقابل أي اعتراض من جانبها باهتمامه تعكس تحيز الشباب ضد تصانيع الكبار المعلة.

من الصعب الآن أن أصف ما مررت به ذلك اليوم، ولكن بعدما فكرت في الأمر لاحقاً وجدت نفسي مضطراً إلى إعادة السبب إلى جز «ستايلز» نفسه، حيث تسيطر الأفكار الشريرة على العقل بسهولة. لم يكن ذلك بسبب الماضي فقط، بل والحاضر القاسم أيضاً... فلال المجرم والجريمة تلاحق هذا المنزل! وبعثادي فإن القاتل هو أليرتون، وقد وقعت جوديث في شباكه. كان ذلك أمراً يصعب تصديقه، أمراً رهيباً، ولم أدري ماذا أفعل!

* * *

بعد الغداء أخذني بويد كارتغتون جانباً، وقد نردّد وتلثم في كلامه قبل أن يدخل في الموضوع، وأخيراً قال بنشجع: لا تظن أنني أتدخل، ولكن أظن أنه يجب عليك التحدث. هل حدثت ابتك؟ أنت تعرف هذا الشخص أليرتون، إن سمعته سيئة جداً، وهي... حسناً، يبدو ذلك شيئاً بغضة سمعتها...

من السهل بالنسبة لهؤلاء الرجال الذين ليس لديهم أولاد التحدث هكذا. أحذرهما؟ هل سيؤيد تحذيري أم أنه سوف يزيد الأمور سوءاً؟

لو أن زوجتي كانت هنا لعرفت كيف تتصرف! وأردت أن ألزم الصمت وأن لا أنفقه بشيء، لكنني فكرت بعد فترة بأن هذا نوع من الجبن والتهرب، ونفرت من فكرة بغضة هي التحدث حديثاً صريحاً مع جوديث؛ لقد كنت خائفاً من ابنتي الجميلة!

أخذت أذرع الحديقة جيئة وذهاباً وفي كل مرة يزداد قلقي، وقادّنتي فذمائي إلى حديقة الأزهار حيث خرج الأمر من يدي، فقد كانت جوديث تجلس وحدها على المقعد، ولم أر من قبل في حياتي كلها مثل هذا الحزن العميق على وجه أية امرأة!

سقط الفناع وظهرت مكانه الحيرة والنعاسة بوضوح، فاستجمعت شجاعتي وذهبت إليها، ولم تسمحني إلا عندما صرت إلى جانبها. فذلت لها: جوديث، بالله عليك لا تقلقي هكذا.

التفتت نحوي وقد فرجت وقالت: أيي، لم أسمع صوت اقترابك!

تابعت وأنا أعلم مبلغ الخطر فيما أقول: آه يا طفلاتي الحزيرة! لا نظني أنني لا أعرف أو أنني لا أرى. إنه لا يستحق ذلك، صدقيني، لا يستحق ذلك.

التفت وجهها النعس نحوي ثم قالت بهدوء: أعتقد حقاً أنك تدرك عمّ تحدثت؟

- أنا أعلم، أنت تهتمين بذلك الرجل، ولكن هذا لن يفيد يا عزيزتي.

ابتسعت ابتسامة حزينة تحطم القلب ثم قالت: لعلني أعرف هذا كما تعرفه أنت.

- أنت لا تعلمين، آه يا جوديث! ماذا مستقيدين من ذلك كله؟ إنه رجل متزوج ولا مستقبل أمامك معه، بل الحزن والخجل، وسيتهي الأمر كله بأن تكرهي نفسك وتحتقرها.

استسعت ابتسامتها وازدادت أسى وهي تقول: أنت تتكلم بطلاقة، اليس كذلك؟

- فلننسبه يا جوديث، تخلي عن الأمر كله.

- لا.

- هذا الرجل لا يستحق ذلك يا عزيزتي.

قالت بهدوء وبطء: إنه يعني كل شيء في العالم بالنسبة لي.

- لا، لا يا جوديث، أوجوك!

فاختقت إبتسامتها والفتت نحوي مثل امرأة حاقدة تريد الانتقام وقالت: كيف تجرؤ؟ كيف تجرؤ على التدخل؟ لن أقبل بهذا. أنت لن تتحدث معي في هذه الموضوع مرة أخرى! هذا الأمر لا يخصك فهذه حياتي الخاصة، سري في هذه الحياة.

ثم نهضت ودفعني جانباً بيد ثابتة قوية ونجارزني، وبقيت جامداً أحرق إليها بقلبي.

-٢-

مضت ربع ساعة وأنا ما أزال جامداً في موضعي مدهوشاً عاجزاً عن التفكير في خطوتي التالية، وكنت كذلك حينما عثر عليّ نورتون وإليزابيث كول. ولا بد أنهما لاحظا ما بي من الاضطراب الذهني، ولكنهما كانا ليقيين فلم يشيرا ولو بإشارة بسيطة إلى حالتي الذهنية تلك، وبدلاً من ذلك فقد أخذاني معهما للتجول.

كان كلاهما من محبي الطبيعة، وأشارت إليزابيث إلى وردة برية وأراني نورتون بعض الطيور بواسطة منظاره، وكان حديثهما رقيقاً لطيفاً يدور حول الطيور والأزهار البرية، وعدت شيئاً فشيئاً إلى حالتي الطبيعية ولكنني كنت لا أزال في حالة من الاضطراب الشديد في داخلي. والأكثر من ذلك أنني (وكما يحدث لمعظم الناس) كنت مقتنعا بأن أي أمر سيحدث سوف يكون مرتبطاً بحالة الارتياب التي أعاني منها.

هتف نورتون ومنظاره على عيني: مرحي، يبدو أن هذا نقار الخشب، في جباتي لم...

ثم توقف فجأة عن حديثه فشككت فوراً في الأمر، ومددت يدي طالباً المنظار وقلت: دعني انظر.

فأخذ نورتون يعث بمنظاره ثم قال بصوت غريب متردد: أنا... لقد أخطأت، لقد طار. كان طائراً عادياً في الحقيقة.

كان وجهه شاحباً مضطرباً وتجنب النظر إلينا وبدأ متضامناً، وحتى الآن فأنا لا أظن بأنني كنت غير منطقي في استنتاجي بأنه قد شاهد شيئاً بمنظاره وأنه كان مصراً على منعي من مشاهدته. ومهما كان ذلك الذي شاهده فقد أدهشه بشدة، وقد بدا ذلك واضحاً لكليتنا.

كان منظاره موجهاً نحو شريط عميد من الغاية، فماذا رأى هناك؟

قلت بحزم: "هات المنظار"، وخطفته منه. وأتذكر أنه قد حاول منعي من أخذه، ولكنه فعل ذلك بشكل أخرق فأخذته بجفاه، فقال نورتون بضعف: لم يكن ذلك حقاً، أعني أن الطائر قد اختفى، أنهى...

وبينما كانت يداي ترتجفان قليلاً عدلت المنظار ليناسب عيني. كانت عدسته قوية، ووجهته بقدر المستطاع إلى البقعة التي اعتقدت بأن نورتون كان ينظر إليها ولكنني لم أَر شيئاً، مجرد ومضة من البياض تختفي بين الأشجار. وأنزلت المنظار، ودون أية كلمة أعدته إلى نورتون.

بدا نورتون قلقاً ومربكاً ولم ينظر إلى عيني، ثم عدنا إلى

المنزّل جميعاً، وأذكر أنّ نورتون بقي صامتاً طوال الطريق.

أمر ما.

-٣-

عاد بويد كارنغتون والسيدة فرانكلين بعد وقت قصير من عودتنا إلى المنزل. كان قد أخذها بسيارته إلى تادكاسر لأنها أرادت التسوق، وقد تموّقت جيداً - فيما يبدو - لأنها أخرجت العديد من المشتريات من السيارة، ويدت مقمعة بالحويّة والنشاط وتحدثت وتضحك وقد عادت التضارة إلى وجهها. أرسلت بويد كارنغتون إلى الأعلى وهو يحمل الحقائب التي تحتوي على البضائع سهلة الكسر، وقد حملت أنا البضائع الأخرى بسهولة.

كان حديثها أكثر سرعة وعصبية من المعتاد، قالت: الجو شديد الحرارة، أليس كذلك؟ أظن أن عاصفة سهب، أرجو أن يعتدل هذا الطقس قريباً - يقولون - كما تعلم - إن في العباء نقصاً، هذا أسوأ جفاف يحدث منذ سنين.

ثم نابتعت وقد التفتت نحو إليزابيث كول: ماذا كنت تفعلين بنفسك؟ أين جون؟ آه، لقد قال إنه يعاني من صداع وأنه سوف يذهب للشمسي لكي يرتاح منه. ليس من عادته أن يعاني من الصداع، أظن أنه قلق على نجاحه، يبدو وكأنها لا تسير كما ينبغي... كم اتعنى لو أنه يحدثني عن هذه المواضيع أكثر.

ونوقشت هبة ثم تحدثت مخاطبة نورتون: أنت صامت يا سيد نورتون، ما الأمر؟ تبدو خائفاً، أرجو أنك لم تَرَ شيخ السيدة العجوز أبداً كانت؟

جفل نورتون وقال: أنا لم أر أيّ شيخ، فقط كنت أفكر في

وفي تلك اللحظة دخل كيرنس عبر الباب وهو يدفع بوارو على كرسيه، وتوقف بالكرسي في القاعة تمهيداً لإخراج سيده منه وحمله إلى الأعلى. ونقل بوارو بيصره بيتنا وبدت عيناه يقظتين فجأة وفال بحدّة: ما الأمر؟ هل من مشكلة؟

ولم يجب أيّ منّا للحظة، ثم ضحكّت السيدة فرانكلين ضحكة مصطنعة فائلة: بالطبع لا، ماذا يمكن أن يحدث؟ لعل عاصفة رعدية ستثور، هذا كل ما في الأمر. يا الهي، أنا متعبة جداً. لعلك تفضل بجلب هذه الأغراض إلى الأعلى يا كابتن هيسنتز؟ شكراً جزيلاً.

وتبعثها على الدرج ثم عبر الجناح الشرقي حيث كانت غرفها الأخيرة في ذلك الجناح، وفتحت السيدة فرانكلين الباب وكنت خلفها ويديّ ممتلئتان بما اشترته، وتوقفت فجأة عند عتبة الباب. كانت الممرضة كارفن تتفحص يد بويد كارنغتون عند النافذة، فنظر نحونا وضحك بارتباك قائلاً: مرحباً، أنا أحاول معرفة حظي الممرضة كارفن تقرأ الحظ.

- حقاً؟ لم أعرف ذلك.

كان صوت باربرا فرانكلين حاداً، ولم تكن لديّ أية فكرة بأنها كانت متضايقاً من الممرضة كارفن. قالت لها: أرجو أن تأخذي هذه الأشياء من فضلك أيتها الممرضة، وإذا أمكن أعدي لي شراب

البهس وزجاجة ماء حار. أنا أشعر بالثعب الشديد وسأذهب إلى
الفراش بأسرع ما يمكن.

- بالتأكيد يا سيدة فرانكلين.

باشرت الممرضة كارقن عملها دون أن تظهر أي شيء باستثناء
الاهتمام المهني. وقالت السيدة فرانكلين: أرجو أن تذهب يا بيل،
أنا نعمة جداً.

وبدا بوييد كارتنتون قلقاً جداً وهو يقول: يا إلهي يا بابس!
هل أنعمت كثيراً؟ أنا آسف. كم كنت غيباً وأناثياً! ما كان ينبغي أن
أدعك تزهقين نفسك.

فوجهت له السيدة فرانكلين انتسامة ملائكية عذبة وهي تقول:
لا أرغب أن أقول أي شيء، فانا أكره أن أكون مملة.

وخرجنا من الغرفة خجولين وتركنا المرأتين معاً. قال بريد
كارتنتون بنادم: كم كنت غيباً! لقد بدت باربرا مشوقة ومرحة بحيث
نسيت كل شيء عن وجوب عدم إرهاقها. أرجو أن لا تكون قد
أرهقت نفسها كثيراً.

قلت تلقائياً: أعتقد أنها ستكون على ما يرام بعد أن ترتاح
وتنام.

نزل هو إلى الطابق السفلي في حين ترددت أنا ثم ذهبت
إلى الجناح الآخر حيث توجد غرفتي وغرفة بوارو. كان صديقي
الضئيل ينتظرنني، وللمرة الأولى كنت متردداً في الذهاب إليه. كان
لدي الكثير مما يشغل بالي وكنت ما زلت أعاني من ذلك الشعور

بالمرض في أعماق معدتي. مشيت عبر الممر ببطء، ومن غرفة
اليرنون سمعت بعض الأصوات. لم أكن أنوي استراق السمع على
الرغم من أنني توقفت تلقائياً للحظة خارج باب غرفته، ثم لجأة فُتح
الباب وخرجت ابنتي جوديث!

وتجمدت عندما رأيته فأمسكتها من ذراعها ودفعتها بقوة
إلى غرفتي. لقد أصبت فجأة بالغضب الشديد فقلت لها: ما معنى
دخولك إلى غرفة هذا الشخص؟

نظرت إليّ بشتات ولم يظهر عليها الغضب بل البرود النام
فقط، ولثواني عدة لم تجب عن سؤالتي، فهزأتها من ذراعها قائلاً:
لن أسمع بذلك، لقد أخبرتك، أنت لا تدرين ماذا تفعلين.

وعندما قالت بصوت منخفض جارح: أعلن أن لك عقلاً
شكاكاً.

- لا أعلن ذلك، هذا هو ما يحب جيلكم اتهام جيلي به. على
الأقل لدينا مبادئ. افهمي هذا جيداً يا جوديث، أنا أملك بشكل
قاطع من أن يكون لك أبة صلة بهذا الرجل بعد الآن.

نظرت إليّ يهدوء وقالت: حسناً، إذن فهذا هو الأمر.

- هل تتكرين أنك تحبينه؟

- لا.

- ولكنك لا تعلمين أي نوع من الأشخاص هو، ليس
باستطاعتك أن تعرفي ذلك.

ويتعمد ودون أي تهذيب وتتميق للكلامي أعدت على مسامعها
القصة التي سمعتها عن أليوتون، وعندما انتهت قلت: أترين الآن
أي إنسان سيبن متوحش هو؟

- أؤكد لك أنني لم أظن يوماً أنه قد يس.

- ألا يغير هذا شيئاً بالنسبة لك؟ لا يمكن أن تكوني فاسدة إلى
هذا الحد يا جوديث!

- يمكنك تسميتي هكذا إن أردت.

- جوديث، أنت لم... أنت لا..

لم أستطع التعبير عن أفكاري بالكلمات، وانتزعت يدها من
يدي التي احتجرتها وقالت: والآن اسمع يا أبي، أنا أفعل ما أريد
ولا يمكنك التحكم بي، ولن تفيد المقسوة. سألتصرف في حياتي كما
أشاء ولن تستطيع إيقافني.

وخلال لحظة كانت قد غرقت من الغرفة، ولاحظت أن
ركبتي كانتا ترتجفان فجلست على أحد المقاعد. كان الأمر أسوأ
مما تصورت بكثير؛ كانت مفتونة به كلياً، ولم أعرف أحداً أستطيع
التوجه إليه سوى أمها؛ المخلوق الوحيد الذي كانت تستمع إليه.

لكن أمها ماتت والأمر كله يعتمد عليّ، آه، لا أظن أنني
عانيت قط مثلما عانيت في تلك اللحظات القاسية.

-2-

بعد ذلك نهضت فسلت وجهي وحلقت ذقني وغيّرت

ملابسي ثم نزلت لتناول العشاء، وتصرفت -على ما أظن- بصورة
طبيعية، ولا يبدو أن أحداً قد لاحظ أي شيء.

لاحظت مرة أو اثنتين أن جوديث دميتي بنظرة فضولية. أظن
أنها كانت محتارة من كيفية استطاعتي التصرف بصورة طبيعية،
ولكنني صممت في قرارة نفسي على تنفيذ خطة ما، وكان كل ما
أحتاج إليه هو الشجاعة والذكاء.

بعد العشاء خرجنا جميعاً ننأمل السماء، وتحدثنا عن الطقس
وتبيناً بعاصف رعدية ممطرة، ولاحظت بطرف عيني أن جوديث
اختفت عن أنظارني عند زاوية المنزل ثم مشى أليوتون بسرعة في
الاتجاه نفسه. أنهيت ما كنت أقوله لبويد كارتون ومشيت أنا نفسي
في ذلك الاتجاه، وحاول نورتون إيقافني فأمسك بذراعي واقترح
عليّ أن نتمشى إلى حديقة الأزهار، لكنني لم أعره انتباهاً، وكان
لا يزال معي عندما انعطفت عند زاوية المنزل.

ولقد كانا هناك. رأيت جوديث ورأيت أليوتون ينحن نحوها
ورأيت كيف أخذها بين ذراعيه... ثم تابعا بسرعة، وتقدمت خطوة
إلى الأمام فجذبني نورتون إلى الخلف عبر الزاوية مستخدماً قوته
البديلة وقال: اسمعني، لا يمكنك...

فقاطعت قائلاً بحف: بل أستطيع، وسأفعل.

- هذا لن يقيد يا صديقي العزيز. أعلم أن الأمر مؤلم ولكن
-في النهاية- لا يمكنك فعل شيء.

لقدت بالصمت، وربما ظن نورتون أن الوضع كذلك ولكنني

أعرف أكثر منه، ثم تابع: أنا أعلم معنى أن يشعر المرء بالقتب
وعدم الفائدة، ولكن كل ما يمكنك فعله هو الاعتراف بالهزيمة.
تقبلها يا صديقي.

ولم أعارضه بل تركت له فرصة الكلام، ثم توجهت نحو زاوية
المزول مرة أخرى. كنا قد اختفيا ولكن كانت لدي فكرة واضحة
عن مكانهما، فقد كان هناك منزل صيني غير بعيد تخفيه مجموعة
من أشجار الليلك. اتجهت في ذلك الاتجاه، وأظن أن نورتون كان
لا يزال معي ولكنني نسيت وألقا من ذلك.

ما إن اقتربت حتى سمعت أصواتاً فوقفت، وكان ذلك الذي
سمعته هو صوت ألبرتون وهو يقول: حسناً يا فتاتي العزيزة، لقد
تمت تسوية الأمر فلا تعترضني. متذهبين إلى المدينة قداً، أما أنا
فسأقول إنني سأذهب إلى إسبوش لأقيم مع صديقي لمدة ليلة أو
اثنتين، وسترفين من لندن بأنك لا تستطيعين العودة. من سيعلم
بالعشاء الساحر في شقتي؟ أعدك بأنك لن تندمي أبداً.

شعرت بنورتون يجذبي بعيداً، ولجأة التفت بخسوع وكذبت
أخضحك من منظر وجهه القلق، وسمحت له بجري إلى المنزل
مظاهراً بالاستسلام لأنني أدركت في تلك اللحظة ما كان يجب علي
عمله. قلت له بوضوح: لا تقلق يا صديقي، أنا أرى الآن بأنه لا فائدة،
لا يستطيع المرء التحكم في حياة أبنائه، لقد انتهت من ذلك.

وقد بدا مرناً جداً، ثم أخبرته بعد وقت قصير بأنني سوف
أتوجه إلى الفرائش مبكراً وتعددت بأنني أعاني من صداع بسيط، ولم
يشك قط فيما كنت أتوي فعله.

وقفت لبرهة في الممر الذي بدا هادئاً جداً وليس فيه أحد؛
فنورتون (الذي تقع غرفته في هذا الجانب) بقي في الطابق السفلي،
وكانت إليزابيث كول هناك أيضاً تلعب البريدج، أما كيرس فلا بد
أنه كان يتناول العشاء. كان المكان كله تحت تصرفي.

أقربت نفسي مفكراً أن سنوات عملي مع بوارو لم تضع
هباءً، فقد عرفت ما هي الاحتياطات الواجب اتخاذها تماماً، لن
يقابل ألبرتون جوديث في لندن غداً، لن يذهب ألبرتون إلى أي
مكان غداً.

كان الأمر في غاية السهولة؛ ذهبت إلى غرفتي والتفتحت علبة
الأسبرين، ثم ذهبت إلى غرفة ألبرتون ثم إلى حقيمتها. كانت الحبوب
المنومة في الخزانة... ثمان حبات منها يمكن أن نفي بالغرض.
واحدة أو اثنتان هي الجرعة الآمنة، لذلك لا بد أن ثمانياً كمية
كبيرة، وألبرتون نفسه قال إن الجرعة السامة ليست عالية، وقرأت
النشرة التي كان مكتوباً فيها: «من الخطورة تجاوز الجرعة الموصوفة
من قبل الطبيب»، ثم ابتسمت لنفسي.

لقد بقيت يدي بمتديل حريري وفحت الزجاجات بحذر؛ يجب
أن لا يجر على بصماتي، أفرغت الحبات التي كانت في نفس حجم
حبوب الأسبرين تقريباً، ووضعت ثمان حبات أسبرين في الزجاجات
ثم ملأتها بالحبوب المنومة مرة أخرى بعدما احتفظت بثمان منها.
لقد بدت الزجاجات الآن كما كانت قبل أن أخذ منها الحبوب ولن
يلحظ ألبرتون الفرق.

عدت إلى غرفتي حيث كنت أحفظ بزجاجة من عصير
البرتقال وأخرجت كأسين. لن يرفض ألبرتون كأساً من العصير لي
هذا الجو الحار!

أذبت بعض الحبوب في قليل من العصير لوجدت أنها تذوب
بسرعة، ونذفت المزيج بحذر شديد، ربما كان فيه بعض المرارة
لكن بالكاد يمكن ملاحظتها. أعددت خلطي؛ ساكون كمن يهم
بالشرب عندما يصعد ألبرتون، وسوف أعطيه الكأس وأصبت لنفسي
كأساً غبرها. سيدو الأمر طبعاً وفي غاية السهولة؛ فهو لا يعرف
شعوري نحوه بالطبع... ما لم تكن جوديث قد أخبرتني بذلك. فكرت
في هذا الاحتمال لحظة، ثم قررت أنني في مأمن من هذه الناحية
لأن جوديث لا تخبر أحداً بأي شيء، كما أنه بظن بانتي لا أعلم
عن خطئهما شيئاً.

لم يكن لدي ما أعمله سوى الانتظار. قد ينقضي وقت طويل،
ساعة أو اثنتان، قبل أن يصعد ألبرتون إلى فراشه؛ فقد كان دائماً من
أولئك الذين ينامون متأخرين، وجلست أنتظر بهدوء.

أفزعتني نقر مفاجئ على الباب، ولكنه كان كيرتس الذي
أخبرني أن يوارو يسأل عني. عدت إلى الواقع مصعوقاً. يوارو؟ لم
أفكر به ولو مرة واحدة طوال المساء! لا بد أنه يتساءل عما حل بي.
أقنعتني ذلك قليلاً لسببين: الأول أنني كنت خجلاً لأنني لم أذهب
إليه، والثاني لأنني لم أريد أن يشك بأن أمراً خاطئاً قد حدث.

تبعث كيرتس غير الممر، وهتف يوارو عندما رأيته، حسناً،
لقد تخففت عني، لماذا؟

تظاهرت بالتناوب وبتمتعت ابتسامة اعتذار وقلت: أنا في غاية
الأسف يا صديقي، ولكنني في الحقيقة أعاني من صداع شديد
بحيث لا أكاد أرى أمامي. أظن أن ذلك سببه الرعد، لقد كنت
مشوشاً ذهن ففسيحت أنني لم أتأني لك ليلة سعيدة.

وكما كنت أمل فقد قنيت يوارو على الفور وعرض علي
العلاج، ثم بدأ بعائتي ويؤتي. انتهيت بأنني جلست في الهواء
الطلق في مجرى الهواء في ذلك اليوم الذي يُعد من أكثر أيام
الصيف حراً، ورفضت حبوب الأسبرين بحجة أنني قد أخذت
بعضها بالفعل، ولكنني لم أستطع رفض كوب من الشكلاطة التي
كانت شديدة الحلوة إلى حد يثير الغثبان، وقد عرضه علي يوارو
قائلاً: هذا ينعش العقل كما تعلم.

شرهه نجياً للمناقشة، ثم تمنت له ليلة سعيدة وهو لا يزال
ينصحنني بكلمات عطوفة قلقة. وعدت إلى غرفتي وأغلقت الباب
وأنا فخور بنفسي، وبعد قليل فتحته قليلاً بحذر شديد حتى أستطيع
سماع صوت ألبرتون عندما يأتي، ولكن ذلك لن يكون عما
قرب.

جلست أنتظر، وأخذت أفكر في زوجتي المتوفاة وقلت
أحدث نفسي: أنت تفهمين يا عزيزتي، سوف أنقذها.

لقد تركت جوديث في عتاتي ولن أخذلها. وفي هذا الهدوء
والسكون شعرت فجأة بأن زوجتي سندريلا بجاني، وأحسست
كانها معي في الغرفة، وجلست أنتظر بتجهم.

* * *

الفصل الثالث عشر

-٩-

ثمة شيء ما بخصوص الكتابة عن خيبة الأمل، وهو أنها تحطم احترام المرء لنفسه. فحقيقة الأمر أنني جلست أنتظر أليوتون، ولكنني غفوت! أظن أن ذلك ليس مفاجئاً في الحقيقة؛ فأنا لم أستطع النوم جيداً في الليلة السابقة وأمضيت النهار كله في الخارج. كنت متعباً ولفاً نتيجةً للجهد الذي بذلته لإنجاح ما كنت قد قورت عمله، وفوق ذلك كان ذلك الجو المرعد والقاسي، وربما ساعدني ذلك الجهد الذي بذلته في التركيز على ما كنت أفعل.

على أي حال فما حدث قد حدث. لقد غفوت في مقعدي، وعندما استيقظت كانت العصافير تزقزق في الخارج وقد أشرقت الشمس، وها أنذا وقد تشنّجت مفاصلي ولا أشعر بالارتياح، فقد نمت في المقعد بملايس المساء، وكنت أحس بطعم شنيع في فمي ورأسي يكاد ينشطراً شعرت بالسخافة وأنا مذهول ومشمتم، وأخيراً شعرت بارتياح عميق.

من قال إن الأيام السوداء سوف تزول إذا عشت إلى الغد؟ كم كان قوله صحيحاً! أنا أرى الآن بوضوح ونعمَل. كم كنت مجهّداً ومخطئاً! لقد فقدت الإحساس الصحيح حين قروت فعلاً أن أقتل إنساناً آخر. وفي تلك اللحظة وقعت عياني على كأس الشراب أُمامي، وبرجفة خفيفة وقفت وفتحت الستائر ثم غلّفت بمحتويات الكأس خارج النافذة. لا بد أنني كنت مجنوناً في الليلة الماضية!

حلقت لحيثي واستحممت وارتديت ملابس، ثم ذهبت إلى بوارو وأنا أشعر بأنني أحسن حالاً. وأنا أعلم أنه يستيقظ مبكراً، فجلست واعترفت بالأمر كله، ويمكنني القول إن عبثاً قليلاً قد انزعج عن صدري.

هزّ بوارو رأسه برفق وقال: يا إلهي، أي فكرة حمقاء تلك التي فكرت بها! أنا سعيد لأنك أتيت واعترفت لي بخطئك، ولكن لماذا لم تأتِ إليّ مساء أمس لتخبرني بما كنت تفكر به يا صديقي العزيز؟

قلت بخجل: أظن أنني كنت أخشى أن نحاول متعي.

- بالطبع كنت سأمتنع، هذا مؤكد؛ هل نظن أنني أريد رؤيتك مشغولاً بسبب وغد سيئ اسمه أليرون؟

- لم يكن من الممكن اكتشافني والقبض عليّ، فقد اتخذت كافة الاحتياطات.

- هذا ما يظنه العجرامون كلهم. أنت تمتلك العقلية المناسبة، ولكن دعني أخبرك بأنك لم تكن ذكياً كما تظن نفسك يا صديقي.

- لقد اتخذت كل الاحتياطات، وقد مسحت بصماتي من فوق الزجاجية.

- بالطبع، ومسحت بصمات أليرون أيضاً! وعندما يتم العثور عليه ميتاً فماذا سيحدث؟ سوف يُجرون تشريحاً ليقرروا أنه مات نتيجة جرعة مضاعفة من الحبوب المنومة، فهل أخذها عامداً أم مصادفة؟ حسناً، بصماته ليست على الزجاجية، ولكن لماذا؟ فسواء كان حادثاً أو انتحاراً فلا يوجد ما يدعو إلى مسح بصماته. ثم عندما يحللون حبات الدواء الباقية سيجدون أن نصفها تقريباً قد تم استبداله بالأسبرين.

هست بضعف: حسناً، كل شخص تقريباً لديه حبوب أسبرين.

- نعم، ولكن ليس للجميع ابنة يلاحقها اليرنون بنوايا غير شريفة! كما أنك قد تشاجرت مع ابتك بسبب هذا الموضوع في اليوم السابق، وسيقسم شخصان هما بويد كارنغتون ونورتون على مشاعرك العدوانية نحو هذا الشخص. لا يا هيتشغز، لم يكن الأمر ليبدو حسناً، كانت الشكوك ستحوم حولك، ومع مرور الوقت ستكون في حالة من الخوف أو الندم بحيث يمكن لأحد محققي الشرطة الأذكياء أن يقرر أنك أنت المذنب، كما أن من المحتمل أيضاً أن يكون أحدهم قد وآك وأنت تعبت بالحبوب.

- لا، لا يمكن؛ لم يكن في المكان أحد.

- توجد شرفة خارج النافذة، وربما كان أحدهم يسترق النظر، أو من يعلم؟ ربما كان أحدهم ينظر من ثقب الباب.

- أنت تمتلك ثقباً في عقلك يا بوارو! لا يُمضي الثامن وقتهم ينظرون من ثقب الباب كما تحب أن تظن.

أغلق بوارو عينه نصف إغلاقاً وقال: لقد كنت شديد الثقة بالناس دائماً، ولكن دعني أخبرك أن كثيراً من الأمور الغريبة تحدث بسبب المفاتيح في هذا المنزل. أحب أن أشعر بأن بابي مغلق من الداخل حتى لو كان كيرس الطيب في الغرفة الملاصقة، فبعد وصولي بفترة قصيرة اخفى مفاتيحي فاضطرت إلى صنع مفتاح آخر.

قلت بارتياح ولا يزال عقلي مثقلاً بالمناعب: على أية حال لم ينجح الأمر والحمد لله. من الفطخ أن بغضب المرء هكذا.

وخففت صوتي وأكملت: بوارو، أنت لا تظن أن في الجو نوعاً من العدوى بسبب تلك الجريمة التي وقعت في الماضي، أليس كذلك؟

- أنتني فيروس قتل؟ إنه اقتراح مثير.

قلت بتفكير عميق: لكل منزل جوء، ولهذا المنزل تاريخ سيئ.

أوما بوارو قائلاً: أجل، عاش هنا أناس تمتلئ معظمهم أن يموت أحداً ما، هذا صحيح.

- أظن أن ذلك يؤثر عليك بطريقة ما، ولكن أخبرني الآن يا بوارو: ماذا سأفعل بكل هذا؟ أعني جوديث وألبرتون... يجب إيفانهما بطريقة ما، لماذا تظن أنه يجب علي عمله؟

- لا تفعل شيئاً.

- ماذا؟ ولكن...

- صدقتي، لن يزيد الأمر سوءاً إذا لم تتدخل.

- إذن يجب علي أن أتحدث مع ألبرتون بصراحة.

- ما الذي يمكنك قوله أو عمله؟ جوديث تبلغ الحادية والعشرين من العمر وهي ميدة نظها.

- ولكن أشعر بأنه يجب علي أن أفعل شيئاً.

لكن بوارو قاطعني قائلاً: لا يا هيستنغز، لا تتخيل أنك ذكي جداً أو عتيف جداً أو حتى مخادع جداً لكي تتمكن من فرض شخصيتك على أي من هذين الشخصين. ألبرتون معتاد على التعامل مع الأباء الغاضبين والضعفاء، بل لعله يستمتع بالأمر على أنه نكتة جيدة، وجوديث ليست بالمخلوق الذي يمكن إرهابه بالصراخ. أنصحك - إذا كان لي أن أنصحك - بأن تفعل أمراً مختلفاً. لو كنت مكانك لو توث بها.

حدقتُ إليه مذهوشاً فأكمل: جوديث رفيقة جداً وقد وُثيت تربية حسنة، أنا معجب بها جداً.

قلت بصوت منهدج: أنا معجب بها أيضاً، ولكنني أخاف عليها.

هزّ بوارو رأسه بقوة مفاجئة وقال: أنا أيضاً خائف عليها، ولكن ليس مثلك. أنا شديد الخوف وأنا بلا قوة أو تقريباً بلا قوة، والأيام تسرا الخطر قريب يا هيستنغز، قريب جداً.

فقال إن ذلك أفضل مما حصل عليه هو، حيث تلقى مكاملة مئة من المهندسين المعماريين بشأن بعض المشكلات في البناء، والمتاح المحلي غاضب جداً، كما أنه كان خائفاً من أنه قد أوهى السيدة فرانكلين في اليوم السابق.

أما السيدة فرانكلين فقد كانت تعوّض عن نوبة الصحة الجديدة والمعنويات المرتفعة التي أصابتها حديثاً. لقد كانت - كما أخبرني الممرضة كارفن - تنصرف بطريقة غير معقولة، وقد اضطرت الممرضة أن تتخلى عن يوم إجازتها الذي كانت قد رُعدت به للذهاب وملاقة بعض الأصدقاء. كانت غاضبة بسبب ذلك بلا شك، فمذ الصباح الباكر كانت السيدة فرانكلين تطلب كربونات النشادر وزجاجات الماء الساخن وعدة أنواع من الخضار والفواكه، وكانت غير راضية في أن تتأخر الممرضة الغرفة، كما أنها كانت تعاني من آلام عصبية: ألم في القلب ونشيج في قدميها وارتياف في جسدها... ولا أعلم ماذا أيضاً!

أستطيع القول إنه لا أنا ولا أي واحد آخر منا كان مثالا إلى الحلز في تلك اللحظة، وقد اعتبرنا جميعاً أن ذلك جزء من توهّم السيدة فرانكلين للمرض، والأمر نفسه ينطبق على الممرضة كارفن والدكتور فرانكلين الذي جيء به من المختبر واستمع إلى شكاوى زوجته، وسألها إن كانت تريد أن يستدعي الطبيب المحلي الذي رفضه السيدة فرانكلين بعنف. وعندها أعطاها بعض المسكنات وطمانتها بتدر استطاعته، ثم عاد إلى عمله مرة أخرى.

قالت لي الممرضة كارفن: بالطبع هو يعلم أنها تنظاها.

كنت أعلم مثلما يعلم بورار بأن الخطر قريب، وكان لدي سبب أكبر لأعرف ذلك أكثر منه، وذلك بسبب ما سمعته في الليلة السابقة. وعلى الرغم من ذلك فقد أخذت أفكر وأنا في طريقي لتناول الفطور بعارة بورار: «لو كنت مكانك لوثقت بها». ترى ماذا سيحدث الآن؟

وجاء الجواب بطريقة غير متوقّعة، لكنه زوّدني بشعور غريب بالارتياح. فقد بدا أن جوديث قد غيّرت رأيها بشأن الذهاب إلى لندن هذا اليوم. وبدلاً من ذلك فقد خرجت مع فرانكلين إلى المختبر كالمعتاد بعد الفطور مباشرة، وبدا من الواضح أنهما سيواجهان هناك يوماً شاقاً مليئاً بالعمل.

غمزني شعور بالراحة العميقة. كم كنت غيباً وناثلاً ليلة أمس! لقد افترضت أن جوديث قد استجابت بالتأكيد لمقترحات أليوتون المخادعة، ولكنني لم اسمعها توافق في الحقيقة، وقد ذكرْتُ في ذلك الآن. نعم، لقد كانت أحسن وأصدق بكثير من أن تستسلم، لقد رفضت اللقاء.

وعلمت أن أليوتون تناول فطوره مبكراً ثم ذهب إلى يسويش. لقد حافظ على خطته إذن، ولا بد أنه يظن أن جوديث ستذهب إلى لندن حسب الاتفاق. قلت بتجاههم: حسناً، سوف يخيب أملها!

ثم جاء بويد كارنغتون وعلمني بتدقّر بأني أبدو مرحاً هذا الصباح، فقلت له: نعم، لقد سمعت بعض الأخبار الجيدة.

« أتظنين أنها تعاني من أمر ما؟ »

« حاراتها طبيعية وبضعها ممتاز. إنها مجرد رغبة في إحداث ضجة إذا سألتني عن رأيي.

كانت كارفن غاضبة وتحدثت بصورة حمقاء أكثر من المعتاد، وأكملت: هذه المرأة تتدخل في حياة أي شخص آخر يستمتع بحياته، وتريد أن تُغضب زوجها وأن أُلقي أنا جميع حاجاتها، وحتى السير ولبايم يجب أن يشعر أنه إنسان منوحش لأنه أتعبها بالأمس! إنها من هذه النوعية من الناس.

يبدأ من الواضح أن الممرضة كارفن اعتبرت مريضتها غير محتلة في ذلك اليوم، وفهمت أن السيدة فرانكلين كانت وقحة في تصرفها معها. لقد كانت من ذلك النوع من النساء الذي لا تحبه الممرضات والخدم، ليس فقط بسبب المتاعب التي تسببها بل بسبب سلوكها أيضاً. وكما قلت لم يأخذ أي منا نوعها على محمل الجد باستثناء بويد كارنغتون الذي بدأ بصورة مثيرة للشفقة كالطفل الصغير الذي لقي توبيخاً.

لقد حاولت أكثر من مرة منذ ذلك الوقت أن أعيد فحص أحداث ذلك اليوم محاولاً أن أتذكر أمراً لم أتبه إليه أو حادثة صغيرة نسبها، لكي أتذكر بالضبط سلوك كل الأشخاص إن كانوا طبيعيين أم لا. دعوني أسجل بدقة ما أذكره عن كل شخص مرة أخرى: بويد كارنغتون بدأ قلقاً، بل لعله كان يشعر بالذنب. كان يظن أنه كان ممكناً بالحياة والنشاط في اليوم السابق وأنه كان أنانياً عندما لم يفكر في صحة رفيقته الضعيفة، وقد صمد مرة أو مرتين لللاطمثان

على صحة باريرا فرانكلين، واستقبلته الممرضة كارفن التي لم تكن هي نفسها في مزاج حسن فلم نحسن استقباله، ثم ذهب إلى القرية فاشترى للسيدة فرانكلين علبة من الشكولاتة، لكن الممرضة أعادتها إليه لأن السيدة فرانكلين لا تستطيع احتمال الحلوى. وبخزن فتح الصندوق في غرفة التدخين وأخذنا أنا ونورتون وهو كذلك نأكل بلا تروء.

أظن أن أمراً ما كان يشغل يال نورتون في ذلك الصباح، فقد بدأ شارد الذهن وفطبط حاجبيه أكثر من مرة كما لو كان متعباً بشأن أمر ما. وكان مغزماً بتلك الحلوى لتناول كمية كبيرة منها دون أن يشعر.

تغير الجو في الخارج وبدأ المطر يهطل منذ الساعة العاشرة، لكن الجو لم يصبح كثيباً كما هو شأنه في الأيام الممطرة، وقد كان ذلك مدعاةً لارتياحنا جميعاً في الواقع. وعند منتصف النهار أحضر كيرتس بورور وأجلسه في غرفة الجلوس، وهنا انضمت إليه إليزابيث كول وقامت بالعزف له على البيانو. كانت لمسائها لطيفة وعزفت معزوفات ليماخ وموزارت اللذين كانا مفضلين لدى صديقي.

وفي نحو الواحدة إلا الربع عاد فرانكلين وجوديث من الحديقة، وبدأت جوديث شاحبة وقلقة. كانت صامتة ونظرت حولها بغموض كأنها كانت مستغرقة في حلم ثم استيقظت منه فجأة، وجلس فرانكلين معنا وبدأ هو الآخر منهمكاً متعباً، وبدأ من مظهره أنه كان على حافة الانهيار أيضاً. وقلت -كما أتذكر- إن المطر يثير الارتياح، فقال بسرعة: نعم، توجد أوقات تنكسر فيها الأشياء.

وبطريقة ما بدا لي أنه لم يكن يتحدث عن الجوّ، وكعادته في حركاته الخفية ارتطم بالطاولة فوقع نصف الحلوى؛ فجفل واعتذر، ومن الواضح أنه اعتذر للعلبة حين قال: آه، أنا أسف.

كان يجب أن يكون ذلك مضحكاً لكنه لم يكن كذلك، فانحنى مسرعاً والنقط قطع الحلوى المتناثرة. وسأله نورتون إن كان قد مر بيوم شاق، فابتسم عندها بحماسة وطفولية وحيوية وقال: لا، لقد أدركت فجأة بأنني كنت أسير في الاتجاه الخاطئ، فما نحتاج إليه هو عملية أكثر سهولة. يمكنني سلوك طريق مختصر.

ثم وقف بتأرجح على قدميه قليلاً إلى الأمام وإلى الخلف، وكانت عيناه حالمتين ولكنّ فيهما تصميماً وهو يقول: نعم، الطريق المختصر هو أفضل الطرق.

-٣-

إذا كنّا جميعاً عصبين نسير بلا هدف في ذلك الصباح فقد جاء وقت العصر لطيفاً على غير توقّع؛ سطعت الشمس وكانت الحرارة منخفضة ومتعشة، ونزلت السيدة لانتريل وجلست في الشرفة وهي في حالة معاناة تمارس سحرها، وكان تصرفها أقل شراسة من المعتاد بلا نكد أو تسلّط لسان، وقد مازحت زوجها برفق ومحبّة فابتسم في وجهها، وكان من الممتع مشاهدتهما وهما في علاقة حسنة.

سمح يوارو لكيرنس بأن يأخذه إلى الخارج، وقد كان في

حالة نفسية جيدة. أظن أنه كان يحب أن يرى الزوجين لانتريل وقد تحسّنت علاقتهما. وقد بدا الكولونيل أصغر عمراً وكان تصرفه أقل تردداً كما قلّ عبثه بشاوبه، بل أشار إلى أنه ستكون هناك لعبة ورق في ذلك المساء قاتلاً: إن ديزي مشافة إلى اليريدج.

فقالت السيدة لانتريل: بالتأكيد، أنا كذلك فعلاً.

وأشار نورتون إلى أن ذلك يمكن أن يكون متعباً بالنسبة لها فقالت: "سألعب جولة واحدة"، ثم أضافت وهي تنمّر بعينها: سأنصرف جيداً ولن أزعج جورج المسكين.

فاحتج زوجها قاتلاً: عزيزتي، أنا أعلم أنني لأعاب ستي.

قالت السيدة لانتريل: وماذا في ذلك؟ ألا يعطيني هذا فرصة لمضايقتك؟

وضحكنا جميعاً فتابعت السيدة لانتريل: آه، أنا أعرف أخطائي ولكنني كبرت فلم يعد سهلاً عليّ إصلاح نفسي، يجب على جورج أن يتحملني.

نظر إليها الكولونيل ببلاهة، وأظن أن رؤيتهما وهما في هذه الحالة الحسنة هو الذي أدى إلى حدوث مناقشة بشأن الزواج والطلاق في وقت متأخر من ذلك اليوم: هل الرجال والنساء أكثر سعادة بسبب توفر تسهيلات أكبر للطلاق، أم أن فترة الخصام والبعد المؤقتة تعود بعد فترة لتتحول إلى العاطفة والصدقة؟

من الغريب أن ترى في بعض الأحيان كيف تخالف آراء

الأشخاص تجاريهم الشخصية. كان زواجي سعيداً ناجحاً فوق التصور، وأنا في جوهرى إنسان تقليدي، ولكن على الرغم من ذلك فقد كنت مع الطلاق لتخفيف الخسائر والبده من جديد إذا ما تأكد فشل الزواج. أما بويد كارنغتون وعلى الرغم من أن زواجه لم يكن سعيداً فقد كان يؤكد بشكل مطلق على روابط الزواج، وكما قال فقد كان يكن كل الاحترام لمؤسسة الزواج لأنها أساس تجميع الأرض.

نورون غير الجوتبط والذي لا يملك أي اهتمام شخصي بهذا الموضوع وافقني في تفكيري، أما فرانكلين المفكر العلمي العصري فقد عارض الطلاق بشدة، وبدا هذا منه غريباً. قال إن على المرأة تحمّل مسؤولياته وأكد أن العقد هو العقد، فالمرء يوقع العقد باختياره ويجب عليه الالتزام به، وإني مخالفة لذلك تسبب في حادثة من الفوضى. ثم اتكأ على كرسيه وقدماء الطويلتان تضربان بدموض على الطاولة قائلاً وهو يقول: الرجل يخنار زوجته، وهي مسؤوليته حتى تموت أو يموت.

عندها قال نورون بسخرية: وأحياناً يكون الموت رحمة. صبحتنا من تعليقه ثم قال بويد كارنغتون: لا يمكنك التحدث أيها الفتى! أنت لم تتزوج من قبل. هز نورون رأسه قائلاً: والآن فات الأوان.

فقال بويد حسناً: حقاً؟ هل أنت متأكد من ذلك؟

في تلك اللحظة انضمت إلينا إليزابيث كول التي كانت تجلس مع السيدة فرانكلين. وأتساءل هل تخيلت ذلك أم إن بويد

كارنغتون ننقل بنظرة مائكة بيننا وبين نورون، وهل كان صحيحاً أن نورون قد أحمر وجهه خجلاً؟ وفكرت في فكرة جديدة فظنوت إلى إليزابيث كول ياحناً. صحيح أنها لا تزال شابة كما أنها لا تزال امرأة جميلة، بل هي في الحقيقة فائنة جداً وباستغناء عنها إسماعيل في رجل، وكانت مؤخرًا تقضي مع نورون وقتاً طويلاً في بحثهما عن الأزهار البرية والطيور وقد أصبحتا صديقين، لا أزال أذكر طريقتهما في الحديث عن نورون وقولها إنه شخص عطوف.

إذا كان ذلك صحيحاً فأنا سعيد من أجلها؛ فمعاتنها وحرمانها في صبيها لن يفعا عتبة في طريق سعادتها، والمأساة التي بعثرت حياتها لم تكن لتحدث من فراغ. وفكرت وأنا أنظر إليها بأنها تبدو أكثر سعادة بالتأكيد. نعم، وأكثر مرحاً مما كانت عليه عندما قدمت إلى «ستابلز». إليزابيث كول ونورون... نعم، يبدو هذا محتملاً.

وفجأة ودون إنذار وادوني شعور مبهمة بعدم الارتياح وشعرت بالقلق، ثم يكن أسناً أو مناسباً أن يخطط المرأة للسعادة هنا. كان في هواء «ستابلز» شيء ضار خبيث، وقد شعرت به الآن في تلك اللحظة، شعرت فجأة بالعجز والتعب... نعم، والخوف أيضاً!

بعد دقيقة اختفى ذلك الشعور ولم يلحظه أحد على ما أظن، باستثناء بويد كارنغتون الذي قال لي بعد مرور بضع دقائق: هل أصابك شيء؟ يا هيسنتز؟

- لا، لماذا؟

- حسناً، لقد بدا كأنك... لا أستطيع تفسير ذلك.

- إنه مجرد شعور بالخوف.

.. هل هو إحساس بالشر؟

- نعم... إن أردت صياغته بهذه الطريقة، شعور بأن أمراً ما سوف يحدث.

قال وهو يراقبني: غريب! لقد شعرت بذلك مرة أو مرتين، هل لديك فكرة عن ماهيته؟

هزئت رأسي نفيًا لأنني بالفعل لم يكن لدي خوف من شيء محدد، كانت مجرد موجة من الاكتئاب العميق والخوف.

ثم خرجت جوديث من المنزل وتقدمت نحونا ببطء وقد ضمت شفتيها ورفعت رأسها. كان وجهها جميلاً ومظهرها وفوراً، وفكرت كم بدت مختلفة عني وعن أمها.

قال نورتون: إن مظهرك يذكرني بسمتك (تلك التي كان اسمها جوديث في الأسطورة اليونانية) قبل أن تقطع رأس هولوفيرنس!

ابتسمت جوديث وقد رفعت حاجبيها قليلاً وهي تقول: لا أستطيع أن أتذكر الآن، لماذا أردت فعل ذلك؟

قال نورتون: آه، لقد كان دافعها أخلاقياً محضاً من أجل تحقيق الخير للمجتمع.

كان في لهجته شيء من السخرية أو الاستخفاف أزعم جوديث حتى لقد احسن وجهها من الانفعال، وتجاوزته بسرعة لتجلس بجانب فرانكلين وهي تقول: السيدة فرانكلين تشعر بنحسن، وهي تريدنا أن نذهب كلنا وتتناول القهوة معها هذا المساء.

حالة نفسية جيدة. أظن أنه كان يحب أن يرى الزوجين لائيرل وقد تحسنت علاقتهما. وقد بدا الكولونيل أصغر عمراً وكان تصرفه أثل تردداً كما قل عبه بشأريه، بل أشار إلى أنه ستكون هناك لعبة ورق في ذلك المساء قاتلاً: إن ديزي مشتاقة إلى البريدج.

فقالت السيدة لائيرل: بالتأكيد، أنا كذلك فعلاً.

وأشار نورتون إلى أن ذلك يمكن أن يكون متعباً بالنسبة لها فقالت: "سألعب جولة واحدة". ثم أضافت وهي نغمز بعينها: سأصرف جيداً ولن أزعم جورج المسكين.

فاتحج زوجها قاتلاً: عزيزتي، أنا أعلم أنني لاعب متين.

قالت السيدة لائيرل: وماذا في ذلك؟ ألا يعطيني هذا فرصة لمضايقتك؟

وضحكنا جميعاً فتابعت السيدة لائيرل: آه، أنا أعرف أخطائي ولكنني كبرت فلم يعد سهلاً عليّ إصلاح نفسي، يجب على جورج أن يتحملني.

نظر إليها الكولونيل ببلاهة، وأظن أن رؤيتهما وهما في هذه الحالة الحسنة هو الذي أدى إلى حدوث مناقشة بشأن الزواج والطلاق في وقت متأخر من ذلك اليوم: هل الرجال والنساء أكثر سعادة بسبب توفر تسهيلات أكبر للطلاق، أم أن فترة الخصام والبعد المؤقتة تعود بعد فترة لتحول إلى العاطفة والصدقة؟

من الغريب أن ترى في بعض الأحيان كيف تخالف آراء

حينما كنت أصعد الدرج بعد العشاء في طريقي لزيارة السيدة فرانكلين فكثرت كم هي إنسانة مثقلة المزاج ، فقد جعلت حياة كل واحد منا غير محتملة طول اليوم ، ثم ها هي ذي في قمة اللباقة الآن !

كانت ترندي ثوباً مسائياً أزرق فاتح اللون وقد جلست على كرسيها الطويل وبجانبيها خزانة كتب دوارة صغيرة الحجم وضعت فوقها أدوات صنع القهوة ، وكانت أصابعها الرشيقة البيضاء تقوم بإعداد القهوة بمساعدة بسيطة من الممرضة كارفن . كنا جميعاً هناك باستثناء يوارو الذي اعتاد أن يأوي إلى فراشه قبل العشاء والبرتون الذي لم يعد يعد من إيسويش والكولونيل والسيدة لاثريل اللذين بقيا في الطابق السفلي .

وعبثت أنوفنا برائحة القهوة ، رائحة لذيذة زكية ! القهوة في «ستايلز» مجرد سائل داكن اللون يفتقر إلى الطعم ، لذلك فقد تطلعنا إلى قهوة السيدة فرانكلين بنشوق . وجلس الدكتور فرانكلين على الجهة الأخرى من المائدة يناول الأكواب التي تملؤها السيدة فرانكلين ، ووقف بويد كارنغتون عند زاوية المقعد قى حين كانت إليزابيث كول ونورتون قرب النافذة ، وتراجعت الممرضة كارفن إلى الخلف عند رأس السرير .

أما أنا فقد جلست على المقعد أتعارك مع الكلمات المتقاطعة في جريدة «التايمز» ، ومضيت أقرأ وصف اللغز بصوت مرتفع والباقيون يحاولون مساعدتي باقتراح الكلمات المناسبة ، ثم سمعت

صوت شهيقٍ حادٍ خلفي فنظرت، كانت تلك هي جوديث، وقد تجاوزتُنا إلى النافذة ومنها إلى الشرفة.

بعد ذلك سمعت صوت حركة المعلقة في فئجان باريرا فرانكلين، وانتقلت إلى كلمة جديدة من الكلمات المتقاطعة فقلت: من الثقال: «الغيرة وحش أخضر العينين»^{٩٥}

قال بريد كارنتون: إنها جملة من إحدى مسرحيات شكسبير.

فالت السيدة فرانكلين: لعلها من أنوال عطيل أو إميليا.

قلت: لا، اللغز مكون من خمسة حروف وينتهي بالواو.

وتأملت الافتراضات:

- إياغو.

- أنا وأنت من أنه عطيل.

- لم يكن في مسرحية عطيل أصلاً، لا بد أنها عبارة قالها روميو لجولييت.

الكل كانوا يقترحون، وفجأة صرخت جوديث من الشرفة قائلة: انظروا، هذا شهاب! آه، وهناك آخر!

قال بريد كارنتون: أين؟ يجب أن تمنى شيئاً.

وخرج إلى الشرفة وانضم إلى إليزابيث كوك ونودتون وجوديث، وخرجت الممرضة كارفن أيضاً ونهض فرانكلين وانضم إليهم. وقفوا هناك بهتون ويحدقون إلى السماء، وبقبت أنا ورأسي

منحنٍ أحاول حلّ الكلمات المتقاطعة. لماذا أسمع لرؤية شهاب؟ ليس لديّ أمر أتمناه.

ولمجانة رجع بريد كارنتون إلى الغرفة وقال: باريرا، يجب أن تخرجي!

فالت السيدة فرانكلين بحدّة: لا أستطيع، أنا متعبة جداً.

قال: «مهراً يا بابس، يجب أن تخرجي وتتمني». ثم أكمل ضاحكاً: لا أريد أيّ اعتراض، سوف أسحبك.

وفجأة قفز وسحبها بكلتا ذراعيه، فضحكت واحتجّت قائلة: اتركتي يا بيل، لا تكن سخيّاً.

- يجب أن تخرج الفتيات الصغيرات للتمني.

خرجنا كلاهما إلى الشرفة، وانحيت على الجريدة أكثر؛ فقد تذكرت ليلة استوائية صافية فيها تقبّل هفادج وشهب في السماء، وكنت أفد هناك بجانب النافذة ثم استدردت وحملت سندريلا بين ذراعيّ لترى النجم وتتمني!

وتراقصت أمام عيني خطوط الكلمات المتقاطعة فلم أعد أستطيع رؤيتها بوضوح. ثم انتزع شخص نفسه من الشرفة وندم إلى الغرفة، كانت جوديث. يجب أن لا تراني جوديث والدموع في عيني، لا أحب ذلك! وبسرعة أدت خزانة الكتب وتظاهرت بأنني أبحث عن كتاب، وتذكرت بأنني رأيت نسخة قديمة من أعمال شكسبير هناك. نعم، ها هي ذي، ثم أخذت أنظر إلى صفحات مسرحية عطيل دون أن أدرك منها أي كلمة.

سألتني جوديث: ماذا تفعل يا أبي؟

تعمت بشيء حول اللغز، ومضت أصابعي تقلب الصفحات ثم قلت بصوت مسموع: نعم، كان إياغو: "احلر يا سيدي من الغيرة، فهي وحش أخضر العينين".

ثم عاد الآخرون وهم يضحكون ويثرثرون، وعادت السيدة فرانكلين إلى مكانها القديم على الكرسي الطويل، وجلس الدكتور فرانكلين على مقعده مقابلها وأخذ يقلب قهوته، وانتهى نورثون وإليزابيث من شرب قهوتهما واستأذنا بالمغادرة لأنهما وعدا بلعب البريدج مع الزوجين لالتريل. وشربت السيدة فرانكلين قهوتها ثم طلبت دواءها، فأحضرت جوديث لها من الحمام لأن الممرضة كارفن كانت قد خرجت لتوها.

كان الدكتور فرانكلين يتجول حول الغرفة بلا هدف، وتعرّ بطاولة صغيرة فقالت زوجته بجدة: لا تكن أخرق يا جون!

- آسف يا بابرا، كنت أفكر في أمر ما.

قالت السيدة فرانكلين بتكلف: أنت دب كبير، أليس كذلك يا عزيزي؟

نظر إليها بشروء ثم قال: هذه ليلة جميلة، وأظن أنني سأخرج لأنشئ قليلاً.

ثم خرج من الغرفة فقالت السيدة فرانكلين: إنه عبقري كما نعلمون، ويمكن الحكم عليه من خلال نصراته. أنا متعجبة به جداً فهو مغرم بعمله تماماً.

وقال بويد كارتنتون بيرود: نعم، إنه شخص ذكي.

ثم عادت جوديث الغرفة فجأة، وقد كادت تصطدم بالممرضة كارفن عند عتبة الباب. وقال بويد كارتنتون: ما رأيك أن نلعب بوكيه يا بابس؟

- هذا رائع. هل تستطيعين إحضار بعض أوراق اللعب أيتها الممرضة؟

ذهبت الممرضة كارفن لإحضار أوراق اللعب، وتمت أنا للسيدة فرانكلين ليلة سعيدة وشكرتها على القهوة. وفي الخارج تجاوزت فرانكلين وجوديث اللذين كانا واقفين ينظران عبر النافذة. لم يكونا يتحدثان بل كانا فقط واقفين متجاورين، وحين اقتربت نظر فرانكلين إلى الوراء فتقدمت خطوتين ورددت ثم قلت: هل نأين للنتزه يا جوديث؟

هزت ابنتي رأسها نفيًا وقالت: ليس الليلة، سأذهب إلى الفراش. تصبح على خير.

ونزلت الدرج مع فرانكلين الذي كان يصفر لنفسه ويهشم بلطف، وكنت أشعر بالاكئاب فقلت معلناً بعصية: يبدو مسروراً من نفسك الليلة؟

فقال: نعم، لقد فعلت شيئاً أودت فعله منذ وقت طويل، وقد فعلته بشكل مريض جداً.

افترقت عنه عند نهاية الدرج، وتفقدت لبعض الوقت أولئك الذين يلعبون الورق فغمز لي نورثون عندما كانت السيدة لالتريل

تنظر بعيداً. كانت تلك الجولة تسير بانسجام غير معتاد.

لم يعد أليوتون حتى ذلك الوقت، وهذا لي أن المنزل أكثر سعادة وأقل انقباضاً في غيابي. وصعدت إلى غرفة بوارو فوجدت جوديث جالسة عنده، فابتسمت لي عندما دخلت ولم نتحدث. قال لي بوارو: لقد سامعتك يا صديقي!

قلت: حقاً؟ لا أظن ذلك.

نهضت جوديث ولفت ذراعها حول عنقي وقبلتني، ثم قالت: أبي المسكين! لن يجرح العم بوارو كرامتك. أنا التي يجب أن نسامحن، لذلك سامحتي وتمن لي ليلة سعيدة.

ولا أدري لماذا قلت ما قلت، ولكنني قلت: أنا آسف يا جوديث، أنا في غاية الأسف؛ لم أقصد أن...

ولكنها قاطعتني قائلة: لا بأس، لنتنس الأمر. الأمور على ما يرام الآن.

وابتسمت ابتسامة خالمة ثم قالت مرة أخرى: كل شيء على ما يرام الآن.

ثم غادرت الغرفة بهدوء فنظر إلي بوارو وقال لي: حسناً ما الذي جرى هذا المساء؟

قلت: لم يحدث شيء، وليس من المحتمل أن يحدث شيء.

في الواقع كنتُ بهذه الملاحظة قد تجاوزت الحقيقة لأن أمراً ما وقع في تلك الليلة؛ لقد عانت السيدة فرانكلين بشدة من الألم.

وأرسل في طلب طبيبين آخرين ولكن بلا فائدة، فقد ماتت في صباح اليوم التالي.

ولم نعلم إلا بعد مرور أربع وعشرين ساعة أن الوفاة كان سببها التسمم بمادة الفايروستغمين!

* * *

الفصل الرابع عشر

-٦-

بعد يومين من وفاة السيدة فرانكلين جرى التحقيق لتحديد سبب الوفاة، وقد كانت هذه هي المرة الثانية التي أحضر فيها تحقيقاً في هذا الجزء من العالم

كان المحقق رجلاً متوسط العمر قديراً ذا نظرة ذكية وكلام جاف، نظر إلى الدليل الطبي أولاً، وقد تقرر أن سبب الوفاة هو التسمم بمادة الفايروستغمين، كما لوحظ وجود شبه قلوبات أخرى. ولا بد أنها تناولت السم في الليلة السابقة بين الساعة مساءً ومتصف الليل، وقد رفض رقيب الشرطة وزملاؤه إعطاء وقت أكثر دقة.

كان الدكتور فرانكلين هو الشاهد التالي، وقد أعطى تأثيراً حسناً. كانت أدلته واضحة وبسيطة، فبعد وفاة زوجته قام بفحص محاليله في المختبر، وقد وجد أن إحدى الزجاجات التي كانت تحتوي على محلول مركّز من شبه القلوبات المستخلصة من لوباء كالابار (التي كان يُجري عليها تجاربه) قد مُلئت بالماء العادي الذي

احتوى على بعض الآثار من المحتويات الأصلية فقط. ولم يستطع تحديد الوقت الذي حدث فيه هذا لأنه لم يستخدم تلك الزجاجات منذ بضعة أيام.

ثم توقفت مسألة الدخول إلى المختبر، ووافق الدكتور فرانكلين على أنه يجري إغلاق المختبر في العادة وأن المفتاح يبقى في حوزته، وأن لدى مساعده الأستة هيستنز مفتاحاً أيضاً، وأي شخص يريد الدخول إلى المختبر لا بد أن يطلب المفتاح منها أو منه. وقد استعارت زوجته المفتاح عدة مرات عندما نسبت بعض أسيائها في المختبر، ولم يجلب هو نفسه أي شيء من محلول الفايروستغمين إلى المنزل أو إلى غرفة زوجته، كما أنه يعتقد أن من المستحيل أن تكون قد شربته بطريق الخلط. وعندما استجوبه المحقق قال إن زوجته كانت عصبية لفترة من الزمن وإن صحتها كانت سيئة، وقال إنها لم تكن مصابة بمرض عضوي لكنها كانت تعاني من الكآبة وتقلب المزاج. وقد بدت مؤخراً مرحة كما قال، واعتبر ذلك تحسناً في صحتها ونفسيتها. لم يشأ جرا وكانا طبيين معاً، وفي الأمسية الأخيرة بدت زوجته بنفسية جيدة وغير مكتبة. وقال إن زوجته تكلمت عدة مرات عن إنهاء حياتها ولكنه لم يحمل كلامها على محمل الجد. وعندما سئل بالتحديد أجاب بأنه وحسب اعتقاده فإن زوجته لم تكن من النوع الذي يمكن أن يتحرر. كان ذلك رآه الطبي والشخصي أيضاً.

تبغت في الشهادة المزعومة كارفن، وقد بدت أثقة بزيها وكانت أجوبتها دقيقة. لقد اعتنت بالسيدة فرانكلين أكثر من شهرين، السيدة فرانكلين التي كانت تعاني من الاكتئاب. وقد سمعتها الشاهدة ثلاث

مرات على الأقل تقول إنها تريد إنهاء كل شيء وتردد أن حياتها عديمة الفائدة وأنها تشعر بأنها كالحجر الذي يتقل عثر زوجها.

سألها المحقق: لماذا قالت ذلك؟ هل كان بينها وبين زوجها خصام؟

- لا، ولكنها كانت تعرف أن زوجها قد مُنح عقداً للعمل في الخارج، وقد رفض ذلك العقد حتى لا يتركها.

- وهل شعرت بالانقباض بسبب ذلك في بعض الأحيان؟

- نعم، كانت تلوم صحتها العليلية وكان ذلك بغضبها جداً.

- هل كان الدكتور فرانكلين يعلم ذلك؟

- لا أظنها قالت ذلك أمامه كثيراً.

- لكنها كانت عرضة لتويات من الكآبة، أليس كذلك؟

- بلى، بالتأكيد.

- هل ذكرت بالتحديد تبثها في الانتحار؟

- أظنها قالت فقط: أريد إنهاء كل شيء.

- ألم تقترح أي وسيلة معينة لإنهاء حياتها؟

- لم تفعل؛ كانت غامضة بعض الشيء.

- هل أدّى أي شيء إلى كآبتها مؤخراً؟

- لا، كانت روحها المعنوية عالية نوعاً ما.

- هل توافقين الدكتور فرانكلين على أن روحها المعنوية كانت عالية ليلة موتها؟

ترددت الممرضة كارفن ثم قالت: حسناً، لقد كانت في حالة إثارة، أصابها ألم شديد خلال النهار واشتكت من صداع ودوار، ثم بدت بشكل أفضل في المساء. لكن روحها المعنوية العالية كانت مصطنعة، لقد بدت وكأنها مصابة بالحمى.

- هل رأيت زجاجة أو أي شيء يمكن أن يُستخدم لتخزين السم؟

- لا.

- ماذا أكلت أو شربت؟

- تناولت حساء وقطعة لحم وبازلاء وبطاطا مهروسة وكعكة الكرز. وشربت كأساً من العصير.

- من أين جاء ذلك العصير؟

- من زجاجة كانت في حجرة، وقد بقي فيها بعض الشراب، وأظن أنها فُحصت ووُجدت عالية من السم.

- هل يُحتمل أن تكون قد وضعت السم في شرابها دون أن تشاهدها؟

- نعم. بكل بساطة. لقد كنت داخلة خارجة من الغرفة أنظف وأرتب الأشياء، ولم أكن أراقبها. كانت بجانبها حقيبة ملفات وحقيبة يدها، ويمكن لها أن تضع أي شيء في الشراب أو في القهوة لاحقاً

أو في الحليب الساخن الذي كان آخر ما تناولته.

- هل لديك فكرة عما يمكن أن تكون قد فعلته بالزجاجة أو الحاوية إذا كان ذلك صحيحاً؟

فكرت الممرضة كارفن لحظة ثم قالت: حسناً، ربما رمتها لاحقاً خارج النافذة أو وضعتها في سلة المهملات أو حتى غسلتها في الحمام وأعادتها إلى خزانة الأدوية. في الخزانة عدد من الزجاجات الفارغة لا أتخلص منها لأنها مفيدة في بعض الأحيان.

- متى كانت آخر مرة رأيت فيها السيدة فرانكلين؟

- في نحو العاشرة والنصف عندما وضعتها في الفراش، وكانت قد تناولت الحليب الساخن وطلبت حبة أسبرين.

- كيف كانت عندئذ؟

فكرت الشاهدة لحظة ثم أجابت: حسناً، كمادنها... لا، يمكنني القول إنها كانت مثارة قليلاً.

- ألم تكن مكتئبة؟

- بل كانت عصبية، ويمكن أن تؤدي بها حالتها تلك إلى الانتحار إن كانت تفكر في ذلك. يمكن أن يعطيها ذلك شعوراً بالسعادة.

- هل تعتبرها قادرة على الانتحار؟

ران صمت شديداً، وظهرت الممرضة كارفن كأنها تجد

صعوبة في تكوين رأيها، وأخيراً قالت: حسناً، أنا... نعم، بشكل عام، لقد فقدت توازنها.

جاء دور السير يويد كارنغتون للشهادة، وقد ظهر أنه كان حزيناً ولكنه تقدم بشهادته بكل وضوح، لقد لعب اليوكيه مع المتوقفة تلك الليلة ولم يلاحظ أي علامة على اكتئابها عذبة، ولكن خلال محادثة سابقة ذكرت السيدة فرانكلين موضوع الانتحار. لم تكن امرأة أنانية قط، وقد ساء لها جداً أن تكون عقيمة في طريق زوجها، وكانت مخلصه جداً لزوجها ولطموحاته، وكانت مكتفية في بعض الأحيان بخصوصي بصحتها.

ثم استدعيت جوديث، ولكن ثم يكن لديها الكثير لقوله. لا تعرف شيئاً عن سرقة السم من المختبر، وفي ليلة المأساة بدت السيدة فرانكلين طبعية ولكن ربما كانت عصبية قليلاً. لم تسمع السيدة فرانكلين تحدث عن الانتحار قط.

كان ميركيول يوارو آخر الشهود. أدلى بشهادته بطريقة واثقة وبشكل أثار الإعجاب، ووصف محادثته مع السيدة فرانكلين في اليوم السابق لوفاتها. كانت مكتئبة جداً، وقد ذكرت أكثر من مرة رغبتها في إنهاء كل شيء. كانت قلقة بشأن صحتها واعترفت له بأنها تصيبها نوبات من الحزن الشديد عندما لا تبدو الحياة جذيرة بالعيش، وفي بعض الأحيان قالت إنه سيكون عظيماً لو استطاعت الذهاب إلى النوم ولم تصبح بعد ذلك أبداً.

وقد أدى ردّه التالي إلى إثارة أعظم حين سئل: هل كنت تجلس في العاشر من حزيران (يونيو) خارج باب المختبر؟

- نعم.

- هل رأيت السيدة فرانكلين خارجة من المختبر؟

- نعم.

- هل كانت تحمل شيئاً في يدها؟

- كانت يدها تقيض على زجاجة صغيرة.

- هل أنت متأكد من ذلك؟

- نعم.

- هل ظهر عليها الارتباك عندما رأته؟

- بدا أنها فوجئت، هذا كل شيء.

تابع المحقق تلخيصه. يجب أن يقرر المحلفون كيف ماتت الضحية، ولن يكون صعباً تحديد سبب الوفاة فقد أخبرهم الدليل الطبي بذلك، وكل ما عليهم هو أن يقرروا إن كانت قد أخذت السم عمداً أم بطريق الخطأ. لقد سمعوا أن المتوقفة كانت تُصاب بنوبات من الحزن الشديد نتيجة لاعتلال صحتها، وفي حين لم يكن لمرضها سبب عضوي فقد كانت في حالة صحية سيئة، وقد أكد السيد يوارو، الشاهد الذي يحمل اسمه وزناً كبيراً، أنه رأى السيدة فرانكلين خارجة من المختبر ويدها زجاجة صغيرة، وقد فوجئت برؤيته.

يمكنهم أن يستنتجوا أنها أخذت السم من المختبر بتهمة الانتحار. لقد كانت تعاني من اعتقاد راسخ بأنها حجر عثرة في طريق زوجها وأنها تعوق تقدمه، ومن العدل للدكتور فرانكلين

القول بأنه كان زوجاً عطوفاً محباً وأنه لم يشك يوماً من ضعف صحتها أو من كونها عقيمة في طريق تقدمه، ويبدو أن هذه كانت فكرتها وحدها. النساء في ظروف معينة من الانهيار العصبي تصبهن مثل هذه الأفكار.

لم يُعْمَ دليل على كيفية أخذ السم، ومن غير الطبيعى أن لا يُعْمَ على الزجاجة التي احتوت السم، ولكن من المحتمل -كما قالت الممرضة كارفن- أن تكون السيدة فرانكلين قد غسلت الزجاجة ووضعتها في خزانة الحمام من حيث أخذتها أصلاً. وعلى المحلفين أن يقرروا.

تم التوصل إلى الحكم بعد فترة مداولة قصيرة، فقد وجد المحلفون أن السيدة فرانكلين قتلت نفسها في لحظة جنون.

-٣-

بعد نصف ساعة كنت في غرفة بوارو، وقد بدأ مرهقاً جداً. وضعه كيرتس في فراشه وكان يحاول مساعدته، وكنت متحزقاً للكلام لكنني انتظرت حتى غادر الخادم الغرفة، ومن ثم اندفعت قائلاً: هل كان ما قلته صحيحاً يا بوارو؟ هل حقاً رأيت زجاجة في يد السيدة فرانكلين عندما خرجت من المعمل؟

لاحظت ابتسامة خفيفة على شفتي بوارو المُزَّقَّتَيْنِ وغمغم: هل رأيتها أنت يا صديقي؟

- لا، لم أراها.

- ولكن ربما لم تلاحظ، اليس كذلك؟

- بلى، ربما لم ألاحظ. لا أستطيع القطع شخصياً بأنها لم تكن معها.

ونظرتُ إليه بشك وسألته: السؤال الآن هو: هل أخبرتهم بالحقيقة؟

- وهل تعتقد أنني سأكذب يا صديقي؟

- هذا ليس بعيداً عنك.

- هيستغز، أنت تثير دهشتي! أين ثقتك البسيطة؟

اعترفت له بما في نفسي وقلت: حسناً، لا أعقد أنك ستكذب أمام المحكمة.

فقال بوارو بخيخ: لن تُحسب كذبة لأنها لم تكن تحت القسم.

- إذن فقد كذبت؟

لوح بوارو بيده وقال: ما قلته قلته وقضي الأمر يا عزيزي، وليس من الضروري الخوض فيه.

صرخت بحدة: أنا لا أفهمك!

- ما الذي لا تفهمه؟

- دليلك... كل ذلك الكلام عن انتحار السيدة فرانكلين واكتئابها. لقد سمعتها بنفسك تقول ذلك، نعم، ولكن كان ذلك

واحداً من حالاتها النفسية، غير أنك لم توضح ذلك.

- ربما لم أرد ذلك.

حدثت إليه وقلت: هل أردت أن يكون الحكم موتاً بالانتحار؟

سكت بوارو قليلاً قبل أن يجيب: أعتقد أنك لا تقدّر خطورة الموقوف يا هينستغز. نعم، إذا كنت تريد ذلك: أردت أن يكون الحكم موتاً بالانتحار.

- ولكنك لا تعتقد أنها انتحرت، أليس كذلك؟

هز بوارو رأسه نفيّاً بيّطه فقلت: أعتقد أنها قُتلت؟

- نعم يا هينستغز، لقد قُتلت!

- لماذا تحاول تنطية الموضوع إذن؟ لماذا تحاول جعله يبدو وكأنها انتحرت؟ موقوف ذلك جميع التحريات.

- بالضبط.

- أتريد ذلك؟

- نعم.

- ولكن لماذا؟!

- أعتقد أنك لا تدرك! حسناً، لننوقف عن الخوض في هذا الأمر على أي حال. يجب أن تلقى بقولي إنها كانت جريمة قتل وإن جريمة أخرى ستُعرف هنا، ولم يكن من الممكن إيقافها لأن المجرم عديم الرحمة ومصّتم على القتل.

ارتعشت وقلت: وماذا سيحدث الآن؟

ابتسم بوارو وقال: لقد انتهت القضية؛ أُعطيَتْ رفاً ووضعت جانباً على أنها قضية انتحار، ولكننا، أنت وأنا، سنستمر بالعمل في الخفاء يا هينستغز، وعاجلاً أو آجلاً سنقبض على هذا القاتل.

قلت: افترض أن شخصاً آخر قُتل في هذه الأثناء، فماذا ستفعل؟

هز بوارو رأسه نفيّاً وقال: لا أعتقد ذلك، إلا إذا كان أحد قد رأى شيئاً أو سمع شيئاً. وهذا غير وارد لأنه لو كان أحد قد رأى شيئاً لذكر ذلك في شهادته.

* * *

الفصل الخامس عشر

-١-

ذاكرتي مشوشة قليلاً بخصوص أحداث اليوم التالي مباشرة
لوفاة السيدة فرانكلين. جرت مراسم الجنازة بالطبع وحضرها جمع
غفير من أهالي ستايلز سينت ميري الفضوليين، وفي هذه المناسبة
خاطبتني سيدة ذات عيني دامتني وأسلوب لا لياقة فيه، وقد
بادرتني بالكلام عندما كنا نخرج من المقبرة فقالت: أنا أتذكرك
يا سيدي، نعم.

— حسناً، من المحتمل أن...

لكنها تابعت دون أن تُصغي لما قلت: مضى أكثر من عشرين
عاماً منذ ماتت السيدة المعجزة. كانت تلك أول جريمة تحدث في
ستايلز، ولن تكون الأخيرة! أعني السيدة المعجزة (إنغلبورب، وقد
قلنا جميعاً إن زوجها هو الذي قتلها).

ونظرت إليّ بخبث وتابعت: من المحتمل أن يكون الزوج
أيضاً قد قتلها في هذه المرة أيضاً.

قلت بحدّة: ماذا تعنين؟ ألم تسمعي الحكم الذي أوجع سبب الموت إلى الانتحار.

وخزنتي في جانبي قائلة: كان هذا ما قاله المحقق، لكن من الممكن أن يكون مخطئاً. الأطباء ماهرون بالتخلص من زوجاتهم، ولم تكن مناسبة له على ما يبدو.

التفت إليها بغضب ولكنها تركتني ومشت بعيداً تتمتع لنفسها بأنها لم تقصد شيئاً، قائلة إن منّاثير الاستغراب أن تحدث للمرأة الثانية! وللحظة مذهشة فكرت بأنها تنهمني بارتكاب الجريمتين! لقد كان ذلك مزعجاً جداً ولكنه جعلني أدرك كم هي غريبة شكوك الناس المحللين! مع ذلك فلم تكن بعيدة عن الحقيقة لأن أحدهم قتل السيدة فرانكلين، وكما قلت فانا أتذكر القليل عن تلك الأيام.

كانت صحة بوارو تقلقني جداً، وقد جاء كيرتس إليّ بوجهه الجامد مزعجاً ليخبرني بأن بوارو أصيب بنوبة قلبية خفيفة، ثم قال: يبدو لي أنه بحاجة إلى طبيب يا سيدي.

ذهبت بسرعة إلى بوارو الذي رفض الفكرة بشكل قاطع. ولم يكن ذلك من صفاته بل كان دائماً يهتم بصحته فيما أعلم؛ فهو ينحاشي التيارات الهوائية ويلفّ رقبته بالصوف، وكان يتزعج جداً إذا ابتلّت قدماه ويفسد درجة حرارته ثم يأوي إلى الفراش عند أول ظاهرة برد محتمل، وكانت فكرتي عنه أنه يستشير الطبيب فوراً في كل حالة مرضية مهما كانت بسيطة.

والآن وهو مريض حقاً بنعكس الوضع! فهل يكون مرضه الحقيقي هو السبب في ذلك؟ الأمراض الأخرى كانت عدبة

الأهمية، أما الآن وهو رجل مريض فربما خشي أن يعترف بحقيقة مرضه واستخفّ به لأنه كان خائفاً منه.

أجاب بوارو على احتجاجاتي بحوية ومراوة قائلاً: لكنني استشرت الأطباء، ليس واحداً بل عدة، وقد ذهبت إلى طبيبين اختصاصيين من كبار الأطباء، وماذا عملاً؟ أرسلاني إلى مصر لئسره صحي. وقد ذهبت إلى أخصائي قلب أيضاً.

سألته بسرعة: وماذا قال؟

دمقني بوارو بنظرة جانبية جعلت قلبي يقفز بعنف، ثم قال يبدو: لقد عمل ما يستطيعه من أجلي. لديّ علاجي وأدويتي قريبة مني، ولا شيء أكثر من هذا! لذلك فإن استدعاء المزيد من الأطباء لن ينفع. الآلة تهزم يا صديقي، ولا يستطيع المرء تركيب آلة جديدة كالسيارة ليبدأ من جديد.

- لكن اسمع يا بوارو، لا بد أن في الأمر شيئاً. إن كيرتس...

قال بوارو بحدّة: كيرتس؟!

- نعم، لقد جاء إليّ قللاً وقال إنك أصبت بنوبة قلبية.

أوماً بوارو برأسه بلطف وقال: نعم، نعم؛ نحدث بعض الاضطرابات أحياناً، وهي مؤلمة لمن يشاهدها. إن كيرتس غير معناد على رؤية نوبات القلب.

- أئن تذهب إلى الطبيب؟

- لا فائدة يا صديقي.

في اليوم التالي قال لي بوارو: لقد اقترحت أن أذهب لرؤية الطبيب يا هينتز.

قلت بحرارة: نعم، سأشعر بسروو بالغ إن فعلت.

.. حسناً، سأوافق، سأرى فرانكلين.

نظرت إليه بشك وقلت: فرانكلين؟!

- اليس طيباً جيداً؟

- بلى، ولكنه مختص في الأبحاث، اليس كذلك؟

- بلى، بلا شك، ولن ينجح طبيباً عاماً على ما اعتقد؛ فليس لديه ما يسمى «آداب السرير»، لكنه مؤهل في الحقيقة يجب أن أقول كما يقولون في الأفلام: «إنه يعرف موضوعه أكثر من الآخرين».

لم أنتع بما قاله، ومع أنني لم أشك في مقدرة فرانكلين إلا أنني اعتقدت دائماً أنه رجل عديم الصبر وغير مهتم بالأمراض البشرية. من الممكن أن يكون هذا موضع إعجاب في مجال الأبحاث ولكنه ليس جيداً لأي مريض يعالجه. على أية حال كان ذلك تنازلاً من جانب بوارو حيث لم يكن له طبيب خاص.

وافق فرانكلين على فحص بوارو ولكنه أوضح أنه إذا كانت هناك حاجة لعناية طبية روتينية فمن الواجب استدعاء الطبيب المحلي، حيث إنه لن يكون قادراً على الاعتناء به شخصياً. وقد

كان يتكلم بهدوء ولكن بطريقة حاسمة، وقد جعلني ذلك أشعر بضيق شديد في صدري مرة أخرى. إنسم لي بوارو وقال: ستكون هذه آخر قضية لي يا هينتز، وستكون الأكثر إثارة أيضاً، وسيكون المجرم الأكثر إثارة لأن السيد «س» يمتلك أسلوباً مميزاً ورائعاً، وهذا يدعو إلى الإعجاب على الرغم من كل شيء. لقد استطاع أن يهزمني حتى الآن بأساليبه التي عمل بها يا عزيزي، أنا ميركيول بوارو! لقد طوّر هجومه بشكل لا أستطيع مناصته.

قلت مخففاً عنه: لو كانت صحتك جيدة...

وعلى ما بدا فلم يكن ذلك مناسباً قوله؛ فقد ثار غضب ميركيول بوارو وقال: ألم أقل لك سنأ ثلاثين مرة وسناً وثلاثين مرة أخرى إنه ليست بي حاجة إلى العمل الجسدي؟ يحتاج الشخص إلى التفكير فقط.

- حسناً، بالتأكيد، نعم، تستطيع ذلك بشكل مناسب.

- مناسب؟ بل أستطيع ذلك باقتدار. أطرافي مشلولة وقلبي عليل، لكن عقلي يعمل بلا علة من أي نوع يا هينتز؛ عقلي ما زال من الصنف الممتاز.

قلت محاولاً تهدئته: هذا عظيم.

لكنني فكرت حينما كنت متجهاً إلى الطابق السفلي بأن عقل بوارو لم يكن يستوعب الأشياء بنفس سرعته المبهودة؛ فأولاً نجاة السيدة لائريل والأذن وفاة السيدة فرانكلين، وماذا كنا نعمل حيالهما؟ لا شيء..

أمضى فرانكلين وقتاً طويلاً في فحصه، وكنتُ في انتظاره عندما خرج في النهاية فسحبته إلى غرفتي وأغلقت الباب ثم سأله بقلق: حسناً، ما الأمر؟

قال فرانكلين بعد تفكير: إن بوارو رجل مميز.

تجادلت هذه الحقيقة الواضحة وقلت: آه، نعم، ولكن كيف صحته؟

قال فرانكلين وقد بدا مدهوشاً وكأني لم أذكر أي شيء مهم: آه، صحته؟ صحته سيئة طبعاً.

لم تكن تلك هي الطريقة المهنية الصحيحة لوصف الحالة حسب اعتقادي، لكنني سمعت من جوديث أن فرانكلين كان من ألمع الطلاب في وقت فسادت بقلق: سيئة إلى أي درجة؟

روماني بنظرة لم قال: أتريد أن تعرف؟

- طبعاً.

وماذا كان يقطن هذا الغني؟ ثم أخبرني في الحال فقال: معظم الناس لا يريدون أن يعرفوا، يريدون جرعة مخففة، يريدون أملاً، يريدون تأكيدات بأن الأدوية متشفيهم، وبالطبع قد تحدث معجزة ويشفون ولكن هذا لن يحدث في حالة بوارو.

- هل تعني...؟

ومرة أخرى شعرت بضيق في صدري، وأوماً فرانكلين وقال: بوارو على وشك الموت بالتأكيد، وفريقاً جداً كما أظن. لم

يكن بإمكانني إخبارك لو لم يسمح لي بوارو بذلك.

- إذن فهو يعرف هذا؟

- إنه يعرف تماماً أن قلبه يمكن أن يتوقف في أية لحظة. بالطبع لا يستطيع المرء أن يخمن الوقت بالتحديد.

توقفت لحظة ثم قال ببطء: لقد استسجبت ممّا قاله أنه قلبي بخصوص أمر ما، شيء مشغلي به كما قال. هل تعرف شيئاً عن ذلك؟

قلت: نعم، أعرف.

رمقني فرانكلين بنظرة اهتمام وقال: إنه يريد إنهاء المهمة.

- حسناً، أنا أدرك ما تعني.

تساءلت في نفسي إن كان جون فرانكلين يعرف المهمة! ثم قال ببطء: أتمنى أن ينال مراده، فهذا يعني الكثير له كما قال.

وتوقفت لحظة ثم تابع: إن لديه عقلاً منطقياً.

سألت بقلق: ألا يمكن عمل شيء لعلاجه؟

هز رأسه نقياً وقال: "لا شيء". لديه الكثير من الكبسولات التي يمكن أن يستخدمها إذا شعر بتوية قادمة. ثم قال ببطء: بوارو يقلّر الحياة البشرية، أليس كذلك؟

كان سؤاله مثيراً للفضول فقلت: بلى، أعتقد ذلك.

لقد سمعت بوارو مرات عديدة يقول إنه لا يوافق على

الجريمة. هذه الجملة البسيطة التي قبلت بعناية لعبت بعواطفني بشدة، في حين تابع فرانكلين: هذا هو الفرق بيننا، فأنا لا أقدر الحياة البشرية.

نظرت إليه بفضول وقد أمال رأسه بإتسامة ياهنة ثم قال: صحيح تماماً. إذا كان الموت لا بد أن يأتي فما الفرق بين مجيئه أجلاً أو عاجلاً؟ فرق ضئيل جداً.

سألت بغضب: إذن ما الذي جعلك تدوس العلب إذا كان شعورك هكذا؟

- عزيزي هيتنغر، ليس الطب لإطالة الحياة فقط بل لتحسين نوعيتها أيضاً. إذا مات رجل وهو في صحة جيدة فهذا لا يهم كثيراً، أما إذا مات رجل مُقْعَد أو غليل فهذا أمر حسن، وإذا كان إعطاء الدواء المناسب سيحول مُقْعَدَكَ إلى فرد معافى بتحسين غده مثلاً فهذا مهم جداً.

نظرت إليه باهتمام أكثر وما زلت أشعر بأنني لن أستدعي الدكتور فرانكلين إذا أصابني البرد، ولكنني قدّرت كثيراً جديته العميقة وقوته الداخلية. لقد لاحظت تغيّراً فيه منذ وفاة زوجته، حيث لم يُبد أي مظاهر حزن مألوفة، بل كان -على العكس من ذلك- مليئاً بالحياة والحيوية، ولم يكن يغائب الذهن كالمتعاد.

قال فجأة قاطعاً أفكارني: لا تشابه بينك وبين جوديث، أليس كذلك؟

- بلى، لا أعتقد أننا متشابهان.

- أتشبه أمها؟

فكرت ملياً ثم هزّزت رأسي ببطء نفيّاً وقلت: ليس بالضبط؛ فقد كانت زوجتي تشوشة ضاحكة ولم تكن تحمل أي شيء على محمل الجدّ، وقد حاولت أن تجعلني مثلها لكنها لم تنجح في ذلك للأسف.

ابتسم يفتور وقال: نعم، أنت أب صارم كما تقول جوديث، ليس كذلك؟ جوديث فتاة جادة لا تضعك كثيراً بسبب كثرة العمل كما أعتقد، وهذا ذنبي.

وبدأ يتكلم عن عمله فقلت بطريقة تقليدية: لا بد أن عملك مشير جداً.

- ماذا؟

- قلت إن عملك لا بد وأن يكون مشيراً.

- فقط لحقنة من الناس، ومعملٌ جداً للبقيّة العظمى، وربما كانوا على حق. على أية حال...

ودفع برأسه إلى الوداء وبدأ رجلاً عظيم الهيئة مليئاً بالحيوية وهو يقول: لقد سنحت قرصتي الآن، يا إلهي! أستطيع الصراخ الآن. لقد أخبرني معهد المنستر اليوم بأن الوظيفة لا تزال موجودة، وسأبدأ العمل خلال عشرة أيام.

- هل سسافر إلى أفريقيا؟

- نعم، يا لها من فرصة عظيمة!

وشعرت بالصدمة قليلاً فقلت: بهذه السرعة؟

حذق إليّ ذهناً وقال: ماذا تعني بسؤالك؟ آه، لقد فهمت.

وانفشت نكشيره وقال: أنعني بعد موت باربرا؟ لِمَ لا؟ ليس من الملمات الظاهر بأن موتها لم يكن أعظم خلاص لي.

بدا مذهوشاً للتعبير الذي ظهر على وجهي وقال: ليس لديّ الوقت للاعتبارات التفليدية. لقد أحبيت باربرا وكانت فتاة جميلة جداً، وتزوجتها ثم لم أجد أحياناً بعد سنة من الزواج. لا أعتقد أن حيي لها امتدّ حتى هذه الفترة. لقد كنت خيبة أمل لها طبعاً، وقد فكّرت بأنها تستطيع التأثير فيّ ولكنها لم تستطع لأنني أناهي فاس أعمل ما أريد.

ذكرته قائلاً: ولكنك رفضت هذه الوظيفة في أفريقيا مراعاة لها؟

- نعم، لقد كان ذلك من ناحية مادية فقط، فقد تمهدت لباربرا بأن أوفر لها حياة مريحة كالتي اعتادتها، ولو ذهبت إلى أفريقيا لما استطعت توفير ذلك لها.

ثم اتسم انبساماً طغولية صريحة وهو يتابع: لقد تحول الحظ إلى جانبي.

أثار ذلك شعوري بالغثبان. أعتقد أنه يصح القول إن كثيرين من الرجال الذين نموت زوجاتهم لا يشعرون بالحزن فعلاً (والكل تقريباً يعرف هذه الحقيقة)، لكن فرانكلين بالغ في الصراحة.

ورأى التعبير على وجهي ولكن ذلك لم يثني قلتي بحدة: ألا يقلبك أن زوجتك قتلت نفسها؟

ففكر لحظة ثم قال: لا أصدق أنها قتلت نفسها حقاً، هذا يعيد عن الحقيقة.

- ماذا تظنه قد حدث إذن؟

- لا أدري، ولا أعتقد أنني أريد أن أعرف. أنفهمني؟

حدثت إليه فوجدت عينيّه قاسيتين باردتين، وقال مرة أخرى: لا أريد أن أعرف، لست مهتماً بأن أعرف. ألا ترى؟

لقد فهمت ما يقصده ولكنه لم يعجبني، لم يعجبني مطلقاً.

- ٣ -

لا أدري بالضبط متى لاحظت أن شيئاً ما يشغل تفكير سنيغن نورثون. كان صامتاً بعد انتهاء جلسة التحقيق وبعد الجائزة حيث كان يسير يميناً مقطّب وعينين منكسيتين، وكان من عادته أن يمرر أصابعه في شعره حتى يتصعب. لقد كان ذلك مضحكاً ويوحى بتوهم من الارتباك.

عندما كلمته أجاب إجابات تنم عن شروده، وقد خطر بباله أن شيئاً ما لا بد أن يكون قد اقلقه في الفترة الأخيرة. سألته بلطف إن كان قد سمح أخيراً سبباً من أي نوع لكنه أجاب بالنفي، وقد أنهت إجابته هذا الموضوع. ولكن بدا بعد وقت قصير وكأنه يحاول استشارتي في موضوع معيّن مستخدماً اللف والدوران بطريقة

سخيته، وكما كان يتعلم دائماً عندما يريد الكلام في موضوع جاد فقد بدأ يحكي لي قصة تركز في نقطة أخلاقية فقال: أتعلم يا هيسنغز؟ من المفروض أن يكون الكلام عن الصواب والخطأ سهلاً، ولكنه ليس كذلك في الحقيقة عندما توضع في تجربة عملية، أعني أن المرء قد يرى -مصادفة- شيئاً معيَّناً ليس من المفترض فيه أن يراه، وهو الشيء نفسه الذي لا تستطيع استخدامه لصالحك، ومع ذلك فقد يكون مهماً جداً، هل تفهم ما أعني؟

فاعترفت قائلاً: ليس تماماً في الحقيقة.

قطب نورتون حاجبيه ومن بأصابعه في شعره بطريقة جعلت شعره يقف بطريقة مضحكة وقال: من الصعب جداً تفسير الأمر. ما أعنيه هو... حسناً، لنفترض أنك رأيت شيئاً في رسالة خاصة فتحت بطريق الخطأ، الرسالة موجهة لشخص آخر، ولكنك فتحتها بطريق الخطأ وبدأت تقرأها لأنك كنت تظن الرسالة موجهة لك قبل أن تلاحظ أنها ليست لك، هذا يمكن أن يحدث كما تعلم.

- بالطبع يمكن أن يحدث.

- حسناً، ماذا يمكن للشخص أن يفعل؟

تكررت بالمسكلة ثم قلت: حسناً، أظن أن من الواجب أن نذهب إلى ذلك الشخص ونعتذر له لأنك فتحت رسالته بطريق الخطأ.

نهد نورتون وقال: ليس الأمر بهذه السهولة! من الممكن أن تكون قد قرأت شيئاً محرراً يا هيسنغز.

- تعني أن ذلك سيخرج الشخص الآخر؟ أظن أنك ستظاهر بأنك لم تقرأ أي شيء. وأنت اكتشفت خطأك قبل فوات الأوان.

قال نورتون بعد دقيقة صمت وقد بدا أنه لم يشعر أنه وصل إلى حل مقبول: "نعم"، ثم قال بلامبالاة: أتمنى أن أعرف ما يجب عمله.

قلت: أنا لا أرى أي حل آخر.

قال نورتون وما زال الارتباك بادياً عليه: أترى يا هيسنغز؟ هناك أكثر مما هو ظاهر. افترض أن ما قرأته كان مهماً جداً لشخص آخر، أعني...

فقدت صبري فقلت بحدة: يا إلهي يا نورتون! لا أفهم ما تقصده. إنك لا تستطيع الاستمرار في قراءة رسائل الآخرين، ليس كذلك؟

- بلى، بلى، بالطبع لم أقصد ذلك، ولم تكن رسالة على أية حال. قلت ذلك فقط لأحاول تفسير شيء آخر مشابه. بالطبع أي شيء رأته أو سمعته أو قرأته ستحفظ به لنفسك، إلا...

- إلا ماذا؟

قال نورتون ببطء: إلا إذا كان شيئاً يجب عليك الكلام بشأنه.

نظرت إليه باهتمام فتابع: اسمعني، افترض أنك رأيت شيئاً خلال ثقب المفتاح.

الكلام عن ثغوب المفاتيح جعلني أفكر في بوارو. بدأ نورتون

بالتلصص قائلاً: ما أعنيه أنه إذا كان عندك سبب جيد للنظر من خلال ثقب الباب، مثلاً إذا انحسر المفتاح ونظرت لترى سبب انحساره ولم نظن أبداً أنك ستري ما رأيته.

واللحظة أو اثنتين فقدتُ خيطَ جملة العنصرة لأنني تذكرت فجأةً يوم كنّا نتمشى معاً حينما كان نورتون يراقب نقار الخشب بمنظاره، وقد تذكرت مدى انزعاجه وارتباكهِ ومحاولته منعي من النظر بالمنظار. في تلك اللحظة اعتقدتُ أن ما رأيته كان شيئاً يخصني، وأنه في الحقيقة رأيتُ جوديث وألبرتون، لكن لتفرض أنه لم يَرهما بل رأى شيئاً مختلفاً، وأتني ظننتُ أنه أمرٌ يخص جوديث وألبرتون لأنني كنت منشغلاً بالتفكير فيهما في ذلك الوقت ولم أستطع التفكير في أي شيء آخر.

قلت فجأةً: هل كان شيئاً رأيته بمنظارك؟

بدا نورتون وكأن حملاً ثقيلاً قد أزيل عن كاهله وقال: كيف تخمن ذلك يا هيبستغز؟

- كان هذا في ذلك اليوم عندما كنّا أنت وأنا وإليزابيث كول نتمشى عند تلك الهضبة، أليس كذلك؟

- بلى، هذا صحيح.

- ولم تكن تريدني أن أرى؟

- نعم، لم تكن... أعني أنه لم يكن من المفترض لأحد أن

يرى.

- ماذا رأيته؟

قطب نورتون حاجبته مجدداً وقال: هذه هي معضلتي. هل أستطيع القول؟ أعني أنه كان... حسناً، لقد كان تجسّساً. رأيته شيئاً لم يكن من المفترض أن أراه، لقد كان هناك حقاً تقار غشيب، ثم رأيته شيئاً آخر.

وتوقف عن الكلام وقد أثار فضولي بشدة، ومع ذلك احترمت حيرته وسألته: هل كان شيئاً مهماً؟

حملني ببطء وقال: من الممكن أن يكون مهماً، وتلك هي المعضلة! لا أدري.

فأنت: هل لهذا الشيء علاقة بموت السيدة فرانكلين؟

فحملني بي وقال: غريب أن نقول ذلك!

- إذن فالأمر كذلك؟

فقال ببطء: لا، لا، ليس بشكل مباشر، ولكن من الممكن أن يكون كذلك، يمكن لما رأيته أن يلقي ضوءاً مختلفاً على أشياء محددة، يمكنه أن يعني... يا إلهي! لا أدري ما ينبغي أن أفعل.

كنت في حيرة من أمري والفضول يلتهمني، ومع ذلك شعرت بأن نورتون متردد جداً في إخباري بما رأى، وقد قدّرت ذلك وكنت سأشعر بشعوره نفسه لو كنت مكانه. من المكروه أن تكون لديك معلومات اكتسبتها - حسب اعتقاد الناس - بطرق ملتوية.

خطرت بيالي فكرة فعرضنها على نورتون قائلاً: لماذا لا
تستشير بوارو؟

بدا نورتون منشككاً وهو يقول: بوارو؟

- نعم، أسأله نصيحته.

قال نورتون ببطء: حسناً، إنها فكرة جيدة. لكنه أجنبي!

وتوقف محزناً وقد فهمت ما قال. كنت أعرف تماماً تعليق
بوارو الحاد على مسألة الانغماس في اللعبة، وقد نعيبت لماذا لم
يفكر بوارو في استعمال المنظار لمراقبة العلبور؟ كان سيفعل ذلك
بالأكيد لو فكر به. شعجت نورتون قائلاً: سيحترم خصوصيتك
واتمانك له، ولا حاجة بك للأخذ بنصيحته إن لم تُرد.

قال نورتون بعد أن زالت تقطعية وجهه: هذا صحيح. أنعلم
يا هيستنغز؟ سأفعل ذلك بالتأكيد.

- ٤ -

أدهشني رد فعل بوارو على المعلومات التي أخبرته بها حيث
هتف قائلاً: ما هذا الذي تقوله يا هيستنغز؟!

وأسقط قطعة الخبز من يده ودفع برأسه إلى الأمام وأكمل
قائلاً: أخبرني، أخبرني بسرعة.

أعدت عليه الفصاة فردّ بوارو بعد تفكير: رأى شيئاً ما في ذلك
البرم بمنظاره، شيئاً لن يخبرك به؟

واندفعت يد بوارو ممسكة بذراعي وقال: ألم يخبر أحداً بذلك؟

- لا اظنه أخبر أحداً، أنا متأكد من أنه لم يفعل.

- كن حذراً يا هيبستنغز؟ من الضروري أن لا يخبر أحداً بذلك. يجب أن لا يلمح لأحد بذلك لأن هذا قد يضعه في موقف خطير.

- موقف خطير؟

- نعم، خطير جداً.

كان وجه بوارو وقوراً وهو يتابع قائلاً: رتب معه يا صديقي لمقابلتي هذا المساء. مجرد زيارة عادية لصديق، ولا تدع أحداً يشك بأن لهذه الزيارة سبباً آخر. وكن حذراً جداً يا هيبستنغز، كن حذراً جداً، من كان معكم في ذلك الوقت؟

- إلبرايث كول.

- هل لاحظت شيئاً غريباً بخصوص تصرفها؟

حاولت أن أتذكر ثم قلت: لا أدري، ربما لاحظت. هل أسألكها إذا...؟

- لن تقول شيئاً يا هيبستنغز، لا شيء مطلقاً.

* * *

الفصل السادس عشر

-١-

أخبرت نورنون برسالة بوارو فقال: سأذهب لرؤيته بالتأكيد،
لكن أتدري يا هيسنغز؟ أنا آسف لأنني ذكرت الأمر لك.

- أنت بالطبع لم تذكر الأمر لأحد سواي؟

- بالطبع لم أذكره لأحد.

- هل أنت متأكد؟

- طبعاً، لم أذكر أي شيء.

- حسناً، إنك إن تفعل، ليس قبل أن ترى بوارو.

لاحظت التردد في نبرة صوته عندما أجاب أول مرة، ولكن
كانت نبرة التصميم واضحة في تأكيده الثاني، ولقد ذكرت ردة هذا
فيما بعد.

-٢-

ذهبت مرة أخرى إلى المرتفع العشبي حيث كنا ذلك اليوم،

وكان شخص آخر قد سبقتني إلى المكان، إليزابيث كول. وقد أدبرت رأسها حين صعدت الممر وقالت: تبدو منفعلًا يا كابتن هيمستنغز، هل من مشكلة؟

حاولت تهدئة نفسي وقلت: "لا، أبدًا، أنا ألث لأني كنت أمشي مسرعًا". ثم أضفت بصوت طبيعي: ستمطر اليوم.

فتنظرت إلى السماء وقالت: نعم، أعتمد ذلك.

روقفنا صامتين لمدة دقيقة أو اثنتين. في هذه المرأة شيء يجعلك تشعر بالشفقة نحوها، ومنذ أبلغتني بهويتها وحدتني عن القضية التي حطمت حياتها وأنا أشعر بالشفقة عليها؛ فإن رابطة قوية تربط - عادة - أي شخصين يوران بالظروف الشعبة نفسها، ولكن أظن أنه كان هناك جانب آخر بالنسبة لها. قلت باندفاع: أنا لست منفعلًا، ولكنني سمعت أخباراً سيئة بخصوص صديقي.

- السيد بوارو؟

جعلني اهتمامها العطف أنخلص من أثقالي نفسي وأوضح لها الأمر كله، وعندما انتهيت قالت بنعومة: أنا أقدر الموقف، ولكنك تعلم أن النهاية ستأتي في وقت ما.

أومأت برأسي عاجزاً عن الكلام، وبعد دقيقة أو اثنتين قلت: وعندما يموت سأكون وحيداً في هذا العالم.

- لا، فمندك جوديث وأولادك الآخرون.

- أبنائي مشغولون حول العالم. أما جوديث فلها عملها ولن تحتاج إلي.

- أوافقك على ذلك؛ لا يحتاج الأبناء آباءهم إلا إذا وقعوا في المتاعب. هذه قاعدة أساسية. أنا وحيدة أكثر منك فأختاي بعيدتان عني، إحداهما في أمريكا والأخرى في إيطاليا.

قلت: يا ابنتي، ما زالت حياتك في بدايتها.

- وأنا في الخامسة والثلاثين؟

قلت: وما الخامسة والثلاثون؟ لبيتي كنت في الخامسة والثلاثين؟

ثم أضفت بمكر: وأنا لست أعمى كما تعلمين.

رمقتني بنظرة متسائلة لحظة، ثم احمرت وجهها وقالت: لا تذهب بظنونك بعيداً؛ أنا ومستيفن نووتون مجرد صديقين، ونحن متشابهان في كثير من الأمور.

- هذا أفضل.

- نووتون شخص طيب جداً.

- عزيزي، لا تصدقي بأن كل ذلك طيبة، فليس هذا من طبيعتنا نحن الرجال.

شحب وجه إليزابيث كول فجأة وقالت بصوت منخفض فلق: أنت قاس؛ كيف يمكن أن أفكر أبداً بالزواج بتاريخني الحافل وأختي مجرمة أو مختلة عقلياً، ولا أدري ما الأضرار التي...

قلت بقوة: لا تدعي ذلك ينهش عقلك، وتذكرني بأنه قد لا يكون صحيحاً.

- ماذا تعني؟ بل هو صحيح.

- ألا تذكرين أنك قلت لي يوماً إنها ليست طيبة ماغي.

حبست أنفاسها وقالت: من يعرفها يحس بذلك.

- إحساس المرأة هو الصحيح عادة.

حملت إلي ثم قالت: ماذا تعني؟

- أعني أن أختك لم تفعل أباه.

لرفعت يدها إلى نهما تلقائياً واتسعت حدقتها وقد لاح فيهما الخوف، ونظرت إلى عيني مباشرة وقالت: أنت مجنون، لا بد أن تكون مجنوناً! من أخبرك بذلك؟

قللت: لا يهم من أخبرني، ولكنه صحيح، وسأثبت لك ذلك يوماً ما.

- ٣ -

لقيت بويد كانغتون قرب المنزل مصادفة فقال لي: عذبة ليلي الأخيرة هنا، وسأغادر غداً.

- إلى «تاتون»؟

- نعم.

- لا بد أن هذا مثير لك.

تنهد ثم قال: أعتقد ذلك، وعلى أي حال فليس لدي مانع من إخبارك بأنني سأكون مسروراً بالرجيل من هنا.

- نعم، فالطعام رديء والخدمة سيئة.

- ثم أقصد ذلك، وعلى أي حال فالمكان هنا رخيص ولا يمكن أن تترقب الكثير من بيوت الضيافة هذه. لا يا هيستنغز، أنا أعني أكثر من الراحة، أنا لا أحب هذا المنزل لأن له تأثيراً شاملاً، فهنا تحدث أشياء سيئة.

- بالتأكيد تحدث أشياء هنا.

- لا أدري ما هي. لعل بيتاً ارتكبت فيه جريمة في السابق لن يكون البيت ذاته بعد ذلك أبداً. ولكنني لا أحبه، فأولاً حادثة السيدة لاتريل (ومن سوء الحظ أن يحدث هذا)، وبعد ذلك المسكنة باربرا.

وتوقف قليلاً ثم تابع: يمكنني القول إنها آخر شخص في العالم يمكن أن يفكر بالاتجار.

ترددت قبل أن أقول: لا أعلم إن كنت أوافقك الرأي في هذا، ولكن...

فقاطعتني قائلاً: حسناً، يمكنني قول ذلك. لنستعرض الأحداث معاً: لقد كنتُ معها طوال اليوم السابق، وكانت مريحة واستمتعت بزهنتها معاً، والشيء الوحيد الذي كان يقلقها هو انغماس زوجها في تجاربه التي قد تنهكه أو احتمال أن يحاول إجراء بعض التجارب على نفسه، أنت تعلم ما أفكر به يا هيستنغز؟

- إن زوجها مسؤول عن وفاتها، فقد كان يضايقها على ما أظن. لقد جعلها تعتقد أنها حجر عثرة في طريق مستقبله فدفنوها ذلك. هذا الملعون القاسي لم تهتز له شعرة، وقد أخبرني بكل برود أنه ذاهب إلى أفريقيا. أتعلم يا هيستنغر؟ في الحقيقة لن يدهشني أن يكون هو الذي قتلها.

قلت بحدّة: أنت لا تعني ذلك بالتأكيد.

- بالطبع لا أعنيه في الحقيقة، فأنا أعتقد أنه كان سيستخدم طريقة أخرى لو كان هو القاتل. لقد كان معروفاً أنه يجري تجاربه على تلك المادة المتآكلة الفايروستغمين، ولذلك فمن الواضح أنه لو أراد قتلها لاستعمل طريقة أخرى ولما استخدم هذه المادة، ولكن وبالرغم من كل شيء يا هيستنغر فليست الوحيد الذي يعتقد بأن فرانكلين موضع الشبهات، لقد أخبرني شخص يعرف...

سأنته بحدّة: من كان ذلك الشخص؟

نفض بويد كارنغتون صوته وأجاب: الممرضة كارفن.

وقد دهشت جداً من جوابه فهضت: من؟!

- اسكت، لا تصرخ. الممرضة كارفن أوحى لي بالفكرة. كارفن فتاة ذكية جداً كما تعلم وقوية الملاحظة، وهي لم تُعجب بفرانكلين، لم تُعجب به قط.

تعجبت لما قاله، وكان من المفروض أن أقول إن الشخص

الذي كرهته الممرضة كارفن هو مريضتها. وأدركت فجأة أن الممرضة كارفن لا بد أن تعرف الكثير من أسرار عائلة فرانكلين.

قال بويد كارنغتون: ستمكث الليلة هنا.

قلت بدهشة: ماذا؟

كنت أعرف أن كارفن قد غادرت بعد الجنازة مباشرة، وقد قتر بويد كارنغتون قوله قائلاً: مجرد ليلة واحدة حتى تنتقل إلى مريضها الجديد.

- آه، نعم.

واكتفتي شعور غامض بعدم السرور لم أدرك كنهه لعودة الممرضة كارفن، وقد تساءلت إن كان لعودتها سبب، فهي لم تكن معجبة بفرانكلين كما قال بويد كارنغتون. وقلت له محاولاً طمأنة نفسي: ليس من حقها القدح في فرانكلين؛ فبعد كل شيء فإن أدبتها هي التي أدت إلى تقرير أن الوفاة كانت نتيجة للانتحار. هذا بالإضافة إلى شهادة برالو عن رؤية السيدة فرانكلين خارجة من المختبر وفي يدها زجاجة صغيرة.

قررت بويد كارنغتون بحدّة: وماذا في حملها زجاجة؟ النساء يحملن زجاجات دائماً، زجاجات عطر وصبغة شعر ودهان أصناف... تلك المرأة المسكينة كانت تتجول حاملة زجاجة في يدها تلك الليلة، وهذا لا يعني أنها كانت تفكر بالانتحار، أليس كذلك؟ هذا كلام فارغ.

لذت بالصمت عندما انضم إلينا ألبرتون، وقد وافق صمتي

وبشكل سينمائي فمقعة رعد في البعد، واعتقدت (كما فعلت قبلاً) أن دور الشرير يتناسب أليرنون جداً. لكنه كان بعيداً عن المنزل ليلة وفاة باربرا فرانكلين، وبالإضافة إلى ذلك لم أر له دافعاً لقتلها، ولكنني فكرت مرة أخرى بأن السيد «س» لا دافع لديه أيضاً. كان ذلك موضع قوته، في حين كان هو، وهو فقط، موضع ضعفنا. ومع ذلك فقد تأتينا ومضة إلهام في أية لحظة تُلقى الضوء على الأحداث.

-٤-

أعتقد الآن (وأحب أن أسجل هذه الحقيقة هنا) أنني لم أفكر للحظة بأن بوارو يمكن أن يقتل، وفي الصراع بين بوارو والسيد «س» لم يخطر ببالي قط أن «س» سيكون المتصمر. وبالرغم من ضعف صحة بوارو وشبهوخته إلا أنني كنتُ مؤمناً بأنه الأقوى. ولقد اعتدت على تجاهه الدائم.

كان بوارو أول من زوع الشك في عقلي. وكنتُ قد ذهبت لرؤيته في طريقي إلى وجبة العشاء. لا أدري بالضبط ما الذي أدى إلى ذلك، لكنه استعمل فجأة عبارة «إن حدث لي شيء»، فاحتججت حالاً بصوت مرتفع وقلت: لن يحدث شيء، لا يمكن لأني شيء أن يحدث.

- حسناً، إذن فأنت لم تستمع باهتمام لما قاله لك الدكتور فرانكلين؟

- فرانكلين لا يعرف شيئاً، ما زالت أمامك بضع سنين

يا بوارو.

- محتفل يا صديقي، ولكنه غير مؤكد. أنا الآن أنكلم عن الأكثر احتمالاً، فقد أموت قريباً لكن هذا الاحتمال لن يكون كافياً للسيد «س».

- ماذا؟

قلتها وقد لاحظت الدهشة على وجهي نتيجة للصدمة، فأوما بوارو قائلاً: «إن «س» ذكي بالرغم من كل شيء يا هينسغز، ذكي جداً في الحقيقة، ولن يفوته أن التخلص مني حتى قبل موتي الطبيعي بضعة أيام فقط سيكون ذا فائدة لا تقدر بثمن.

أدهشني كلام بوارو قتلته: لكن ماذا سببحدث بعد ذلك؟

- عندما يسقط القائد فإن نائبه يأخذ مكانه يا عزيزي. سنأخذ أنت مكانتي.

- كيف يمكنني ذلك؟! أنا ما زلت لا أعرف شيئاً!

- لقد حسبت حساب ذلك. إذا حدث في أي شيء - يا صديقي - فستجد هنا جميع الأدلة التي تحتاج إليها.

قالها وهو يربّت على حقيبتيه البني وضعها بجانبه، ثم عاد يكمل: لقد احتطت لجميع الاحتمالات كما نرى. ليست بك حاجة لأن تكون ذكياً.

- حسناً أخبرني الآن بكل شيء تجب معرفته.

- لا يا صديقي، عدم معرفتك بما أعرفه هو مصدر قوة في

الحقيقة.

- هل تركت لي وثيقة مفصلة؟

- بالتأكيد لم أفعل، فمن المحتمل أن تقع في يد سيء.

- إذن ما الذي تركته؟

- أدلة لن تعني شيئاً للقاتل، ولكنها ستفودك إلى اكتشاف الحقيقة.

- لست متأكداً من ذلك. لماذا يجب أن يكون عقلك مثوباً بهذا الشكل يا بوارو؟ أنت تحب تعقيد الأمور دائماً لقد كنت كذلك طول عمرك.

- وأنا شغوف بذلك الآن، أليس هذا ما تؤذ قوله؟ لكن تأكد أن أدلني ستفودك إلى الحقيقة.

وتوقفت لحظة ثم تابع: وقد تمتنى لو لم تُفدك إلى هذا الحد، وربما نعتيت أن تقول: «أشيدل الستارة».

كان في صوته شيء ما أيقظ داخلي ذلك الشعور بالفرع، الشعور الذي أحسسته عدة مرات من قبل، وبدا كما لو كان شيء ما يبعداً عن مرمى البصر. حقيقة لم أكن أريد معرفتها ولا أستطيع الاعتراف بها، شيء ما أعرفه جيداً في داخلي نفسي.

وتخلصت من ذلك الشعور تدريجياً ثم نزلت لتناول طعام العشاء.

* * *

الفصل السابع عشر

- ١ -

كانت وجبة العشاء مريحة إلى حد معقول، وقد كانت السيدة لاتريل في غرفة الجلوس مرة أخرى حيث كانت في قمة مرحها الأيرلندي المصطنع، وكان فرانكلين أكثر حيوية وبشاشة من المعتاد، أما المحرصة كارفن فقد كانت المرة الأولى التي أراها فيها تلبس ثياباً عادية بدلاً من زي الممرضات، وقد بدت امرأة جميلة بحق بعدما طرحت تحفظها المهني جانباً.

اقتربت السيدة لاتريل لعبة ورق بعد العشاء. وقد ابتداء اللعب في النهاية، وفي نحو التاسعة والنصف أعلن نورتون عن نية زيارة بوارو. قال بوييد كارتنتون: فكرة جيدة؛ أشعر بالأسف لأنه لم يكن بصحة جيدة مؤخراً. سأتى معك للاطمئنان عليه.

كان يجب علي التصرف بحكمة فقلت: انتظر، أودجو أن لا نمانع ولكن بوارو يتعبه حقاً التحدث لأكثر من شخص في نفس الوقت.

وفهم نورتون مقصدي فقال: لقد وعدته أن أعيده كتاباً عن الطيور.

قال بويد كارنغتون: حسناً، هل ستعود يا هينستنز؟

- نعم.

وصعدت مع نورتون حيث كان بواردو ينتظروننا، وبعد أن تبادلنا بضع كلمات عدت إلى غرفة الجلوس حيث بدأنا لعب الورق. وأعتقد أن بويد كارنغتون كان منتهزاً من جو المرح الذي ساد «مستأبلاً» تلك الليلة، فربما فكّر أنه من المبكر أن ينسى الجميع ما حدث. لقد لعب بذهن غائب ونسي في بعض الأوقات ما كان يفعل. وأخيراً اعتذر عن اللعب وذهب إلى النافذة وفتحها. كان يمكن سماع صوت الرعد الآن من بعيد، وكان من الواضح أن عاصفة في طريقها إلينا ولكنها لم تصل بعد. ثم أعاد إغلاق النافذة ورجع إلينا ووقف يراقب اللعب لدقيقة أو اثنتين، ثم غادر الغرفة.

ذهبت إلى الفراش في نحو الحادية عشرة إلا أربع. ولم أذهب لرؤية بواردو؛ فقلعه يكون نائماً. وبالإضافة إلى ذلك فقد شعرت برغبة في عدم التفكير بستانلز ومشكلاته. أردت أن أنام، أنام وأنسى.

كنت على وشك النوم عندما تبهني صوت طنت أنه طريقة خفيفة على بابي، فناديت: «ادخل». لكنني لم أسمع رداً، فأشعلت الضوء ونظرت إلى الممر فرأيت نورتون يخرج من الحمام متوجهاً إلى غرفته. كان يلبس رداء، نوم مختللاً ذا ألوان بشفعة وكان شعره منتصباً كما هو حاله دائماً. ذهب إلى غرفته وأغلق الباب، وبعد

ذلك مباشرة سمعته يدير المفتاح في قفل الباب.

كانت العاصفة تقترب وكان يمكن سماع صوت رعد خفيف. وعدت إلى الفراش يساورني شعور بالقلق نتج عن سماعي صوت المفتاح يدور في القفل؛ لقد أوحى ذلك - ولو بشكل بسيط - باحتمالات شريفة. لماذا يفتل نورتون باب غرفته في أثناء الليل؟ هل حدّوه بواردو وطلب منه أن يفعل ذلك؟ وتذكرت - ببعض القلق - كيف اختفى مفتاح غرفة بواردو بطريقة غامضة.

استلقت في فراشي وغلقتي يزداد، وكان هدير العاصفة يزداد من شعوري بعدم الارتياح. وأخيراً نهضت وأقفلت باب حجرتي وعدت إلى فراشي ونمت.

-٢-

ذهبت لرؤية بواردو قبل نزولي لتناول طعام الفطور فوجدته ما يزال في فراشه، وقد فاجأني منظره العليل مرة أخرى. كانت تجاعيد عميقة بادية على وجهه نتيجة للتعب وكبر السن. قلت: كيف حالك أيها العجوز؟

لاح على وجهه تعبير باسم وقال: ما زلت حياً يا صديقي، ما زلت حياً.

- دون أي ألم؟

قال: «أنا نعيم فقط»، ثم تنهد ونابح: نعيم جداً.

أومأت قائلاً: حسناً، ماذا حدث في الليلة الماضية؟ هل أخبرك نورتون بما رأى ذلك اليوم؟

- نعم، لقد أخبرني.

- وما الذي رآه؟

نظر إليّ بوارو وقد فُكّر طويلاً قبل أن يرد: لست متأكداً إن كان من الواجب أن أخبرك، فمن الممكن أن نسي الفهم.

- ماذا تقول؟!

قال بوارو: أخبرني نورتون أنه رأى شخصين.

فصرخت قائلاً: جوديث والبرتون؟ لقد ظننتُ ذلك في حينه.

- حسناً، ليس جوديث والبرتون. ألم أخبرك أنك متسيء الفهم؟ أنت رجل ذو تفكير محدود.

فقلت: حسناً، أنا آسف، ولكن أخبرني إذن.

- سأخبرك غداً؛ فلدي الكثير للتفكير به.

- هل سيساعد هذا في القضية؟

أوماً بوارو برأسه ثم أغلق عينيه واسترخى على مسنده وهو يقول: لقد انتهت القضية، نعم؛ لقد انتهت. فقط يجب إنهاه بعض الأمور البسيطة. اذهب لتناول فطورك يا صديقي وابعث لي كيرتس.

فعلت ما طلبه مني حين ذهبت إلى الطابق السفلي لتناول طعام

الفطور، وقد أردت رؤية نورتون لأنني شعرت بالفضول لمعرفة ما أخبر به بوارو. كنت أحس بعدم السعادة لاشعورياً، فخلق صوت بوارو من البهجة لزعجني. لماذا كل هذا التكتيم؟ لماذا هذا الشعور بالحزن الذي لا يمكن تفسيره؟ ما حقيقة كل هذا؟

* * *

لم يكن نورتون موجوداً على مائدة الإفطار، وبعد الفطور تمشيت في الحديقة حيث كان الجو متعشاً وبارداً بعد العاصفة، وقد لاحظت أنها أمطرت بغزارة. كان بويد كارنغتون ينمش على العشب فسعدت لرؤيته كثيراً وتمنيت لو استطعت أن أضع يه ثقني. تمنيت ذلك دائماً، وقد ازداد الإغراء في تلك اللحظة حيث لم يكن بوارو نادراً على الاستمرار.

قال بويد كارنغتون: هل تأخرت في النهوض هذا الصباح؟

أومأت إيجاباً ثم قلت: نعم متأخراً.

- هل سمعت الرعد في الليلة الماضية؟

وتذكرت حينها أنني كنت واعياً في نومي، وقال بويد كارنغتون: لقد أحسست بتوعل في الليلة الماضية، أما اليوم فأحس بتحسن.

وتساءل ماذا ذاعبه جانباً فسألته: أين نورتون؟

- لا أظن أن الشيطان الكسول قد استيقظ بعد.

وبشكل تلقائي وفعلنا بصرنا إلى الأعلى ، وكانت نوافذ غرفة نورتون فوقنا تماماً حيث وقفنا ، وحملت بدهشة لأن نوافذ غرفة نورتون كانت الوحيدة المغلقة من بين جميع نوافذ الطابق. قلت بقلق: شيء غريب! أنظن أنهم نسوا إيقاظه؟

- غريب فعلاً! أرجو أن لا يكون مريضاً. دعنا نصعد لنعلمتاه عليه.

صعدنا إلى الطابق العلوي معاً ، وقد كانت منقطة البيت (وهي فناء غيبة المظهر) في الممر ، وأجابني على سؤالتي قائلة إن السيد نورتون لم يرد عليها عندما ترحلت الباب.

طرقت الباب مرة أو اثنتين ، ولكن لا يبدو أنه قد سمع طرقي ، وقد كان بابي مغلقاً. سرت في جسدي وعشة لا أعرف سببها ، وطرقت الباب بعنف وأنا أتأدي قائلاً: نورتون ، استيقظ يا نورتون. وأعدت النداء مرة أخرى شاعراً بالقلق قائلاً: أين يا نورتون.

- ٣ -

عندما صار واضحاً أننا لن نحصل على إجابة ذهنا فوجدنا الكولونيل لانربل الذي استمع لنا وعلامات التلويح بادية في عينيه الزرقاوين الدائبتين ، ثم فتل شاربه كملامة تردد. أما السيدة لانربل فقد كانت سيدة حازمة تتخذ الأقرارات دون ضجة حيث قالت: عليكم فتح الباب بأي طريقة ، فليس لدينا حل آخر.

وللمرة الثانية في حياتي رأيت باباً يكسر في سنابلز. وقد

كان خلف هذا الباب المغفل ما كان خلف الباب المغفل في المرة الأولى: موت عنيف!

كان نورتون ملقح على سريره برداته المسائي ، وقد كان مفتاح الباب في جيبه ، وكان في يده مسدس صغير يشبه لعبة صغيرة لكنها قادرة على إحداث الضرر ، وربنا ثقباً في منتصف جيبته بالضبط.

للدقيقة أو اثنتين لم أستطع التفكير بما ذكرني به هذا المشهد... شيء قديم جداً ، وقد كنت تحباً لا أستطيع تذكره. وعندما دخلت غرفة بوارو ورأى تعبير وجهي قال بسرعة: ما الذي حدث؟ أهو نورتون؟

- لقد مات.

- كيف؟ ومتى؟

أخبرته بإيجاز بما حدث ، واختتمت كلامي قائلاً: يقولون إنه انتحر. ماذا يمكنهم أن يقولوا غير ذلك؟ لقد كان بابي موصداً والنوافذ مغلقة ومفتاح الغرفة في جيبه ، كما أنني فعلاً رأيته يدخل الغرفة وسمعتة بقفل الباب.

- هل رأيته حقاً يا هيسنغز؟

- نعم ، لقد رأيته في الليلة الماضية.

شرحت له ما رأيته فقال: هل أنت متأكد من أنه كان نورتون؟

- بالطبع ، فأنا أستطيع التعرف على ذلك الرداء القبيح أينما

كان.

وللمحظة عاد بوارو إلى طبيعته القديمة فقال: لكي أكون جاداً فمن المفروض أن تتعرف على الرجل وليس على رذاته؛ إذ يمكن لأي شخص أن يلبس لباساً مشابهاً.

قلت ببطء: هذا صحيح، فإنا لم أر وجهه، ولكن كان ذلك شعره بالكأبد، وكذلك عرجه.

- أي شخص يستطيع أن يعرج.

نظرت إليه دهشاً وقلت: أتريد أن تقول -يا بوارو- إن من رأيته لم يكن نورتون؟

- أنا لا أقول أي شيء من هذا القبيل، ولكنني متزعج من الأسباب غير العلمية التي تعطيها لثبث أنه كان نورتون. لا، لا أقول إنه لم يكن نورتون، فمن الصعب أن يكون أحداً غيره؛ فجميع الرجال هنا طوال القامة، أطول منه بكثير، ولا تستطيع أبداً إخفاء الطول، لقد كان نورتون بطول خمسة أقدام وخمسة بوصات تقريباً. يبدو الأمر وكأنه خدعة سحرية، أليس كذلك؟ يذهب إلى غرفته ويوصد الباب ثم يضع المفتاح في جيبه، وبعد ذلك يُعثر عليه مقتولاً بالرصاص والمسدس في يده وما زال المفتاح في جيبه.

فقلت: أنت لا تصدق أنه قد قتل نفسه؟

هزّ بوارو رأسه ببطء وقال: نعم، لم يطلق نورتون النار على نفسه. لقد قُتل عمداً!

- ٤ -

ذهبت إلى الطابق السفلي وأنا لا أصدق، وأرجو مسامحتي إذا كنت قد فعلت في رواية ما سيتبع لأنني كنت متبهراً، وكان ما حدث شيئاً يصعب تفسيره. ومع ذلك فقد كانت الأحداث منطقية جداً. لقد قُتل نورتون، ولكن لماذا؟ لمنعه -كما اعتقدت- من إخبار أحد بما رأى. لكنه أخبر شخصاً آخر بذلك الأمر، وذلك الشخص في خطر أيضاً، ولم يكن في خطر فحسب بل لا يمكنه الدفاع عن نفسه أيضاً.

كان من الواجب أن أعرف ذلك، كان من الواجب أن أتنبأ به.

قال بوارو بينما كنت أغادر الغرفة: صديقي العزيز!

كانت هذه آخر كلمات سمعته يقولها، فعندما جاء كيرتس ليعتني بسيدة وجد ذلك السيد ميتاً.

* * *

الفصل الثامن عشر

-١-

لا أريد أن أكتب عن الموضوع لأنني أريد أن أنسى. لقد مات
هيركيول بوارو، ويمونه مات جزء كبير من آرثر هيستنغز.

سأعطيكم جميع الحقائق المجردة دون رتوش، حيث إن
هذا هو كل ما أستطيع تحمّل عمله. لقد مات بوارو -كما زعموا-
بأسباب طبيعية نتيجة لنوبة قلبية كما توقع الدكتور فرانكلين. ولا
شك أن موت نورتون قد أدى لحدوث إحدى هذه النوبات، ونتيجة
للإهمال فلم يكن دواؤه (كبسولات الإميلنتريت) بجانب سريره. هل
كان ذلك إهمالاً؟ هل أزالها أحدهم عمداً؟ الأمر أعمق من ذلك؛ لا
يستطيع السيد س أن يتظر حدوث أزمة قلبية لبوارو. أنا أرفض أن
أصدق أن موت بوارو كان طبيعياً وأعتقد أنه قد قُتل كما قُتل نورتون
وباربرا فرانكلين، ولا أعرف لماذا قُتلوا كما لا أعرف القاتل.

كالعادة جرى تحقيق لتحديد سبب وفاة نورتون، وكان
الحكم أنه قد انتحر، ونقطة الشك الوحيدة أثارها الجراح بقوله إنه

من غير المعتاد لرجل أن يطلق النار على نفسه في منتصف جيبته تماماً، وقد كانت تلك هي نقطة الشك الوحيدة حيث كان كل شيء واضحاً: الباب المغفل من الداخل والمفتاح في جيب القتل والنوافذ المغقّلة والمسدس في يده.

وعلى ما يبدو كان نورتون قد اشتكى من صداع، وكانت بعض استثماراته المالية قد فشلت، من غير المعقول أن تكون هذه أسباباً تدعو إلى الانتحار ولكن كان عليهم أن يذكروا شيئاً. كان المسدس ملكه، فقد رآه المنظمة في درج الطائرة عدة مرات خلال مكوثه في ستايلز. وهكذا فقد انتهى الأمر؛ جريمة أخرى نُفذت بحلق ومهارة، وكالعادة دون احتمالات أخرى للشك.

في الصراع بين بوارو والسيد «س» كسب «س» الجولة، وقد بقي الأمر لي الآن لحل اللغز. وبصفتي مَنقِلاً لوصية بوارو فقد ذهبت إلى غرفته وأخذت حقيبة الوثائق ثم فتحتها في غرفتي، وفي الحال أصبحت بصدمة عنيفة؛ فقد اختلف منها ملف قضايا «س». لقد رأيت الملف في الحقيقة قبل يوم أو اثنين عندما فتحتها بوارو أمامي، وهذا دليل (إن استجبت إلى دليل) على أن هذا القاتل المجهول كان يعمل في الخفاء؛ فلما أن بوارو قد ألق هذه الأوراق أو أن «س» هو من فعل ذلك.

ذلك الملعون الحقيق، «س»! لكن الحقيقة لم تكن خالية تماماً، فقد تذكرت وعد بوارو بأنني سأجد دلائل أخرى لن يعرف عنها قاتلنا شيئاً، فهل هذه هي الدلائل؟ كان في الحقيقة نسخة من رواية شكسبير «عطل» طبعة صغيرة وخبصة، كما كانت فيها نسخة

من مسرحية «جون فيرغوسون» للكاتب مينت جون (رفن)، وكانت فيها علامة عند الفصل الثالث.

حدّثت إلى الكاتبين بيلاهة، فني الكاتبين تكمن الدلائل التي تركها لي بوارو، ولم يُغني هذا أي شيء لي على الإطلاق! ماذا يمكن أن يعني هذا؟ الشيء الوحيد الذي فكرت به هو وجود شفرة ما، شفرة مبنية على الكاتبين، ولكن إذا كان الأمر كذلك فكيف يمكنني حل هذه الشفرة السرية؟! لم أجد أي خطوط تحت أي كلمات أو حروف، وقد حاولت نسخين الصفحات بلفظ ولكن دون نتيجة.

قرأت الفصل الثالث من مسرحية «جون فيرغوسون» بنأ وحرص، كان مشهداً جميلاً ومثيراً حيث يجلس كلوتي جون ويتكلم، وينتهي بخروج الشاب فيرغوسون باحثاً عن ذلك الشخص الذي أخطأ بحق أخته. شخصيات موصولة بشكل مدهرش، ولكنني لم أظن أن بوارو ترك لي الروايتين لتحسين ذوقي في الأدب!

وحينما كنت أقلب صفحات الكتاب سقطت منه قصاصة ورق صغيرة كان عليها بخط بوارو نفسه هذه الكلمات: «كلم غلامي جورج».

حسناً، هنا شيء ما، عمله مفتاح اللغز... إن كان بوارو قد ترك لغزاً مع جورج، يجب أن أجد عنوانه وأذهب لرؤيته، لكن يجب علي أن أنتهي أولاً من عملية دفن صديقي المحزنة. هذه هي البقعة التي عاش فيها حين قدم إلى هذا البلد لأول مرة، وسيُدفن هنا في النهاية!

كانت جوديث لطيفة معي في تلك الأيام، فقد قضت معظم الوقت معي وساعدت في الترتيبات النهائية. كانت جوديث رقيقة وعظيمة، وكذلك كان بريد كارنغتون وإليزابيث كول.

ولم تتأثر إليزابيث كول كثيراً لموت نورثون كما توقعت، وإذا كانت قد حزنت كثيراً لموته فقد كتمت مشاعرها بمهارة.

وهكذا انتهى كل شيء.

-٢-

نعم، يجب أن أقولها! انتهت طفوس الجنازة. وقد كنت أجلس مع جوديث محاولاً وضع خطط للمستقبل حين قالت: ولكنني لن أكون هنا يا أبي العزيز.

- لن تكوني هنا؟

- لن أكون في إنكلترا.

وحملت إليها فقالت: لم أود إخبارك من قبل يا أبي! أردت أن لا أزيد الأمر سوءاً، ولكن يجب أن تعرف الآن وأرجو أن لا تمنع. سأذهب إلى أفريقيا مع الدكتور فرانكلين.

ونملكتني غضب شديد، فقد كان ذلك لا يُطاق! لا يمكنها أن تفعل شيئاً كهذا أبداً، فالكل سيولك سمعتها بالتأكيد. أن تكون مساعده هنا في إنكلترا وزوجته على قيد الحياة شيء، وأن تذهب معه إلى أفريقيا بعد وفاة زوجته شيء آخر. كان التفكير في هذا الأمر

غير محتمل، ولسوف أحاول منعها بأي وسيلة، يجب أن لا تفعل جوديث شيئاً كهذا.

لم تقاطعني وتركتني أنهي كلامي، ثم ابتسمت ابتسامة باهتة وقالت: لكنني - يا أبي العزيز - لن أذهب مساعِدة له، بل سأذهب معه زوجة.

صُغت لما قالت وفلت بلعنهم: وماذا عن أليوتون؟

نظرت إليّ ببعض الدهشة ثم قالت: لم يكن بيننا شيء قط، وقد كنت سأخبرك بذلك لو لم تقضيني. وبصراحة كنت أريدك أن تذكر بأن بيننا شيئاً ولم أحب أن تعرف أنه جوف.

- ولكنني وأبنته يضمك في إحدى الليالي على الشرفة!

قالت بنقاد صبر: كنت تيسر تلك الليلة، وكما تعلم فهذه الأشياء يمكن أن تحدث.

قلت: لا تستطيعين الزواج بفرانكلين بعد، ليس بهذا السرعة.

- بل أستطيع، ولريد الذهاب معه. وكما قلت، فذلك أسهل. لا يوجد ما تنتظرونه الآن.

جوديث وفرانكلين... فرانكلين وجوديث! هل تستطيع فهم الأفكار التي راودتني؟ الأفكار التي اختبأت تحت السطح لفترة؟ جوديث تحمل زوجة في يدها، جوديث تعلن بصوتها الثني المنحوس بأن الناس عديمو الفائدة يجب التخلص منهم لإفساح

المجال أمام الناس المقفين. جوديث التي أحبتها وأحبها بوارو... هل كان الشخصان اللذان رأهما نورثون جوديث وفرانكلين؟ لكن إذا كانا هما... لا، هذا مستحيل؛ لا، ليست جوديث فائقة، ولكن من المحتمل أن يكون فرانكلين، فهو شخص غريب عديم الشفقة وإذا صمم على القتل فسيفعل مرة وأخرى.

كان بوارو راجعاً في استشارة فرانكلين، فلماذا؟ وماذا قال له ذلك الصباح؟ لكن ليست جوديث، ليست ابنتي الجميلة الصغيرة جوديث. ومع ذلك فكم بدا بوارو غريباً وكم صغرتي كلماته حين قال: 'وربما تعين أن تقول: «أُسبِل الستارة»!'

فجأة خطرت ببالها فكرة جديدة: كل هذا غريب لا يصدق. هل كانت قصة 'أس' كلها ملفقة؟ هل جاء بوارو إلى ستابلز لأنه خاف من مأساة في منزل عائلة فرانكلين؟ هل جاء للاعتناء بجوديث؟ هل كان هذا هو السبب في عدم إخباري بشيء؟ لأن القصة كلها مفتعلة من أساسها وغطاء لخدومه هنا؟ هل كانت ابنتي جوديث هي قلب المأساة؟

عُطِّل! كانت رواية 'عطيل' تلك هي التي أخذتها من خزانة الكتنب في الليلة التي ماتت فيها السيدة فرانكلين. فهل كان ذلك هو الدليل؟

جوديث التي بدت في تلك الليلة (كما قال أحدهم) مثل نبيتها قبل أن تقطع رأس مولوفيرنس... جوديث ذات الغلب المملوء بالموت!

١. * * *

الفصل التاسع عشر

أكتب هذه الكلمات وأنا في إيسنبورن حيث قدمت لرؤية جورج خدام بوارو السابق. عمل جورج لدى بوارو لعدة سنوات، وقد كان كفناً مستقيماً وكان صريحاً صادقاً يذكر الحقائق كما هي دون قلق أو دوران. حسناً، لقد ذهبت لرؤيته وأخبرته بموت بوارو، وكان رد فعل جورج كما هو متوقع تماماً، فقد أصابه الحزن والاكتئاب لكنه كابد لإخفاء هذه المشاعر.

قلت له: لقد ترك بوارو رسالة لي معك، أليس كذلك؟

فقال جورج مباشرة: لك يا سيدي؟ لا أتذكر أنه فعل.

دهشت لرده، ورغم إصراري فقد كان متيقناً من جوابه. وقلت في النهاية: 'إنها غلطتي على ما أظن، حسناً، لقد انتهى الأمر.' ثم قلت: كم أتمنى لو كنت معه عندما مات!

فقال جورج: كنت أتمنى ذلك أنا أيضاً يا سيدي.

- لكن إذا كان والدك مريضاً فلا بد أن تذهب للاعتناء به،

أليس كذلك؟

نظر إليّ جورج نظرة فضولية وقال: أرجو معدونك يا سيدي،
لكنني لا أفهم ما تقصده.

- لقد تركت خدمة بوارو للاعتناء بوالدك المريض، اليس
هذا صحيحاً؟

- أنا لم أرغب في تركه يا سيدي، ولكنه أصر على ذهابي.

لحدّثت إليه وقلت: استغنى عن خدماتك؟

- لا أعني أنه صرفني من خدمته يا سيدي، بل كان الانفاق
على أن أعود إلى خدمته لاحقاً، لكنني تركته حسب رغبته وقد دفع
كل أنعائي حينما كنت هنا مع والدي.

- لكن لماذا يا جورج؟ لماذا فعل ذلك؟

- لا أعرف يا سيدي.

- أتم تسأله؟

- ثم أفعل يا سيدي؛ لم أفكر أن هذا من اختصاصي. لقد كان
للسيد بوارو دائماً أفكاره الخاصة، فهو رجل ذكي، وقد كنت أفهمه
وأحترمه دائماً يا سيدي.

قلت بصوت خافت: نعم، نعم.

- لقد كان دقيقاً في اختيار ملاعبه التي كان يفضل أن تكون
أجنبية فاخرة... إن فهمت ما أعني يا سيدي. ويمكن فهم ذلك إذا
كان أجنبياً، كما أنه كان مهتماً جداً بشعره وشاربه.

وشعرت بوخزة ألم حين تذكرت كم كان معتزاً بشأريه فقلت:
نعم، هذا الشارب المشهور.

تابع جورج: لقد كان دقيقاً جداً بشأن شأريه، ومع أنه
كان يهذب بطريقة تقليدية إلا أنه كان يتأمله، إن فهمت ما أعني
يا سيدي.

قلت: أعلم ذلك، ثم غمغمت بلطف: أظن أنه كان يصبغه
كما صبغ شعره؟

- كان يفعل ذلك في بعض الأحيان، ولكنه لم يصبغ شعره
خلال السنوات الأخيرة.

قلت: كلام فارغ، لقد كان شعره أسود كالغراب بحيث بدا
غير طبيعي كالشعر المستعار.

فتفتح جورج باعتذار وقال: عفواً سيدي، ولكنه كان شعراً
مستعاراً بالفعل؛ فقد كان السيد بوارو يفقد شعره بغزارة مؤخراً
ولذلك استخدم الشعر المستعار.

وتكررت أنه من الغريب حقاً أن يعلم الخادم أسرار سيده أكثر
بكثير من أعرّص أصدقائه؛ وعدت مرة أخرى إلى اللغز الذي حيرني
فقلت: ولكن ألا تعلم حقيقة لماذا استغنى عنك السيد بوارو كما
فعل؟ فكر يا رجل، فكر جيداً.

حاول جورج أن يحكّ ذهنه، ولكن ذلك كان خارج نطاق
قدرته، فقال في النهاية: أستطيع فقط أن أقترح يا سيدي أنه تخفص
متى لأنه أراد أن يوظّف كيرتس لديه.

- كيرنس؟ لماذا أراد أن يعمل كيرنس لديه؟

فكر جورج مرة أخرى ثم قال: حسناً يا سيدي، لا أستطيع حقاً القول، لم يبدو لي عندما رأيته (وأرجو معذرتك يا سيدي) شخصاً ذكياً. إنه قوي طبعاً، ولكنني لا أعتقد أنه من النوع الذي يفضل السيد بوارو. لقد كان مساعداً في بيت للمعاقين عقلياً في وقت من الأوقات على ما أظن.

حدثت إلى جورج وقلت: كيرنس!

أهذا هو السبب الذي دفع بوارو إلى عدم إخباري بالكثير عن القضية؟ كيرنس؟ الرجل الوحيد الذي لم يُثر شكوكي؟ نعم، وقد كان بوارو راضياً أن يبقى الأمر كذلك، كان راضياً أن أنفحص جميع ضيوف ستابلز باحثاً عن «س» الغامض، ولكن «س» لم يكن شيئاً... كان كيرنس!

عمل كيرنس في بعض الأوقات مساعداً في بيت للمعاقين عقلياً. لقد قرأت مرة أن نزلاء الملاحي وبيوت المجانين يقولون هناك في بعض الأحيان، أو يحدون إليها كمساعدين؟ رجل غريب بلبد يقتل لأسباب غريبة! وإذا كان الأمر كذلك، إذا كان صحيحاً، فسوف يتزاح حمل نقبل عن كاهلي، يا الهي! كيرنس!

ملحق

ملاحظة بقلم الكابتن آرثر هيسنغز: وصلني هذه المخطوطة بعد أربعة أشهر من وفاة صديقي هيركيول بوارو، فقد استلمت رسالة من إحدى المؤسسات القانونية تطلب مني زيارة مكتبها، وفي المكتب وبناءً على تعليمات عملها السيد هيركيول بوارو سلّمت طرداً معلقاً، وسأعيد نسخ محتوياته هنا.

مخطوطة بقلم هيركيول بوارو

صديقي العزيز، سيكون قد مضى على موتي أربعة أشهر عندما تقرأ هذه الكلمات، ولقد فكرت كثيراً قبل أن أكتب هذه الكلمات الموجودة هنا، ثم قررت أنه من الضروري أن يعرف أحدهم حقيقة الجريمة الثانية في «ستابلز». وقد راودني أيضاً حذرٌ بأنه حتى يحين الوقت الذي ستقرأ فيه هذه الرسالة ستكون قد استبطلت نظريات مستحيلة.

قد تؤلمك هذه النظريات؛ لكن دعني أخبرك أنه كان يجب أن توصل إلى الحقيقة بسهولة يا صديقي. لقد تأكدت من وصول كافة الأدلة إليك، فإن كنت لم تصل إلى الحقيقة فذلك لأنك -كالعادة-

سليم النية وتتن كثيراً بالآخرين. كان ينبغي أن تعرف من قتل نورتون على الأقل، أما باويرا فرانكلين فلا أحسبك ستعرف المسؤول عن موتها، وحينما تعرف ستجد الأمر صدمة بالغة لك.

كما تعلم، في البداية أرسلت في طلبك وأخبرتني أنني بحاجة إليك، وقد كان هذا صحيحاً؛ لقد أخبرتك بأنني أريدك أن تكون أدنيّ وعينيّ، وهذا أيضاً كان صحيحاً، صحيحاً جداً، وإن لم يكن بالمتفهم الذي فهمته. لقد أردت أن ترى ما أريدك أن تراه ونسجم ما أريدك أن تسمعه.

لقد تدمرت - يا عزيزي - لأنني لم أكن عادلاً في عرض هذه القضية، فقد أخفيت عنك معلومات كنت أعرفها، أي أنني رفضت أن أخبرك بهوية «س» المجهول، وهذا صحيح. لقد اضطررت إلى عمل ذلك، ولكن ليس للأسباب التي قدمتها لك بل لأسباب أخرى ستعلمها الآن.

دعنا نتفحص أمر السيد «س». لقد أطلعناك على ملخص القضايا المختلفة وأخبرتني أن الشخص المتهم أو المشتبه به قد بدا في كل قضية من هذه القضايا وكأنه قد ارتكب الجريمة المعينة فعلاً، وأنه لا يتوفر دليل آخر. ثم انتقلت إلى الحقيقة الثانية المهمة، وهي أنه في كل قضية كان «س» إما موجوداً أو ذا علاقة وثيقة بالقضية، وقد توصلت أنت حينها إلى استنتاج هو صحيح وخواص بشكل متناقض، حيث قلت إن «س» هو من ارتكب الجرائم كلها.

لكن الظروف أشارت في كل حالة تقريباً إلى أن المتهم فقط كان يمكنه ارتكاب الجريمة، فكيف يمكننا تفسير شخصية «س»

إذا كان هذا صحيحاً؟ سوف نخرج بنتيجة غريبة، وهي أن المسألة ليست سوى نوع من التدخل؛ أي مثل تفاعل بين مادتين يحصل فقط بوجود مادة ثالثة، ومن الواضح أن هذه المادة لا تشارك في التفاعل وتبقى كما هي من غير أن تتأثر. هذا هو الموقف، وهذا يعني أن الجرائم تحدث حيث يكون «س» موجوداً ولكنه لا يشارك فيها بنفسه.

إنه موقف غريب وغير معتاد، وقد أدركت أنني صادفت - أخيراً وفي نهاية سيرتي المهنية - الجريمة الكاملة والمجرم الذي اخترع أسلوباً فريداً بحيث لا يمكن تجريمه أبداً.

كان مذهشاً، ولكنه ليس بالجديد حيث وجدت قبله أمثلة مشابهة. وهنا يأتي دور الدليل الأول الذي تركته لك، مسرحية «عطيل». في هذه المسرحية وبصوير رائع ترى «س» الأصلي، إياغو، في هيئة مجرم مثالي. قومت ديزموند وكاسيو، وبالتالي عطيل نفسه... هذه الجرائم كلها كانت من فعل إياغو الذي خطط لها ونفذها، غير أنه ظل بعيداً عن الشبهات لا يطلوه الشك تقريباً. نعم، هذا هو التكامل بعينه في فن الجريمة، فهو لم يقترب الجريمة مباشرة بل هو يحول بين الآخرين والمثقف مثيراً الشكوك حول أمور لم يكن ليفكر بها أحد ثم لم يذكرها هو نفسه. ثم تشاهد الأسلوب نفسه في الفصل الثالث الرابع من مسرحية «جون فيرغوسون»، حيث أُنفع كلوتقي جون الآخرين بقتل الرجل الذي كان هو يكرهه... إنه مثال رائع على للإيحاء النفسي.

يجب عليك أن تدرك هذا يا هيستنغز؛ إن كل شخص مجرم

محتل، فأحياناً نستيقظ في الإنسان الرغبة للقتل، ولكن ليس إرادة القتل. كم من مرة سمعت الآخرين يقولون: "قد أثارت غضبي بحيث شعرتُ بأنِّي أودُّ قتلها"، أو: "كنت سأقتله لأنه قال كذا وكذا"، أو: "كنت غاضباً فكذبت أخته"؟

هذه العبارات كلها صحيحة بشكل مطلق، إن ذهن المرء يكون صائباً جداً في مثل تلك الحالات، فهو يودُّ قتل فلان وفلان، ولكنه لا يفعل ذلك لأن إرادته لا توافق رغبته. أمّا بالنسبة للأطفال فهذا الكايب لا يعمل بصورة جيدة عرفتُ طفلاً كان مزاجياً من قطعه فقال لها: "انفي ساكنة وإلا ضربتك على رأسك وقتلتك"، وقد فعل ذلك فعلاً لبشر بالدهشة والروع بعد لحظات عندما اكتشف أن الفتنة لن تعود إلى الحياة، فذلك الطفل كان يحب قطعه كثيراً.

إذن فنحن جميعاً مجرمون محتملون، وكان هذا هو فن السيد «س»؛ فهو لا يقترح هذه الرغبة ولكنه يكرس جانب الاستقامة الذي يعارض القتل. كان قد أتى إلى حد الكمال عن طريق الممارسة. عرف «س» الكلمات المناسبة والعبارات المناسبة واستطاع أن يتحكم في نبرات صوته وأن يركز على نقط الضعف. يمكن عمل ذلك بسهولة، وقد نفَّذ ذلك فعلاً دون إثارة شك الضحية، فلم يكن ذلك تنويعاً مغنطيسياً لأن التنويم المغنطيسي ما كان لينجح، بل كان أسلوبه أكثر مكرراً وفاعلية، كان يجمع قوى الإنسان كافة لتوسيع الثغرة بدلاً من رقتها، كان يستهدف الخير في الإنسان ويقوم بتحويله ليتحد مع الشر. أنت تعرف ذلك يا هينشز، فقد تعرضتُ له.

والآن، ربما بدأت ترى ماذا كانت تعني بعض ملاحظاتي التي أزعجتك وحيث أنك عندما كنتُ أتحدث عن جريمة سترنكيب، ولم أعني الجريمة ذاتها دائماً. أخبرتك أنني كنت في «ستاييلو» لهدف، كنت هناك لأن جريمة سيتم ارتكابها، ودُهشت أنت بسبب تأكدي من هذه النقطة، ولكنني كنت واثقاً لأنني أنا الذي سيرتكب هذه الجريمة!

نعم يا صديقي، إنه لأمر مضحك وغريب ومخيف! أنا الذي أرفض القتل، أنا الذي أقَدِّس الحياة البشرية، أتهبت سيرتي المهنية بارتكاب جريمة! علمني صنعت ذلك لأنني اعتقدت أنني أحسن أخلاقاً من الآخرين. لقد كنت واثقاً من استقامتي بحيث تعرضتُ إلى هذه المعضلة، لأن للقضية جانبين كما ترى: أحدهما أن عملي في هذه الحياة هو (نقاذ الأبرياء ومنع الجريمة)، وهذه هي الطريقة الوحيدة لعمل ذلك. الأمر واضح، فلم يكن باستطاعة القانون القبض على «س»، لقد كان آمناً، ومهما بلغت براعتي فلم أكن لأستطيع غلبته إلا بهذه الطريقة.

وعلى الرغم من ذلك كنت متروداً يا صديقي. لقد عرفت ما يجب عليّ عمله ولكنني لم أستطع إجبار نفسي على تنفيذه. كنت مثل هامبت، أحاول دائماً تأجيل ذلك اليوم المشؤوم. ثم حصلت المحاولة التالية، محاولة قتل السيدة لانريل.

لقد كنتُ فضولياً -يا هينشز- لأعرف: هل سيتجح حشك المعروف في تمييز الأمور الواضحة؟ وقد نجح. كان رد فعلك الأول هو الشك في نورتون، وقد كنت مصيباً؛ كان نورتون هو الرجل. ولم يكن لاعتقادك هذا سبب ما عدا اقتراحك التصحيح

(وإن كان فائراً) بأنه كان شخصية فائهاً وهنا أظنك اقتربت جداً من الحقيقة. فقد درست تاريخ حياته بعناية فوجدت أنه كان الابن الوحيد لامرأة قوية مسيطرة، ويبدو أنه لم تُنح له الفرصة للثقة بنفسه أو التأثير بشخصيته على الآخرين، بل كان مبرج دائماً وكان عاجزاً عن المشاركة بالألعاب المدرسية.

وكانت واحدة من أهم الملاحظات التي أخبرتني بها تلك الملاحظة عن ضحك الآخرين منه في المدرسة حين أغمي عليه لأنه رأى أرناباً ميتاً. كانت تلك الحادثة قد أثرت فيه تأثيراً عميقاً على ما أظن. كان يكره الدم والعنف، وقد كان يعاني نتيجة لذلك، وبالتأكيد فقد قرر (ويغير وعي منه) أن يصلح الوضع بأن يصبح جريئاً قاسياً.

أظن أنه اكتشف مبكراً قدرته على التأثير في الناس؛ فقد كان مستمعاً جيداً وكانت لديه شخصية متعاطفة. كان الناس يحبونه ولكنهم -في الوقت ذاته- لم يُعبروه الكثير من الاهتمام، وقد ساء هذا كثيراً. ثم استفاد من هذه الصفة واكتشف كم كان الأمر سهلاً، وذلك باستعمال الكلمات المناسبة وتوزيع الحافز الملائم للتأثير في الآخرين. كان الشيء الوحيد المطلوب منه هو فهم الناس والتغلغل في أفكارهم ودوافعهم الخفية وأمنياتهم.

أندري يا ميستغز؟ إن مثل هذا الاكتشاف يغذي الإحساس بالقوة. ها هو ذا سيقن نورتون الذي أحبه الآخرون واحقره، ها هو ذا يستطيع دفع الناس إلى عمل أمور لا يريدون عملها أو (وانتبه لهذا) يظنون أنهم لا يريدون عملها.

أستطيع تصوّره وهو يشقي قدرته هذه، وشيناً فشيناً يطوّر نزعه السوداء للعنف، وبطريقة غير مباشرة، هي نزعة مرضية للعنف الذي يحتاج إلى قوة بدنية كانت تنقصه وكان يتعرض إلى السخرية بسببها. نعم، وتنمو الهواية عنده إلى أن تصبح شغفاً، تصبح ضرورة... كانت محقراً يا هيستغز، مخدراً بسبب الإدمان مثلما يفعل الأفيون والكوكايين.

نورنون، ذلك الرجل الرقيق المحب، كان سادياً في الحقيقة! كان مدمناً على الألم والتعذيب العقلي، وقد انتشر هذا الوباء في العالم في السنين الأخيرة. لقد أُشيعت فيه شهورتان: السادية والقوة؛ فهو يكاد يتحكم في مصائر الناس! ومثله (كأي أسير للمخددرات) كان يحب أن يتزود بالمخددرات، فعثر على الضمصة نلو الأخرى!

أنا متأكد من وجود قضايا أخرى سوى القضايا الخمس التي تشبعتها، ولكنه لعب الدور نفسه في كل واحدة من هذه القضايا. لقد عرف إرنستون لأنه أمضى صيفاً في القرية حيث كان يعيش ويعز، وكان يذهب مع رينز لتناول الشراب في الحانة المحلية. وفي إحدى رحلاته البحرية تعرّف إلى فريدا كلاي فتشبعها واستغل أفكارها الباطنية القاضية بأن موت خالتها سيكون أمراً جيّداً وسوف يحقق الراحة لخالتها، كما أنه سيوفر نوعاً من الراحة المادية والمنفعة لها. وكان صديقاً لعائلة ليتسفيلد، وبعد أن تحدثت مرغريت إليه تصورت نفسها في دور البطلة التي ستخلص أخوانها من سجنهن الأبدية، ولا اعتقد -يا ميستغز- أن أيّاً من هؤلاء الناس كان سيرتكب جريمة لولا تأثير نورتون.

والآن لننقل إلى الأحداث التي جرت في ستابلز. كنت قد

بدأت بتعقب نورتون منذ بعض الوقت، وعندما تعرف على عائلة فرانكلين سمعتُ رائحة الخطر. لا بد أنك تدرك أنه حتى نورتون كان بحاجة إلى نواة يبدأ منها عمله، فأنت تحتاج إلى بذرة لتطوير شيء ما؛ في «عُطيل» مثلاً اعتقدت دائماً بأن عطيلاً كان يؤمن داخلياً بالاعتقاد القائل (وقد يكون صحيحاً) بأن حب ديزموند له كان حباً غير متوازن، وربما كان مجرد اختلال فئدة صغيرة بذلك الفارس الشجاع وليس حب امرأة للعطيل الرجل، وربما أدرك بأن كاسبو كان حبها الحقيقي وأنها ستدرك هذه الحقيقة بمرور الوقت.

وقد قُذفت عائلة فرانكلين أرضية خصبة لنورتون. لا بد أنك قد أدركت الآن - يا هيستنز - الشيء الذي كان يمكن لأي شخص ذي مقدرة سليمة في الحكم على الأشخاص أن يراه بوضوح، وهو أن فرانكلين كان يحب جوديث وأن جوديث كانت تحبه، وأن فظاظته وعادته في عدم النظر إليها وعدم لباثته... كان يجب أن يخبرك كل هذا بأن الرجل غارق في حبها حتى أفنديه، ولكن فرانكلين رجل ذو شخصية قوية مستقيمة، كلامه قاسٍ ولكنه رجل ذو مبادئ واضحة، وفي دسوره أن على الرجل أن يتمسك بالزوجة التي اختارها.

وكانت جوديث (وكنت أظن أنك رأيت ذلك) تحبه، لكنها كانت ياقسة تسة. وقد ظننت أنك اكتشفت هذه الحقيقة عندما وجدتها في حديقة الأزهار، ولهذا انفجرت غضباً؛ فأصحاب الشخصيات أمثالها لا يحتملون الشفقة والتعاطف لأنهما مثل ملازمة جورج مولم. ثم اكتشفت أنك تظن أنها تحب نورتون، وقد تركت نظن ذلك لتحمي نفسها من عطفك الذي كان آخر شيء

تحتاجه وخوفاً من إعادة فتح الجرح مرة أخرى. كانت تُظهر اهتماماً بالنورتون كنوع من العزاء لنفسها، وكانت تعرف جيداً أي نوع من الأشخاص هو ولم تكن تشعر نحوه بأي عاطفة.

وبالطبع عرف نورتون كيف تسيّر الأمور ورأى احتمالاً في ثلاثة فرانكلين. يمكنني القول إنه بدأ بفرانكلين أولاً ولكنه لم ينتج؛ فهو (أي فرانكلين) من ذلك النوع من الرجال المحضين ضد إيحاء نورتون الساخر لأنه يملك عقلاً محدداً وواضحاً، ويملك معرفة دقيقة بمشاعره ولا يُعبر انتباهاً للضغط الخارجي، وبالإضافة إلى ذلك فحبه الكبير في هذه الحياة هو عمله، وانهماكه فيه يجعله أقل تعرضاً لتلاذي.

ولكن نورتون أحرز نجاحاً أكبر مع جوديث، فقد لعب بذكاء في موضوع الحياة التي لا فائدة منها. كانت مسألة اعتقاد عند جوديث، وقد تجاهلت بحدة حقيقة أن رغباتها السرية توافقت مع هذا الاعتقاد في حين كان نورتون يعلم أنها كذلك. وقد كان في غاية الذكاء، بأخذ لنفسه وجهة النظر المعاكسة ويسخر من الفكرة قائلاً إنها لن تملك الجرأة أبداً لارتكاب مثل هذا العمل الحازم لأن الشباب يقولون دائماً لكنهم لا يفعلون... إنه أسلوب قديم رخيص ولكنه ينتج غالباً يا هيستنز؛ ف هؤلاء الشباب سربعو التأثير وهم مستعدون لقبول التحدي (رغم أنهم لا يرون الأمر على حقيقته). وبعد إزاحة باربرا عديمة الفائدة كان الطريق سيصبح خالياً لفرانكلين وجوديث، لكن ذلك لم يُذكر قط أو يُكشف عنه. كان التأكد على أن العامل الشخصي لا دور له بناتاً، فلو أدركت جوديث أن العامل الشخصي يلعب دوراً لكان ردّها عتياً.

لكن نشاطاً واحداً لا يكفها بالنسبة لقاتل مدمن مثل نورتون؛ بل هو يبحث عن فرص المتعة في كل مكان، ووجد فرصته في عائلة لاتريل.

نُكر فيما حدث يا هيستنز. هل تذكر أول ليلة لعيش فيها البريدج؟ هل تذكر ملاحظة نورتون التي قالها لك لاحقاً بصوت مرتفع والتي كنت تخشى أن يسمعها الكولونيل لاتريل؟ بالطبع كان نورتون يقصد أن يسمعها الكولونيل، وهو لم يفوت فرصة للتأكد عليها وكان يذكرها دائماً، وأخيراً تُوخبت جهوده بالنجاح. لقد حدث ذلك تحت أنفك يا هيستنز ولم تُر كيف نُفِّدًا

لقد وُضع حجر الأساس؛ تزايد الشعور بالحب، الخجل من مظهره أمام الرجال الآخرين، ويزداد شعوره بالاستياء من زوجته... أنت تذكر ما حدث بالضبط. يقول نورتون إنه عطلش، هل كان يعلم أن السيدة لاتريل في المنزل وأنها ستظهر على مسرح الأحداث؟ وينصرف الكولونيل كأني مضيق كريمة، وتلك هي طبيعته، فيعرض عليكم الشراب ويذهب لإحضاره. ولا تزالون أنتم جالسين قرب النافذة، ثم تصل زوجته ويحدث المشهد المحتوم الذي يعتم أنكم سمعتموه، ثم يخرج. وكان بالإمكان تناسي كل ذلك بالنظر. كان بإمكان بويد كارنغتون القيام بذلك جيداً، فهو يمتلك درجة من الحكمة واللباقة (وما عدا ذلك فهو من أكثر الناس الذين عرفتهم غروراً وإثارة للغضب). أنت نفسك كان بإمكانك أن تبلي بلاء حسناً أيضاً، لكن نورتون سارع إلى الكلام بخيت وحماقة شديدة لا داعي لها، وهو تصرف زاد الأمر سوءاً. أخذ يثرثر عن البريدج ويحدث عمداً عن حوادث إطلاق النار.

وكما أراد نورتون تماماً فقد تبعه ذلك الغبي بويد كارنغتون فروي قصة الجندي الأيرلندي الذي أطلق النار على أخيه، وهي قصة كان نورتون قد رواها لبويد كارنغتون وهو يعلم جيداً أن هذا الغبي سيرويها على أنها حصلت معه عندما يجد المناسبة، أنت ترى -إذن- أن الإيحاء الكبير الواضح لن يأتي من نورتون نفسه!

لقد تم الإعداد للأمر جيداً؛ يبدأ بالأثر المتراكم حتى يصل إلى نقطة الحسم، لقد أُميت مكانة الكولونيل لاتريل كمضيف وأخرج أمام أصدقائه، وكان يثأر من معرفته بأنهم مقتنعون تماماً بأنه لا يملك الجرأة لعمل شيء إلا الخضوع لسيطرة زوجته، ثم سمع الكلمات المناسبة: «بندقية الصيد، حوادث، رجل أطلق النار على أخيه...»، ويظهر فجأة رأس زوجته فتدور في رأسه كلمات: «أنت آمن، سيكون مجزء حادث، سأريهم، سأريها، عليها اللعنة! أتمنى أن تموت، سوف تموت...!»

هو لم يقتلها يا هيستنز، أنا نفسي أظن أنه عندما أطلق النار أخطأها متعمداً لأنه كان يريد أن يخطئ. وبعد فترة زال السحر الأسود. لقد كانت زوجته، المرأة التي أحبها على الرغم من كل شيء، هذه كانت إحدى جرائم نورتون التي لم تتجبح.

آه، ثم كانت محاولته التالية ألا تدرك يا هيستنز أنك كنت التالي؟ عُذ بذكرتك إلى الورا. وتذكر كل شيء، أنت، صديقي الصداق العطوف هيستنز! لقد كشف نقاظ ضبعك كلها، نعم، كما اكتشف أيضاً نقاظ استقامتك وضميرك النحي. البرتون هو ذلك النوع من الرجال الذي تكرده وتخافه غريزياً؛ فهو من النوع الذي تظن أنه

يجب القضاء عليه، وكل ما سمعته عنه وكل ما كنت تفكر فيه عنه كان صحيحاً. أخبرك نورتون عنه بقصة ما، وهي قصة صحيحة من حيث الواقع، مع أن الفتاة المعنية كانت -في الحقيقة- مصابة بمرض عصبي ومن عائلة فقيرة. هذه القصة وافقت معناتك المحافظة القديمة نوعاً ما: "هذا الرجل شرير يُغوي النساء ثم يحطمون ويدفعهن إلى الانتحار". ثم يقوم نورتون بإقتناع بويد كارنغتون بالتحدث إليك أيضاً، وتُضطر أن تتحدث إلى جوديث، ويكون جواب جوديث الفوري أنها ستفعل بحياتها ما تشاء، وهذا الرد يجعلك تصدق الأسوأ.

أرأيت الآن التقاط التي استغلها نورتون؟ حبك لايتك، شعورك المتحفظ والعميق بالمسؤولية التي يشعر بها كل رجل مثلك نحو أبنائه، اعتزازك بنفسك... وهنا يخطر ببالك أنك يجب أن تفعل شيئاً ما، فالأمر كله يعتمد على شعورك بالضعف، ويرجع ذلك إلى افتقارك إلى رأي زوجتك الحكيم وإلى إخلاصك في تربية أبنائك، فتقول في نفسك: "لن أعدلها"! والنقطة الأهم كانت غرورك، فمن خلال مرافقتك لي نعلمت سر المهنة! وأخيراً ذلك الشعور الداخلي الذي يلزم جميع الآباء بشأن بناتهم، الشعور (الذي لا يُعزف سيبه) بالغيرة أو بالكراهية نحو ذلك الرجل الذي سوف يأخذهن منه.

استغل نورتون ذلك كضمان محترف، وقد استجبت أنت له. أنت تتقبل الأمور بسهولة، وقد كنت تفعل ذلك دائماً؛ صدقت بسهولة أن أليوتون كان يتحدث إلى جوديث في المنزل الصيفي، ولكنك لم ترها بل لم تسمعها تتكلم، والأمر الذي لا يصدق هو أنك كنت لا تزال تظن -في صباح اليوم التالي- أنها كانت جوديث، وقد فرحت جداً لأنها غيرت رأيها!

ولكن لو كلفت نفسك مشقة فحص الحقائق لكنت أدركت على الفور أنه لم يكن أي احتمال واداً للذهاب جوديث إلى لندن في ذلك اليوم، ولكنك فشلت أيضاً في الوصول إلى الاستنتاج الواضح. كان أحد الأشخاص في إجازة في ذلك اليوم، وقد كان ذلك الشخص غاضباً لأنه لم يستطع الذهاب. ذلك الشخص هو الممرضة كارفن! فليس أليوتون بالشخص الذي يكتفي بملاحظة امرأة واحدة، وعلاقته مع الممرضة كارفن كانت تتقدم بشكل أكثر من مجرد الغزل الذي كان يمارسه مع جوديث.

كل ذلك كان من تدبير نورتون. لقد رأيت أليوتون وجوديث يتعانقان، وبعدها مباشرة دفعك نورتون خلف زاوية المنزل لأنه كان يعلم -بلا شك- أن أليوتون كان سيقابل الممرضة كارفن في المنزل الصيفي، وبعد قليل من المناقشة تركك تذهب إلى هناك ولكنه ظل في وفقتك، والجملة التي سمعت أليوتون يتلفظ بها كانت مناسبة لغرضه، وقد سحبك نورتون بسرعة قبل أن تسبح لك الفرصة لتكتشف أن المرأة لم تكن جوديث. وكان رد فعلك على هذه الأمور فوراً وتاماً، فقد استجبت وقررت أن تتركب جريمة!

لكن -لحسن حظك يا هينغز- لديك صديق لا يزال محتفظاً بعتقه، لقد قلّت لك في بداية الأمر أنك إن لم تحصل إلى الحقيقة فذلك لأنك شديد الثقة في الناس. أنت تصدق كل ما يقال لك، وصدقت ما قلته أنا لك، ومع ذلك فقد كان من السهل عليك أن تكتشف الحقيقة.

لماذا نفثني أولسدت جورج بعيداً؟ صنعت ذلك لاسئدنه

يرجل أقل خبرة، ومن الواضح أنه أقل ذكاءً أيضاً. لماذا لم يعثر بي الطبيب؟ أنا الذي كنت حريصاً على صحي لم أكن لأسمع باستدعاء طبيب، لماذا؟ هل رأيت الآن لماذا كان وجودك ضرورياً في «ستايلاز»؟ كنت بحاجة لأحد يقتل ما أقوله بلا مناقشة. لقد صدقتُ روايتي بأنني عدت من مصر وأنا في حال أسوأ مما كنت عليه قبل أن أذهب، ولكن هذا لم يكن صحيحاً؛ فقد عدتُ وأنا أحسن حالاً، ولو كُلفتُ بنفسك العناء لكنتُ اكتشفتُ ذلك، ولكنك لم تفعل بل صدقتني فقط.

لقد استغيت عن جورج لأنني لم أكن لأنجح في إقناعه بأنني فقدت القوة في جميع أعضائي فجأة. جورج في منتهى الذكاء فيما يتعلق بما يراه، وهو كان سيدرك أنني كنت أنظر لهم، هل تفهم يا هيسنغز؟ طوال الوقت الذي كنت أنظر فيه بالعجز (وكنت بذلك أخدع كيرتس) لم أكن عاجزاً على الإحلاق، بل كنت أستطيع المشي، ولكنني كنت أعرج.

لقد سمعتك تصعد في ذلك المساء وسمعتك تنزول ثم ندخل إلى غرفة ألبرتون، وعلى الفور تشبهت. كنت قلقاً جداً بسبب حالتك العقلية والنفسية، ولم أتردد. وكنت وحدي حيث كان كيرتس قد نزل لتناول العشاء، فتسللتُ خارج غرفتي عبر النمر وسمعتك في حمام ألبرتون، وبسرعة - يا صديقي - وبأسلوب ذكره كثيراً نزلتُ على وكتيتي ونظرتُ من خلال ثقب مفتاح الحمام (حيث يمكن للمرء أن يرى لحسن الحظ، فقد كان للباب سقافة لا مفتاح من الداخل). وأدركتُ جيداً معنى تلاعبك بالحبوب المنومة، وأدركتُ خيانتك.

وبناءً على ذلك تصرفتُ يا صديقي. رجعت إلى غرفتي وأعددتُ خطتي، وعندما صعد كيرتس أومسكته لإحضارك، وقد جئتُ وأنت نتاب متعذراً بالصداع وأحدثتُ جلية كبيرة. وجعلتُك تتناول الدواء؛ فقد وافقتُ - حتى تغادر سريعاً - على شرب كوب من الشكولاتة الحلوة الساخنة، شربته لكي تستطیع الذهاب سريعاً. ولكن لديّ أنا أيضاً بعض الحبوب المنومة يا صديقي!

وهكذا فقد تمتُ حتى الصباح إلى أن عدتُ إلى طبيعتك وعقلك. وكنتُ مرعوباً مما كنتُ قد أوشكتُ على ارتكابه. كنتُ قد أصبحتُ أعتادُ في ذلك الوقت، فالمرء لا يرتكب مثل هذه الأمور مرتين، ليس عندما يسترجع المرء عقله. لكن هذا جعلني أقور يا هيسنغز، لأن ما لا أعرفه عن الآخرين لا ينطبق عليك. أنك لست مجرمًا، أنت صديقي المصدق الطبيب الشريف هيسنغز! أنت في غاية الطيبة والأمانة والبراءة، ولكنك كنتُ سئسُ لارتكابك جريمة - جريمة ارتكبتها شخص آخر لن يُعتبر مذنباً في نظر القانون.

كان يجب أن أتصرف. كنتُ أعلم أن وقتي قصير وكنتُ سعيداً لذلك؛ فإن أسوأ جزء من الجريمة - يا هيسنغز - هو تأثيرها اللاعن على المجرم. كان الخوف أن أتخيل نفسي، أنا هيركيول بوارو، وقد سخرتني العناية الإلهية لأقتل المجرمين جميعاً! ولكن الوقت ليس كافياً لذلك (وللحمد لله) لأن نهايتي قريبة.

لقد خشيتُ أن ينجح نورتون في محاولته مع شخص عزيز جداً على كليتي، أعني ابتك جوديث. وهتا نائي إلى الحديث عن مقتل باربرا فرانكلين. ومهما كانت شكوكك بشأن الموضوع - يا هيسنغز -

فلا أظن أنك قد توقفت الحقيقة قط. لقد كنت أنت الذي قتل باربرا فرانكلين! نعم، لقد فعلت ذلك! كان للمثلث بعد آخر، بعد لم أخذه بعين الاعتبار، فقد كانت أساليب نورثون فيه غير مرئية أو مسموعة من قبل أي منا، ولكنني لا أشك أنه قد استعملها.

هل حاولت التفكير في سبب رغبة السيدة فرانكلين بالقدوم إلى «ستايلز»؟ عندما تفكر بالأمر متجد أنه ليس موقعها المفضل؛ فهي تحب الراحة والطعام الجيد وتحب العلاقات الاجتماعية. وليس «ستايلز» مكاناً مرحاً، وهو لا يُدار جيداً، وهو أيضاً في منطقة رقيقة مملّة. ولكن كانت السيدة فرانكلين هي التي أصرت على تمضية الصيف هنا!

نعم، كان هناك بعد ثالث هو بويد كارنغتون. كانت السيدة فرانكلين امرأة قد خابت آمالها، وكان ذلك هو أساس مرضها العصبي. كانت طموحة اجتماعياً ومادياً، وقد تزوجت فرانكلين لأنها توقعت له مستقبلاً برزاقاً. كان زوجها ذكياً ولكن ليس وفقاً لما كانت تمنى، فلم يكن ذكاًؤه ليجلب له شهرة ولا سمعة كسمعة أطباء شارع هارلي المرموقين. كان معروفاً من قبل مجموعة من الرجال الذين ينتمون إلى مهنته نفسها، وكان ينشر المقالات في المجلات العلمية ولكن العالم المخارجي لم يسمع به، وبالتأكيد لم ينجح الأموال الكثيرة.

وها هو ذا بويد كارنغتون وقد عاد من الشرق، وكان قد حصل على لقب بارون وجني المال، وقد كان يشعر بميل عاطفي نحو الفتاة الجميلة ذات السبعة عشر ربيعاً التي كان قد أوشك على

طلب يدها ذات مرة. كان ذاعماً إلى ستايلز واقترح على عائلة فرانكلين القدوم أيضاً، وهكذا أنت باربرا. وكم كان ذلك مثيراً لعصبها! من الواضح أنها لم تفقد سحرها القديم بالنسبة لهذا الرجل الغني الجذاب، لكنه كان محافظاً ولم يكن ليثير عليها بالطلاق، وكذلك لن يوافق جون فرانكلين على الطلاق أيضاً، أما إذا مات جون فرانكلين فستصبح هي الليدي بويد كارنغتون وستكون الحياة رائعة... أظن أن نورثون وجد أداة طيعة في يده.

عندما تفكر بالأمر سنجد أن المسألة كانت في غاية الوضوح يا هيستنغز. تلك المحاولات الأولى المترددة لإظهار مدى محبتها لزوجها (وقد بالغت في ذلك قليلاً، مثل ترديد عبارات «أريد إنهاء الأمر» بحجة أنها كانت عبثاً عليه). وبعد ذلك اتبعت أسلوباً جديداً، وهو خوفها من أن يُجري فرانكلين تجاربه على نفسه.

كان ينبغي أن يكون هذا واضحاً لكلينا يا هيستنغز، لقد كانت تُعذّبنا لتقبل موت فرانكلين نتيجة تسممه بمادة الفايروستغفين حيث لن نشك في أنّ أحداً قد سقّمه بل سنظن أن الأمر مجرد بحث علمي محض؛ ظن أنه يتناول مادة شبه قلووية غير سامة ثم تبين لاحقاً أنها ضارة!

المشكلة كانت أن الأمر كله جرى سريعاً. أنت أخبريني أنها لم تكن مسرورة عندما قامت الممرضة كارفن بقراءة كف بويد كارنغتون. وكانت الممرضة كارفن امرأة جذابة تحاول اجتذاب الرجال، حاولت مع الدكتور فرانكلين لكنها لم تنجح، ولهذا كرهت جوديث، وها هي ذي تحاول الآن مع أليزابيث، ولكنها تعلم

أنه ليس جاداً في علاقتها أبداً، ولذا فمن المحتم أن تضع عينيها على ذلك الرجل الغني الذي لا يزال جذاباً، السير ويليام الذي كان قد بدأ يتيه للسيرة كازينو على أنها نكاح جميلة.

خافت بلوريا فرانكلين وفروت العمل بسرعة، فكلما أسرع لتصبح الأرملة الحزينة الجذابة التي لا يمكن تعزيبها كان ذلك أفضل؛ ولذلك باشرت العمل بعد ذلك الصباح الذي بدت فيه محتاجة. أتدري يا صديقي؟ أنا أحترم «الربياء كالآبار»؛ لقد نجحت هذه المرة، فقد أيقنت على البريء وتخلصت من المذنب!

دعكم السيدة فرانكلين جميعاً للصعود إلى غرفتها وأخذت تُعدّ القهوة مثيرة الضجة ومحاولة إظهار الأمر بصورة واضحة. وكما قلت لي فقد كان فنانها بجانبها وفنان زوجها في الجهة الأخرى من سطح خزانة الكتب الدوّارة. ثم رأيت الشهاب وخرج الجميع وبقى أنت فقط يا صديقي، أنت وكلماتك المتقاطعة وذكرياتك، ولكي تخفي مشاعرك فقد دوّرت خزانة الكتب باحثاً عن اقتباس من شكسبير.

وهكذا فعندما عادوا جميعاً كان كوبا القهوة قد نبادلا موقعيهما، فشربت السيدة فرانكلين القهوة المخلوطة بلورياء كالآبار التي كان مخطئاً أن يشرها الزوج العزيز، أما الدكتور فرانكلين فقد شرب كوب القهوة الخالي من السم الذي كان مختصاً للسيدة فرانكلين الذكية!

لكنك لو فكرت قليلاً يا هينتز لوجدت أنني لم أملك سوى طريقة واحدة للتصرف رغم أنني أدركت ما حدثت ثم أكن

قادراً على إثبات الحقيقة، وإذا ما شك أحدكم في أن وفاة السيدة فرانكلين لم تكن انتحاراً فسوف يُثار الشك بالتأكيد في فرانكلين أو جوديث، وهما شخصان كانا بريئين بالتأكيد؛ ولذلك فقد فعلت ما أظن أن من حقي فعله، فاستغللت ملاحظات السيدة فرانكلين غير المقنعة بشأن إنهاء حياتها.

كنت أستطيع القيام بذلك، وربما كنت الوحيد الذي كان باستطاعته عمل ذلك؛ فلشهادتي وزنها كما تعلم، وأنا خبير في الجرائم، فإذا ما اقنعت أنا بأن الأمر كان انتحاراً فسوف يُقبل على أنه انتحار. وقد لاحظت أن هذا حيرك وأنت لم تكن مسروراً، ولكنك لم تشك في الخطر الحقيقي لحسن الحظ.

ولكن هل ستفكر بالأمر بعد وفاتي؟ هل ستفكر وتردّد بين الحين والآخر قائلاً: "افرض أن جوديث..."؟ قد تفعل، ولذلك كتبت لك هذا يجب أن تعلم الحقيقة.

شخص واحد لم يعجبه الحكم بأن الأمر كان انتحاراً، وهذا الشخص هو نورتون. لقد حُرّم من رطل اللحم الذي توقعه! حُرّم من متعته وأخفقت الجريمة التي أعدها، لكنه لم يلبث أن رأى وسيلة لتعويض الأمر، وسرعان ما بدأ بالغاء التلميحات، فظاهر -في البداية- بأنه رأى شيئاً ينتظاره، كان يريد أن يوصل الانطباع بأنه رأى ألبرتون وجوديث في وضع مشبوه. لكنه لم يقل شيئاً محدداً، فقد كان بإمكانه استغلال هذه الحادثة بطريقة أخرى.

فلنفرض -على سبيل المثال- أنه قال إنه رأى فرانكلين وجوديث؟ إن هذا سيثير جانباً جديداً في قضية الانتحار. وهكذا

قررت أنه يجب عمل ما يلزم بسرعة ، فرتبت أن نحضره إلى غرفتي في تلك الليلة.

سوف أخبرك بما جرى بالضبط : كان نوروتون سعيداً - بلا شك - وهو يخبرني بقصته الملهمة ، ولكنني لم أنتظر بل أخبرتة بوضوح ودقة بكل ما أعرفه عنه . ولم ينكر ذلك ؟ نعم يا صديقي ، لقد جلس في مقعده وابتسم ابتسامة راضية ! أجل ، لا توجد كلمة نستطيع التعبير عن ذلك إلا أنه ابتسم برضا ، ثم سألني عما أنوي أن أفعله بشأن فكرتي المسلية هذه ، فقلت له إنني أنوي إعدامه ، فقال : حقاً ؟ بالخنجر أم بالسهم ؟

كنتا قد أوشكنا على تناول كوب من الشكلاطة معاً ، فقد كان محباً للحلوى . قلت له : أسهل طريقة ستكون بالسهم .

وتأولته كويماً كنت قد صبيته فقال : في هذه الحال أتمتع إن شربت من كويك بدلاً من أن أشرب من كويي ؟

فقلت : لا ، أبداً .

في الحقيقة لم يكن ذلك مهماً ، فكما قلت : أنا أيضاً أتناول الحبوب المنومة . لكنني ومنذ أن بدأت بتناولها كل ليلة لفترة طويلة اكتسبت نوعاً من المقاومة ، والتجربة التي تتوّم نوروتون تؤثر في تأثيراً بسيطاً . كان الدواء في شراب الشكلاطة وقد تناول كلانا القدر نفسه منه ، لكن جرعته أثرت فيه فوراً في حين لم تأثر أنا إلا قليلاً ، ولا سيما بعدما عادلتها بجرعة من الإسبركتين .

وهكذا انتهى هذا الفصل . وعندما نام نوروتون أجلس بسهولة

على كرسي المتحرك الذي يحوي العديد من التقيات ، ومن ثم أعدت الكرسي إلى مكانه المعتاد عند النافذة خلف الستائر . وعندما نام الجميع بعدما وضعني كيرتس في الفراش قادت نوروتون إلى غرفته ، ولم يبق أمامي سوى أن أضع نفسي أمام أعين وأذان صديقي الطيب هيستنز .

وبما لم تكن قد أدركت ذلك ، ولكتبي أضغ شعراً مستعاراً ... واعلم أيضاً أنني كنت أستمعل شارباً صناعياً ! حتى جورج لا يعلم ذلك ، وقد نظاهرت عندما قدم كيرتس بأثني أحرفته ، وعلى الفور قام مُرَتَني بإعداد بديل مماثل .

حسناً ، أخيراً ارتديت رداء نوروتون وشققت شعري الأبيض عند المقدمة ومشييت عبر الممر وطرقت بابك ، وفتحت أنت الباب ونظرت بعينيك الناعستين عبر الممر ، فماذا رأيت ؟ رأيت نوروتون يخرج من الحمام وهو يعرج عبر الممر إلى غرفته ، ثم سمعته وهو يغلق الباب من الداخل بالمفتاح .

بعد ذلك نزعرت الرداء عني ووضعت على نوروتون ومددته على السرير ، ثم أطلقت النار على رأسه من مسدس صغير كنت قد اشترت واحفظت به (ولم أستمع له إلا في مناسبتين خرج فيهما نوروتون من غرفته ، فوضعت في درج طاولته لثراء الخادمة وتشهد بأنه ملك له) . بعد ذلك غادرت الغرفة بعد أن وضعت المفتاح في جيب نوروتون وأوصدت الباب من الخارج بمفتاح شبيه كنت قد حصلت عليه منذ زمن ، وأرجعت الكرسي المتحرك إلى غرفتي . ومنذ ذلك الوقت وأنا أكتب هذا التوضيح .

أنا تعبت جداً والجهد الذي عانيته قد أثر في بشكل كبير، ولا أظن أن وقتاً طويلاً سيمضي قبل أن أموت، لكنني أريد أن ألقت انتباهك إلى نقطة أو نقطتين: إن جراتم نورتون كانت هي الجرائم الكاملة، أما جريمتي فلم تكن كذلك ولم أكن أن تكون كذلك. كانت أنسب وأسهل طريقة للتخلص منه هي قتله أمام الجميع، كان أقتله بالخطأ بمدسي الصغير مثلاً، وكنت سأظهر الشموخ بالأسى والندم على هذا الحادث الذي يبدو كحادث مأساوي. كانوا سيقولون إن المسكين لم يكن يعلم أن المدسم كان محشواً، يا له من فني مسكين!

ولكنني لم أرغب في هذه الطريقة، وسأخبرك لماذا فعلت ذلك: كان هذا - يا هينغز - لأنني أردت المقامرة. نعم، أردت المقامرة، وها أنذا أرتكب كل الأمور التي كنت تلومني دائماً لأنها لم أكن أفعلها، وأنا عادل معك، أحاول تحديك وألعب اللعبة وكل الفرص متاحة أمامك لاكتشاف الحقيقة. إن كنت لا تصدقني فدعني أسرد لك كافة الأدلة.

المفتاح مثلاً: أنت تعلم (لأنني أنا من أخبرك بذلك) أن نورتون وصل بعدي، كما أنك تعلم (لأنني أخبرتك) أنني غيوت عرفتني بعد وصولي إلى «ستابلز» بقليل، وأنت تعرف (لأنني أخبرتك أيضاً) أن مفتاح غرفتي قد اختفى بعدما وصلت إلى «ستابلز» فصنعت مفتاحاً جديداً.

ولهذا فعندما تسأل نفسك: من قتل نورتون أو من أطلق عليه النار ثم استطاع مغادرة الغرفة التي كان بابها موصداً من الداخل

بصورة واضحة قاطعة، في الوقت الذي كان فيه المفتاح في جيب نورتون؟ عندما تسأل نفسك هذا السؤال فلن تجد سوى جواب واحد: إنه هيركيول بوارو. بوارو هو الوحيد الذي امتلك مفتاحاً بديلاً لإحدى الغرف منذ وصل إلى «ستابلز»، وهو الذي رأيته أنت في الممر!

بل إنني أنا نفسي سألتك إن كنت متأكداً من أن الرجل الذي رأيته في الممر هو نورتون. وقد أدهشك سؤالي وسألتني إن كنت أقصد أن الرجل الذي رأيته لم يكن نورتون، فأجبتك بأنني لم أفل إنه لم يكن نورتون، ولا سيما وأنني بذلت الكثير من الجهد لإثبات أنه كان نورتون بالتأكيد. ثم أثرت موضوع الطول وقلت لك إن جميع الرجال هنا أطول من نورتون، ولكن كان بينهم رجل أقصر من نورتون وهو هيركيول بوارو، وأنت تعلم أن العمر يستطيع أن يزيد من طوله بسهولة بواسطة الكعب العالي وروافع الأحذية.

لقد اعتقدت أنني عاجز مريض، ولكن لماذا؟ فقط لأنني أخبرتك بذلك. لقد أبعدت جورج، وكان دليلي الأخير إليك هو أن تذهب إلى جورج وتحدث إليه.

الأدلة التي تركتها لك (عطيل وكلوتي جون) توجه نظرك إلى أن «س» كان نورتون، فمن إذن كان يمكنه قتل نورتون؟ فقط هيركيول بوارو! وحينما تبدأ بالتفكير بهذه الطريقة لسوف تفهم الأمور الباقية كلها، الأمور التي قلتها وفعلتها؛ صممت الذي لا يمكن تفسيره، وشهادات الأطباء من مصر وطبيب الخاص في لندن بأنني لم أكن عاجزاً عن المشي، وشهادة جورج بأنني كنت أصعب

شعراً مستعاراً، والحقيقة التي لم أكن قادراً على إخفاها والتي كان ينبغي أن تلاحظها، وهي أنني أعرج أكثر مما يعرج نورتون.

ثم تأتي أخيراً إلى طليقة المسدس... نقطة ضعفي الخاصة. كان ينبغي أن أطلق النار على صديقه، هذا أمر أعرفه تماماً. لكنني لم أستطع السماح لنفسي بهذا العمل الذي سترك أثراً يقتصر إلى التجانس والتوازن. فما الذي صنعت؟ أطلقت الرصاصة في منتصف الجبهة تماماً! نقطة ذات تناظر كامل. لقد غلبني عشقي الدائم للتجانس والكمال!

آه يا هيستغزا! كان يجب أن يخبرك هذا بالحقيقة. مع ذلك فربما كنت قد شككت بالحقيقة وعرفت الأمور كلها قبل أن تقرأ كلماتي هذه. أهذا ممكن؟ لا أظن، فأنت ذو طبيعة رقيقة وتبالغ في ثقتك بالآخرين.

بم يجب أن أخبرك أكثر من هذا؟ أظنك ستجد أن فرانكلين وجودك قد عرفا بالحقيقة، على الرغم من أنهما ما كانا ليخبرائك بها. سيكون هذان الاثنان سعيدين معاً، وسيكونان فقيرين، وستلدعهما الحشرات الاستوائية وتصيبهما الحمى، لكن لكل منا أراه عن الحياة المثالية، أليس كذلك؟ وأنت يا صديقي المسكين الوحيد هيستغزا! إن قلبي ينزف من أجلك، فهل تأخذ بتصيحة صديقك العجوز بوارو للمرة الأخيرة؟

بعد أن تقرأ هذه الكلمات اركب القطار (أو السيارة أو الحافلة) واهذب للبحث عن إليزابيث كول التي هي أيضاً إليزابيث لينسفيلد، ودعها تقرأ هذا الشرح أو خبرها به. أخبرها أنك أيضاً كنت على

وشك أن ترتكب نفس العمل الذي ارتكبته أختها مارغريت، ولكن مارغريت لينسفيلد لم تكن لديها بوارو ليحرسها. أزل عنها ذلك الكابوس وأخبرها بأن والدها لم يقتل بيد ابنته، بل بيد صديق العائلة الطيب العطوف، إياغو الصادق، ستيفن نورتون!

من غير الصحيح - يا صديقي - أن تنأى امرأة مثلها عن الحياة وهي شابة جذابة فقط لأنها تظن أنها ملوثة، نعم، هذا لا يصح. أخبرها أنت بتقمتك يا صديقي، أنت الذي ما زال النساء يجدنه جذاباً.

حسناً، ليس لدي المزيد لأقوله. لا أعلم - يا هيستغزا - إن كان يمكن تبرير ما فعلته أو لا يمكن، فانا أؤمن بأن أي إنسان لا يملك الحق في أن يطبق القانون بنفسه، ولكن ومن ناحية أخرى فانا القانون. حينما كنت شاباً في الشرطة البلجيكية قتلت مجرمًا يائساً جلس على أحد السطوح وراح يطلق النار على الناس في الأسفل، واليوم أنقذت حياة كثير من الأبرياء حينما قتل نورتون. ولكني لا أدري إن كان ما فعلته صحيحاً أم غير صحيح رغم هذا كله. وقد يكون خيراً لي أن لا أعرف. لقد كنت متأكدًا من كل شيء تأكدًا تاماً على الدوام. لكنني أقول الآن بنواضع الطفل الصغير (إنني لا أعلم!

وداعاً يا عزيزي. لقد أبعدت زجاجة كبسولات الإيميلتريت عن جانب سريرى، فانا أفضل أن أترك نفسي تحت رحمة الخالق، وأرجو أن يأتي عقابه أو أن تأتي رحته سريعاً.

لن نصطاد معاً مرة أخرى يا صديقي. لقد كانت رحلة صيدنا

الأولى هنا وهنا كانت الأخيرة. لقد كانت أياماً طيبة، نعم، كانت أياماً طيبة.

(انتهت مخطوطة هيركبول بوارو).

✻ ✻ ✻

ملاحظة أخيرة بقلم الكاتبين أولتر هبستغز: لقد انتهت من القراءة، وأكاد لا أستطيع تصديق الأمر حتى الآن! لكنه على حق؛ كان عليّ أن أعرف، كان عليّ أن أعرف عندما رأيت ثقب الرصاصة في منتصف الجبين تماماً!

✻ ✻ ✻

رياحين

www.liilas.com/vb3